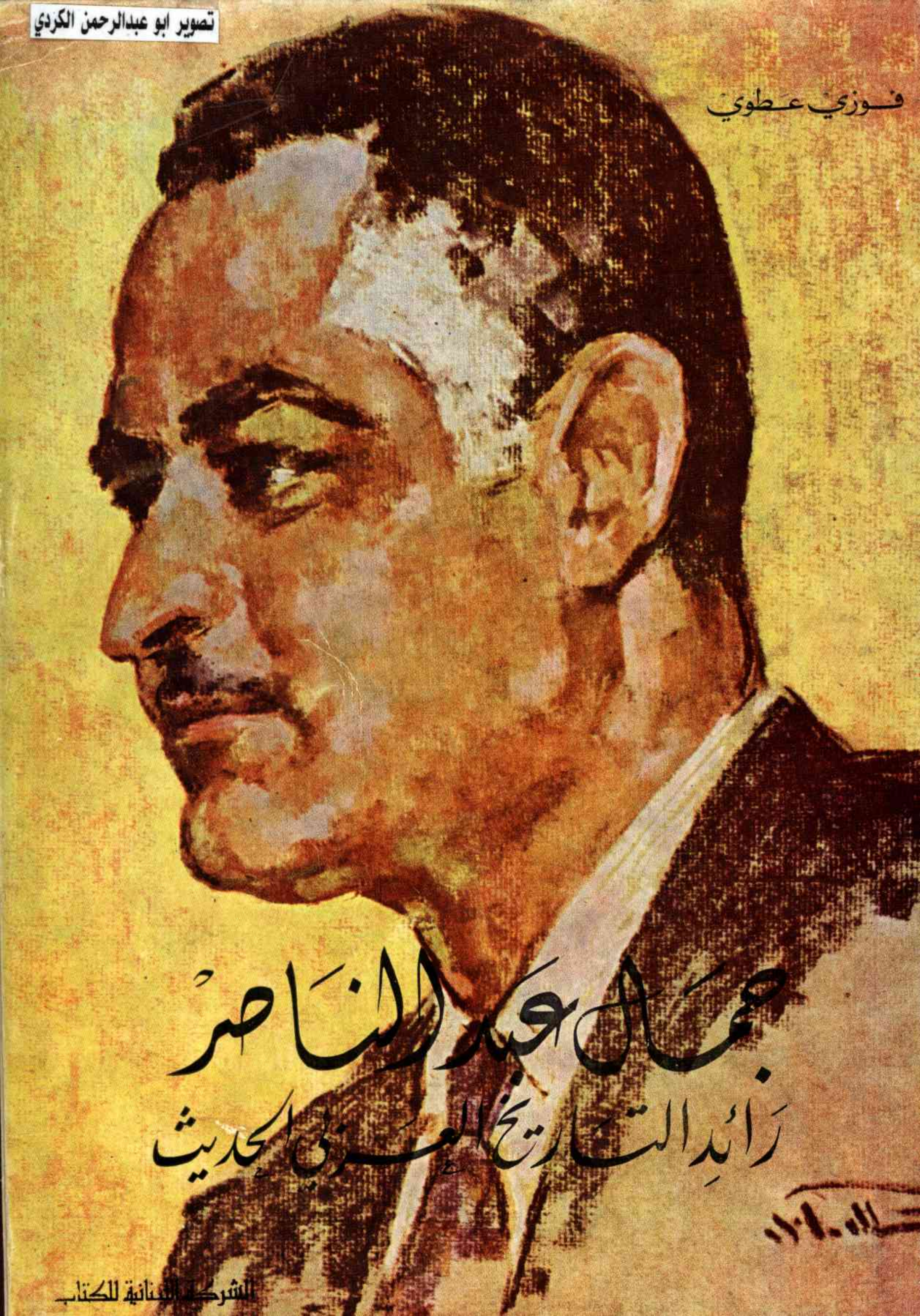

تصوير ابو عبدالرحمن الكردي
فوزي عطوي
جمال عبد الناصر
رائد التاريخ العربي الحديث
الشركة اللبنانية للكتاب

جمال عبد الناصر

رائد التاريخ العربي الحديث







المقدمة

إن كتابة التاريخ تقتضي استقراراً في الأحداث ، ووضوحاً في ملامح الاشخاص الذين صنعوا او ساهموا في صناعة هذه الأحداث ، كما تقتضي قيام فاصل زمني ما بين بروز الاشخاص وتحقق الأحداث ، حتى يستطيع المؤرخ جلاء الصورة ، والحكم بالتالي للأشخاص او عليهم .

والأحداث التي يمرُّ بها الوطن العربي ما تزال تصطرع على الارض العربية ، ما بين الخليج والمحيط ، وتتفاعل على الصعيد القومي والعالمي ، بحيث أنها الشغل الشاغل ، والموضوع الاهم الذي توليه الدوائر الدولية عنايتها ، وتحاول ، على ضوئه ، تبيّن المصير المبهم لمنطقة الشرق الاوسط ، وبناء المواقف المناسبة التي ينبغي ان تتخذها السياسة العالمية ، في علاقاتها مع الدول ، وبوجه خاص العلاقات ما بين الدول الكبرى والدول النامية .

ومن هنا ان تأريخ هذه الأحداث ما زال بحاجة الى ارتقاب استقرارها ، او ايلولتها الى نتيجة شبه نهائية ، كما لا يزال بحاجة ايضاً الى الفاصل الزمني الذي يجعل المؤرخ ينظر اليها نظرة موضوعية مجردة ، من الخارج ، لا نظرة منفعلة متأثرة ، لكونه في خضمّ موجها المتلاطم .

ومما لا ريب فيه أنه ، اذا كان من غير الميسور ، بعد ، كتابة تاريخ الأحداث العربية المعاصرة ، بصورة امينة دقيقة ، ففي اقل تقدير ، يستطيع

المؤرخ المعاصر أن يكتب تاريخ الرجل العظيم الذي كان رائداً للحركة العربية الحديثة ، والذي كانت كلمته ترجح كفة الميزان في السياسة العربيـة ، وفي موقف السياسة الدولية من القضية العربية ، على مدى ثمانية عشر عامـاً من تاريخ مصر والعروبة .

ومتى نهض احدنا ، اليوم ، الى كتابة تاريخ جمـال عبد الناصر ، الرجل والقائد ، والرائد القومي ، والبطل الانساني ، فانه لا يقف عند حدود جمود السرد التاريخي ، وإنمـا يتعدى التاريخ الى الحديث الحي الذي يضفي على الشخص والحدث حركة قلّ أن حوتها التواريخ والسِيَر .

لقد كان من حظنا ان نعيش في عصر جمال عبد الناصر ، وأن نشهد صعود نجمه ، على كل صعيد ، وصموده إزاء المحن التي ابتليت بها أمته ، ورفضه لكل نكسة تصيب الوطن ، فاذا بطاقاته الشخصية ، وإيمانه العميق بعدالة القضية التي تـكافح الأمة من اجلها ، اذا بذلك كله يحمله على نفخ الروح البطولية في ابنـاء شعبه ، حتى لكنت ترى الانكسار يتحول على يديه الى انتصار ، والنكسة تؤول بفضله الى طموح للتحرير ، ومحو العار .

فاذا أرّخنا للرجل ، وتحدثنا عن مراحل حياته النضالية التي انتهت بوقفة نضالية عزيزة ، فاننا لا نكون سوى شهود مخلصين في قضية هـذا الرجل الرائد الذي منح أمته عمره وقطرات دمائه .

وأيسر ما في التأريخ لجمال عبد الناصر ، أن كتابات الرجل ، وخطبه ، وأحاديثه ، هي سجل حافل يكفي وحـده للشهادة بأثره قائداً ورائداً وزعيماً . كما ان الكتابات والخطب والأحاديث التي قيلت عن الرجل ، وفي طليعتها كتابات رفـاقه من رجال الثورة ، وأخصهم بالذكر الرئيس انور السادات ، ورفاقه من رجال السياسة والفكر ، سواء في مصر ، او في الوطن

العربي، او في العالم، إنما هي الاخرى تشكل سجلاً لا يستطيع المؤرخ تجاهله اذا اراد ان يستكمل بحثه ، ويوفي الرجل حقه من التقدير والإعظام .

ولئن كنا نعترف ، منذ الآن ، بأن هـــذا الكتاب التاريخي التحليلي السياسي، هو محاولة متواضعة ، وإسهام ضئيل في إحياء ذكرى البطل العربي العظيم ، فان كتابة المرحلة التي عاشها جمــال عبد الناصر ، في تاريخ مصر ، مــا تزال تنتظر قلم الصحفي الكبير ووزير الارشاد القومي السابق الاستاذ محمد حسنين هيكل الذي قدم استقالته من الوزارة الى الرئيس انور السادات، لغاية « نبيلة » ، هي أداء واجبــه الطبيعي في رئاسة تحرير « الاهرام » ، ومن ثم كتابة تاريخ جمـــال عبد الناصر الذي كان من اقرب المقربين اليه ، والذي تعتبر الكتابات التي نشرها ، في « الاهرام » ، حتى الآن ، عنــه ، من اصدق الكتابات ، وأعمقها ، وأشدها أسراً وتأثيراً في نفوس قرائه الذين أحبوا أسلوبه ، وأعجبوا بفنه الصحفي الرفيـع .

ومع ذلك ، فكل كلمة يكتبها معاصر مخلص عن جمــال عبد الناصر ، تبقى لبنةً وثيقة في بنــاء تاريخ الرجل الكبير الذي كان في رأس هواياته صناعة التاريخ .

بيروت في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠

فوزي عطوي

جمال عبد الناصر

في العظماء رجالٌ يصنعون الاحداث ، او رجـــال تصنعهم الاحداث ، فيجسّدون آمال الأمة ، او تجسّد الأمة آمالها فيهم . وأما جمال عبد الناصر فلم يكن ، في العظماء ، صانع احداث او صنيعة احداث وحسب ، بل كان الرجل ، بحدّ ذاته ، هو الحدث الكبير .

على امتداد ثمانية عشر عامـــاً من التاريخ العربي المعاصر ، اختصر جمال عبد الناصر تاريخ العروبة ، قديمها وحديثها، فحمل بين برديه شخصية البطل الاسطورة الذي طالما استهوى تاريخنا القديم، كما حمل في قلبه وعقله ووجدانه كله ، مطامح العرب وتطلعاتهم فأعلنها ، مخلصاً ، في كل مـا قال وخطب وكتب ، وجسّدها ، مخلصاً ، في كل ما أتاه من جليل الاعمال .

ولم يكن طموح عبد الناصر ، وهو طموح المئة مليون عربي ، ليقف عند حدود تبديل نظام حكم بنظام حكم آخر، وإلا لكانت حركته دارت فيإطار الانقلاب العسكري الصرف ، وإنمـا آمن عبد الناصر ان ممارسة الحكم الدستوري ، في مصر ، يجب ان تقترن بـه ممارسة اخرى للقيادة القومية ، والريادة الوطنية ، ذلك ان تجسيد اهداف الأمة ، وبعث أمجادها ، قلما تأتيا لرجلٍ بصفته حاكماً فقط ، إلا اذا كان في شخص هـذا الحكم من المواهب القيادية ، والكفاءات الطبيعية ، ما يستهوي الجماهير ، فيسيطر على مشاعرها

ويوجه تحركاتها ، ويقودها الى الهدف الذي رسمته الأمة، على امتداد الاجيال فجاء يتبنى الهدف ، ويسلك اليه ، مع الشعب ، سواء السبيل .

كانت كلمة جمال عبد الناصر، وستبقى الى سنوات ٍ غير قلائل، هي الحكم الفصل في كثير من القضايا والاشخاص : ما يباركه الرجل ، يعتبره العرب مباركاً، ومن يَصِمُهُ بمذمة، فهو الذميم الذي تنصبُّ عليه لعنات الشعوب .

ولم تكن هذه الاستجابة من الشعب لإرادة القائد دليلاً على انعدام إرادة الشعب ازاء ارادته ، وإنما ، على العكس من ذلك ، كانت الاستجابة من الشدة ، والعصف ، والاطلاق ، بمقدار ما كان الايمان قائماً بأن ارادة القائد هي ارادة الشعب ذاته ، بل هي الارادة الاقوى ، لأنها الارادة الاسمى .

وقبل عبد الناصر ، كانت الشعارات كثيرة ، وأكثر منها المبادىء والافكار التي تملأ بطون الكتب والمؤلفات، او التي تتراقص على شفاه الخطباء والادباء والشعراء ، او التي تجول في صدور العرب اجمعين . ولكن بروز عبد الناصر ، بالصورة التي عرفها التاريخ المعاصر ، على الصعيدين الدولي والعربي ، كان مرده الى حاجة الشعب العربي المتطلع نحو كثير من القيم ، والمثل ، والأهداف ، لقائد بطل ، يحطم اسطورة التخلف ، ليبني الكرامة القومية ، وليكون رمزاً لمطامح كثيرة ، وعنواناً لعبقريات فذة تجسدت فيه بعد إذ كانت متناثرة في رحاب التاريخ العربي ، وبذلك كان الرجل فلتة من فلتات الزمان التي لا يجود الدهر بمثلها إلا نادراً .

كان جمال عبد الناصر خالص الوطنية ، صافي العروبة، مؤمناً بحق أصغر فرد في أصغر بقعة من العالم الواسع ، إيمانه بحق ابنه او حفيده ، بالحياة الكريمة التي لا يجوز ان تشوّهها أنظمة فاسدة ، او تقسيمات طبقية موتورة ، او ظروف اجتماعية قاسية ، صيّرت بعض الناس ، في غفلة من التاريخ ، سادةً متزعمين ، وأرغمت بعض الناس ، في غفلة اخرى من التاريخ ، على ان

يكونوا مَسودين متزلمين. وبين التزعُّم والتزلم ، جاء عبد الناصر يحرر المتزعم من عقدة الكبرياء ، ويحرر المتزلم من عقـدة الخضوع ، وبذلك حفظ كرامة المواطن ، وصان شرف الانسان ، حيث كان .

اما ان جمال عبـد الناصر اسطورة ، فذلك صحيح ، وهو امر لا يحتمل نقاشاً ، ولا ينساق الى جدال .

جمال عبـد الناصر حرّر مصر عام ١٩٥٢ ، وطرد المستعمر من بلاده ، وساعد على طرده من كل شبر عربي يئن تحت سياط غاصبيه وجلاديه، فكانت بداية الاسطورة .

ثم انتصر جمال عبد النـاصر ، وانتصر العرب مع جمـال ، في معركة السويس عام ١٩٥٦ ، بعد تأميم القناة ، فاندحر أشرس عدوان ثلاثي عرفته مصر ، وسقط زعماء ، وانهار حاكمون ، في دول كبرى ، وبقي عبد الناصر منتصراً في استعادة حق مصر ؛ فكان الفصل الثـاني من الاسطورة ، حيث تبدّل مقياس العلاقة بين العرب والمستعمرين ، فلم يعـد الحق يُشحَذ او يُطلَب ، وإنما غدا الحق يُؤخَذ ويُستعاد ، بالسياسة اذا أجدت السياسة ، وبالقوة اذا لم يرتفع ، في الميدان ، إلا ضجيج القوة !

بعدئذٍ ، سطّر جمال عبد الناصر الفصل الثالث من الاسطورة ، إذ حقق احلاماً واسعة كان العرب يتوارثونها منذ مئات السنين، فانعقد له عام ١٩٥٨، وللشعب العربي معه، لواء الوحدة العربية بين مصر وسوريا ، فكانت الجمهورية العربية المتحدة ، بإقليميها السوري والمصري ، قبلة أنظار العرب الذين بدأوا يتحسسون قيمة اتحادهم ، ومدى قوتهم ، كما كانت شوكة في حلق الاستعمار الذي أدرك ان العرب بدأوا يكتبون له بداية نهايته، فكانت ردة الفعل قوية وكانت المؤامرات والتحديات والحزازات التي اودت بالوحـدة ، فكان الجرح بليغاً ، وكان الألم القومي اكبر من احتمال الامة .

وفصل الاسطورة الرابع سجله جمال عبد الناصر في نكسة حزيران سنة ١٩٦٧ ، يوم وقف الشعب العربي ، على امتداد أرضه ما بين المحيط والخليج، يتقبل النكسة بروح صابرة صامدة ، ولكنه يرفض تخلي القائد عن الشعب ، في احلك ايامه المصيرية، حتى اذا عاد عبد الناصر عن استقالته، كانت حقيقة الانتصار ، اكبر وأعظم من خرافة الانكسار ، لأن الامة آمنت، مع قائدها بأن خسارة جولة واحدة في الحرب ، لا يعني خسارة المعركة كلها .

وللأسطورة ، في عبد الناصر ، فصول وفصول ، ولكن آخرها وآلمها ، اسطورة موته المفاجىء مساء الثامن والعشرين من ايلول ١٩٧٠ ، بعد ان جمع العرب في داره ، وأصلح بينهم ، وودعهم في محبة ووداعة ، ثم اغمض جفنيه مستسلماً لنعاس طويل لا يفيق منه إلا في رحاب الخلود .

ويقيناً ان اذكى كاتب مسرحي ، لو حاول ان يخترع احداث الفصل الاخير من اسطورة عبد الناصر ، كما تمت في الواقع ، وأن يصل الى الخاتمة المفجعة التي آل اليها العرب ، يوم الحزن الكبير ، لما صدقه الناس . ولهذا ، فكثير منهم لا يصدق ، الى الآن ، بموت الاسطورة البطولية الخالدة ، لولا ان الموت حق على العباد .

وإذا كان جمال عبد الناصر ، في اطلالته البطولية ، اسطورة ، فهو في حقيقته الانسانية ، رجل من طينة البشر ، عاش آمالهم وآلامهم ، وعانى في بلاده ، مرارة الاحتلال والاغتصاب ، وكابد اوجاع الكبرياء الجريح !

رجل لم تخلبه اضواء الحكم ، ولا افسدته بهارج السلطان ، ولا ابعدته عن امنيات قومه رسميات وشكليات تقتضيها ممارسة السلطة ، على مستواه ، بل بقي عبد الناصر انساناً وادعاً ، ضعيفاً ، مؤمناً ، يصيخ لهتاف العقل كما يستجيب لنداء العاطفة .

كان عبد الناصر انساناً وادعاً، يخالط العمال والفلاحين والطلاب، ويستمع اليهم ، ويستجيب لمطالبهم ، حتى ربيت على يديه اجيال تعتبر اسمه وحده مبدأ وشعاراً .

وكان عبد الناصر ضعيفاً مؤمناً ، يقيم الصلاة لربه ، ويؤدي قسطه نحو شعبه، ولكنه كان الضعيف الذي يحوّل ضعفه دوماً الى انتصار لمصلحة شعبه ومن هنا انه كان صانع البطولة ، وسيبقى اسمه ملهماً لحماس الابطال على مرّ التاريخ .

ولقد تميَّز عبد الناصر بطاقةٍ بشرية قلّ ان تدانيها طاقة بشريٍّ ، سواء في عمله ، او في مطالعاته ، او في خطبه ، او في تصريفه لشؤون الدولة ، او في اهتماماته العربية والعالمية ، حتى اختزن من الثقافة والعلم والسياسة ما جعله في طليعة رجال الفكر المعاصرين. ولو جُمِعت جميع خطب عبدالناصر، وتصريحاته ، وأحاديثه – وبعضها قد جُمِع – ولو قُنّنت التشريعات الاصلاحية التي استحدثها ، لأصبحت في حرز من عوامل الزمان ، لا سيما وهي جزء هام من التراث العربي والانساني .

●

فيا أيها الكبير الذي رحل ،

ظلمٌ لك ان نعدّد ، يوم ذكراك ، بعض مآثرك ، لأننا نعجز عن تعدادها جميعاً .

ويا أيها العظيم الذي غاب ،

نستعير من بريق عينيك بريقاً نقاوم الدموع التي نسفحها كلما ذكرناك ، وكلما نقل الاثير الى أسماعنا شذرات من صوتك الحبيب ، وكلما وقعت أبصارنا على نثراتٍ من عبقريّ عطائك !

ونستعير من مديد قامتك مَدداً ، نطلُ به على الدنيا إطلالتك، يا مارداً بطلاً غدا في الخالدين !

ومن قبَس رسالتك ، نستلهم قبساً نكمل به شوطك ، وأنت من عليـاء ربك ، ترقب مسيرة شعبك الظافر ، ومن روحك الفـذة ، نستمدُ كرامة العمل ، وشرف النضال تحت اللواء الذي ما طأطأ ، في يدك ، ولا وقع !

اننا نغبط ابناء الخلود ، إذ غدوت بينهم ، لأنهم ربما استأهلوك اكثر مما استأهلناك ، هنا ، على الثرى الفاني، فأعادك ربك اليهم بطلاً خالداً لا يضيع أجره ، وإن تناوشته الألسن ، في عدوان وافتراء .

وعهدٌ علينا ان نكمل ما بدأت بـه ، وأن نمحو آثار عدوان هزّ منك الضمير ، وأقلق الوجدان ، وأسكت القلب الكبير الى الابد .

وسنذكرك ، يا جمـال ، ايها الحبيب الذي حقّ لنا بكاؤه ، يوم حزننا العظيم .

سنذكرك كلما هبّت على العروبة نسمة تحمل ذرةً من سفوح الاهرام ، او طيباً من شذى النيل الساحر .

سنذكرك كلما شعّت عين صقر ، وكلما رفّ جناح نسر ، يقلق الاجواء بالمطامح والأمنيات .

سنذكرك كلما تبسم الجرح في ثغر العروبة ، في انتصاراتها ، وكلما تجهم الامل في ضمير الأمة ، في لياليها الحوالك .

سنذكرك ، يا جمال ، عظيماً مرّ كالحلم في بلادنا ، فجعل الاجيال القادمة تحسدنا على اننـا عشنا في عصره ، ورأيناه ، وعرفناه عن بعد ، وعن كثب .

وعهد علينا ذكراك يا بطل !

الانسان والبطل

يولد الانسان البطل مرتين : مرة يوم يطل على الوجود انساناً سوياً ، ومرة ثانية يوم يطل على التاريخ بطلاً يقلّب صفحات التاريخ .

وقد وُلد جمال عبد الناصر ، الانسان ، في ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ ، وُولد جمال عبد الناصر ، البطل ، في ٢٣ تموز عام ١٩٥٢ .

واذا كانت كل ولادة تجيء بعد فترة من الحمل والمخاض،فولادة عبدالناصر الانسان، وولادة عبد الناصر البطل، جاءتا على صعيد مصر والعروبة والعالم، بعد فترة تعتبر من اخطر مراحل التاريخ العالمي والعربي والمصري ، على حد سواء .

لذلك ، ارى ان أحدثك عن هذه المرحلة الخطيرة ، في تاريخنا المعاصر ، حديثاً فيه من اللمحة الخاطفة ما يغنيك عن التفاصيل ، ومن الايجاز البليغ ، ما يوفر عليك مشقة الاستطراد الممل ، لعلك تدرك أبعاد المغامرة البطولية التي خاضها جمال عبد الناصر ورفاقه « الضباط الاحرار » ، عندما قادوا أعظم ثورة رائدة في التاريخ العربي المعاصر،فكانت الشعلة المنيرة التي أضاءت سبل الاحرار في بلاد العرب ، وفي القارتين الافريقية والأسيوية ، كما ألهمت الكثير من احرار العالم معاني النضال من اجل تحرير الشعوب، وقدمت للدول النامية الحديثة الاستقلال تجاربها وخبراتها الواسعة ، في ممارسة الحكم الوطني

الذاتي، وفي مناهضة الردات الاستعمارية المأجورة التي ترمي لاستعادة ما فقدته بفضل تحرر الشعوب ، واستقلالها ، واستردادها حقوقها القومية المشروعة .

ففي ١٥ كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٨ ، لم تكن الحرب العالمية الاولى قد وضعت أوزارها بعد ، وهي حرب شملت كثيراً من دول العالم ، ومنها البلاد العربية ، ولم تنته إلا بعقد مؤتمر الصلح عام ١٩١٩ في قصر فرساي بباريس ، حيث وضعت « معاهدة فرساي » التي يعتبر ميثاق عصبة الأمم جزءاً منها لا يتجزأ ، ثم تبعتها معاهدات صلح اخرى حرصت على ذكر الميثاق في مقدمة كل منها ، وذلك تأكيداً على الرغبة في إنهاء تلك الحرب ، عنيتُ بها معاهدة سان جرمان مع النمسا في ١٠ أيلول (سبتمبر) عام ١٩١٩، ومعاهدة نويللي مع بلغاريا في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ ، ومعاهدة تريانون مع المجر في ٤ حزيران (يونيو) ١٩٢٠ ، ومعاهدة لوزان مع تركيا في ٤ تموز (يوليو) ١٩٢٣ .

وكانت مصر، منذ عام ١٨٨٢ خاضعة خضوعاً فعلياً للاحتلال البريطاني، وإن كانت من الجهة القانونية الرسمية تابعة للدولة التركية . فلما دخلت تركيا الحرب العالمية الاولى الى جانب المانيا ودول المحور ، ضد بريطانيا وفرنسا ودول الحلفاء ، كان لا بد ان تتأكد احدى السلطتين التركية او البريطانية على مصر ، فاذا الغلبة للسلطة الفعلية اي للسلطة البريطانية التي أعلنت على الفور حمايتها على مصر، وقطعت كل رابطة تربطها بتركيا. ولكن هذه الحماية لم تصبح حماية قانونية شرعية إلاّ بفضل معاهدة لوزان التي أشرنا إليها منذ قليل ، والتي وقعتها تركيا في ٤ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٣ ، وأعلنت بموجبها التخلي عن المركز الأسمى الذي كانت تحتله بالنسبة للسيادة على القطر المصري.

في فترة الحرب ، وحتى مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٩ ، أعلن البريطانيون الأحكام العرفية على مصر، وسخروا مواردها لمصالحهم، ومارسوا

ألوان الضغط وضروب الشدّة بالنسبة للمصريين ، فأجبروهم على تقديم المؤن ، والعتاد ، والغذاء ، والحاجات الاستهلاكية للجيش البريطاني المقيم في مصر ، كل ذلك ، ومصر صامدة صابرة ، تغضي على الاحتلال ، في مضض و كبرياء أليم ؛ ولما انعقد مؤتمر فرساي، أبى المحتلون للبريطانيون السماح لممثلي الشعب المصري بالسفر الى باريس للمناداة بمطالب شعبهم ، ولممارسة حقهم في تقرير مصير بلادهم ، وطلب إلغاء الحماية البريطانية ، وإعلان استقلال مصر ؛ وكانت النتيجة أن بريطانيا وفقت الى إقناع المؤتمر بإقرار الحماية البريطانية على مصر ، ثم جاءت معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ لتؤكد هـــذه الحماية بتخلي تركيا عن سيادتها وحقوقها في مصر .

لكن شعب مصر الذي ذاق من هوان الاحتلال كل مذاق، نظم صفوفه ، ووحد قواه ، وسار في ركاب زعمائـــه الوطنيين الذين فجّروا عام ١٩١٩ الثورة على المحتل الأجنبي ، وقاموا بتقطيع خطوط السكك الحديــدية ، وأسلاك الهاتف ، ومارسوا العنف ضـد السلطة ، بكل صوره وأشكاله ، وقدموا من الضحايا ما شهد للمصريين بشرف الاستشهاد دفاعاً عن كرامة الوطن.

ومع أن السلطة البريطانية نفت زعماء الحركة ، وعلى رأسهم سعد زغلول، الى جزيرة مالطة ، وبعد ذلك الى جزيرة سيشل الواقعة في المحيط الهندي ، فإن مصر ، بجميع أقاليمها ، ومختلف فئاتهـا ، لبثت عارمة الثورة ، عنيفة التمرد ، ممـــا اضطر السلطة البريطانية الى ركوب مركب الحيلة والدهاء ، مدركة أن ما لم تستطع نيله بقوة السلاح ، قد تستطيع إدراكه بالتفاوض ، ثم بتفريق صفوف القادة الوطنيين ؛ وإذا بهـا تصدر في ٢٢ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٣ ، تصريحها المشهور الذي أعلنت فيهـــا إنهاء حمايتها على البلاد ، وبالتالي استقلال مصر ، مع التحفظات الأربعة المتعلقة بمواصلات بريطانيا في مصر، والدفاع عنها ، وحماية الأقليات والمصالح الأجنبية ، ومسألةالسودان .

وهكذا ارتقى عرش مصر الملك أحمد فؤاد ، وحكم باسم شعب مصر ، في الظاهر ، ولكن أنّى له أن يحكم ، والاخطبوط البريطاني ينشب أظافره في كل مرفق من مرافق البلاد ، ويتمسك بتحفظاته الأربعة التي تكاد تعطل معنى الاستقلال الوطني ، فضلاً عن قصر نظر بعض القادة المصريين يومذاك ، وعدم ادراكهم لأبعاد السياسة البريطانية الجديدة ، ولأعماقها ؛ فما اهتموا بتطلبات الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المستجدة التي تستدعي اعادة توزيع الثروات توزيعاً عادلاً ، ولا اهتموا بتنسيق عملهم النضالي مع القادة العرب الآخرين ، في سائر ديار العروبة ، كأنما آمنوا أن علاقة مصر ببريطانيا هي قضية مصرية، بل « فرعونية » خاصة، جاهلين أن طبيعة العلاقة بين الدولتين هي طبيعة العلاقة بين كل بلد عربي محتل ، والدولة الأجنبية التي تحتله ، بحيث أن النضال العربي نضال واحد مشترك ، وأن الهدف في التحرر ، هو هدف قومي موحد .

هذا الوضع السياسي الشاذ كان من الوضوح بحيث لم يخفَ حتى على السذج من العاملين في السياسة ، ولا سيما من أبناء الشعب المصري الذين لم يقبلوا باستقلال صوري تمارس في ظله حماية بل احتلال أجنبي ، وهكذا تعددّت الاتصالات ، وتكررت المفاوضات وعمدت الأحزاب الى التسابق المخجل على كسب القضية الى جانب كل منها ، توسلاً الى حكم البلاد ، وآل الأمر أخيراً، في عام ١٩٣٦ ، الى عقد « معاهدة التحالف والصداقة » بين البلدين، فما كان التحالف إلا انتصاراً لبريطانيا وتحقيقاً لرغباتها القديمة في تسوية علاقتها مع مصر على أساس يصبح الاحتلال بموجبه امراً قانونياً مشروعاً ، وما كانت الصداقة إلا تبعية من مصر لبريطانيا ، والتزاماً من جانبها بكفالة المصالح الانكليزية لديها ، وانضمامها الى جانب الامبراطورية التي لا تغيب الشمس عن حدودها ، في تلك المرحلة التاريخية المتوترة القلقة التي كانت الأجواء الدولية تتمخض فيها بالاسباب الكافية لقيام الحرب العالمية الثانية التي نشبت عام ١٩٤٣ وانتهت عام ١٩٤٥ .

وفي ٢٨ تموز (يوليو) عام ١٩٣٧ ، تولى الملك فاروق سلطاته الدستورية، وهو يومئذ في سن الثامنة عشرة (هلالية) ، كما دخل جمال عبد الناصر الى الكلية الحربية ، وهو في التاسعة عشرة (ميلادية) من عمره ، وتخرّج عام ١٩٣٨ برتبة ملازم ثانٍ في سلاح المشاة.

وفي ٢٤ تشرين الاول (اوكتوبر) عام ١٩٤٥ ، شهد العالم قيام « هيئة الامم المتحدة » على أنقاض «عصبة الامم» ، وذلك بعد تصريحات ومؤتمرات دولية ، لتحقق رغبة العالم التائق الى التخلص من قلق المصير ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وذلك بتثبيت أُسس متينة لنظام دائم أهدافه [1] :

١ — حفظ السلم والأمن الدوليين ؛ وتحقيقاً لهذه الغاية ، تتخذ تدابير مشتركة فعالة لتلافي الاخطار التي تهدد السلم ، وإبعادها ، وللقضاء على كل عدوان او غيره من الاعمال التي تخلّ بالسلم ، ويعمد الى تسوية او فض المنازعات او الحالات ذات الطابع الدولي، التي يمكن ان تؤدي الىفصم عرى السلم ، بوسائل سلمية ، وفقاً لمبادىء العدل والقانون الدولي.

٢ — تنمية علاقات الصداقة بين الامم على أساس حرية مبدأ التساوي في حقوق الشعوب ، وحقهم في تقرير المصير ، واتخاذ سائر التدابير الملائمة لتوطيد السلم في العالم.

٣ — تحقيق التعاون الدولي فيحل المشاكل الدولية ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والانساني ، وفي إشاعة وتشجيع حرية حقوق الانسان والحريات الأساسية للبشر، من غير تمييز في العرق او اللغة او الدين او تفريق بين الرجل والمرأة.

---

(١) المادة الاولى من ميثاق الامم المتحدة.

٤ ــ جعل الامم المتحدة مركزاً تنسّق فيه جهود الامم للوصول الى هذه الغايات المشتركة .

وفي عـام ١٩٤٧ كانت المؤامرة البريطانية على الوطن الفلسطيني ، حيث فتحت ابواب الجيش ومخازن السلاح ، وقدمت شتى المساعدات ليهود فلسطين واليهود المهاجرين الى فلسطين ، ممـــا تسبّب بأحداث خطيرة بين اليهود والبريطانيين من جهة ، والعرب من جهة ثانية ، وهكذا قامت لجنة التحقيق الدولية التي ألفتها هيئـة الامم المتحدة ، فوضعت تقريراً في خمس مجلدات ، وكان من توصياتها وضع حد للانتداب، وتقسيم فلسطين الى دولة عربية ودولة يهودية، وتدويل منطقة القدس على ان تبقى المناطق الثلاث متحدة اقتصادياً، وقد أيدت الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي هــذه المقترحات ، مما جعل الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة توافق بثلثي أعضائها في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٧ على قرار التقسيم .

لكن العرب أبوا التقسيم ، واجتاحت جيوشهم الأراضي العربيـة ، فيما أمعن اليهود في وحشيتهم واعتداءاتهم الهمجية على العرب المدنيين الآمنين لبثّ الرعب في صفوفهم ، وحملهم على مغادرة فلسطين ، إلا ان قرار وقف اطلاق النار لمدة شهر ، حال دون تقدم الجيوش العربية .

وفي ١٥ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤٨ ، وبعــد معارك ومذابح رهيبة ، تآمرت بريطانيا مع اليهود ، من جديد ، وأعلنت إنهاء انتدابها على فلسطين، دون ان تتخــذ من جانبها اي تدبير للفترة الانتقالية . وبذلك اعلن دافيد بن غوريون ، رئيس اللجنــة التنفيذية للوكالة اليهودية في تل أبيب ، إنشاء دولة يهودية في فلسطين باسم « دولة اسرائيل » ، ودعا جميع اليهود في العالم لمؤازرة الدولة الجديدة ونجدتها ، وتقديم جميع انواع المساعدة لهـــا . وكانت اول نجدة من العالم، الاعتراف بشرعية قيام الدولة الجديدة،من جانب

الدولتين الكبيرتين الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي، ومن جانب غيرهما من الدول التي تتأثر بسياسة كل منهما .

بعد اعلان « دولة اسرائيل » بيوم واحد ، كان جمال عبد الناصر يحارب في فلسطين ، ويحاصَر في الفالوجا في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٨ ، بعد ان اغتال اليهود الكونت برنادوت ، الوسيط الدولي ، في القدس ، فدافع وزملاؤه عن انفسهم دفاع الابطال ، حتى ردوا العدو على أعقابه ، ولكن المفاوضات التي اجراها الوسيط الدولي الجديد رالف بانش في رودس ، جعلته يقنع جميع الفرقاء بوقف اطلاق النار على جميع جبهات القتال في كانون الثاني (ديسمبر) سنة ١٩٤٩ .

اجل ، كان عبد الناصر يحارب في فلسطين ، ولكن قلبه كان متجهاً الى مصر ، لأن تجاربه في ارض فلسطين عمّقت إيمانه بضرورة تحرير مصر من الفساد المعشش في جنباتها ، ابتداء من سيد القصر ، وانتهاء بآخر منتفع من مستنقعات الملكية والإقطاع ورأس المال الاجنبي . يقول الرئيس الراحل في كتابه « فلسفة الثورة » :

« وأنا احاول اليوم ، بعد كل ما مرَّ بي من احداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير في الثورة ، ان اعود بذاكرتي وأتعقب اليوم الاول الذي اكتشفت فيه بذورها في نفسي .

« ان هذا اليوم أبعدُ في حياتي من ايام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ ، ايام ابتداء ازمة نادي الضباط ، ففي ذلك الوقت كان تنظيم الضباط الاحرار قائماً يباشر عمله ونشاطه ، بل انا لا اغالي اذا قلت ان ازمة انتخابات النادي اثارها اكثر من اي شيء آخر نشاط الضباط الاحرار ، فقد شئنا في ذلك الوقت ان ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

« وهذا اليوم —في حياتي ايضاً — ابعد من بدء فضيحة الاسلحة الفاسدة، فقد كان تنظيم الضباط الاحرار موجوداً قبلها ، وكانت منشوراتهم اول نذير بتلك المأساة، وكان نشاطهم وراء الضجة التي قامت حول الاسلحة الفاسدة .

« بل ان هـذا اليوم في حياتي ابعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ، ذلك اليوم الذي كان بداية حياتي في حرب فلسطين .

« وحين احاول الآن ان استعرض تفاصيل تجاربنا في فلسطين، اجد شيئاً غريباً . فقد كنا نحارب في فلسطين ، ولكن احلامنا كلها كانت في مصر .

كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض امامنا في خنادقه . ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للذئاب ترعاه .

وفي فلسطين كانت خلايا الضباط الاحرار تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز .

في فلسطين جاءني صلاح سالم وزكريا محيي الدين ، واخترقا الحصار الى الفالوجا ، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعين علينا ان نحاول انقاذه .

وفي فلسطين جلس بجواري مرة كمال الدين حسين ، وقال لي وهو ساهم الفكر ، شارد النظرات :

— هل تعلم ماذا قال لي احمد عبد العزيز قبل ان يموت ؟

قلت : ماذا قال ؟

وقال كمال الدين حسين ، وفي صوته نبرة عميقة ، وفي عينيه نظرة اعمق :

– لقد قال لي : اسمع يا كال . ان ميدان الجهاد الاكبر هو في مصر»[1].

ويضيف الرئيس الراحل في كتابه « فلسفة الثورة » مقارنـاً بين الحصار « الصغير » في الفالوجا ، وبين الحصار « الكبير » في مصر ، فيقول :

« ولم ألتقِ في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من اجل مصر ، وإنما التقيت ايضاً بالأفكار التي أنارت امامي السبيل .

وأنا اذكر ايام كنت اجلس في الخنادق وأسرح بذهني الى مشاكلنا .

كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضرباً بالمدافع والطيران تركيزاً هائلاً مروعاً . وكثيراً ما قلت في نفسي :

« ها نحن في هذه الجحور محاصرين ؛ لقد غرر بنا ؛ دُفعنا الى معركة لم نعدّ لها ؛ لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ؛ وتُركنا هنا تحت النيران بغير سلاح » [2].

وحين كنت اصل الى هذا الحد من تفكيري ، كنت اجد خواطري تقفز فجأة ، عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود ، الى مصر ، وأقول لنفسي :

« هذا هو وطننا هناك ، انه « فالوجة » اخرى على نطاق كبير .. ان الذي يحدث لنا هنا صورة من الذي يحدث هناك .. صورة مصغرة .. وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء ، وغرّر به .. ودفع الى معركة لم يعد لها ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتُرك هنـاك ، تحت النيران ، بغير سلاح » [3] !

---

(١) فلسفة الثورة لجمال عبد الناصر – ص ١١ و ١٢ و ١٣ – الطبعة التاسعة – المطبعة العالمية بالقاهرة .

(٢) فلسفة الثورة ، ص ١٣ .

(٣) فلسفة الثورة ، ص ١٤ .

وإذن ، فمتى كان ذلك اليوم الذي اكتشف فيه جمال عبد الناصر بذور الثورة في نفسه ؟

مثل هذا الجواب الذي يطرحه عبد الناصر بنفسه على نفسه ، يجيب عنه قائلاً :

« ان تلك البذور لم تكن كامنة في اعماقي وحدي ، وإنما وجدتها كذلك في اعماق كثيرين غيري ، هم الآخرون بدورهم ، لا يستطيع الواحد منهم ان يتعقب بداية وجودها داخل كيانه .. ان هذه البذور وُلدت في اعماقنا حين ولدنا ، وإنها كانت املاً مكبوتاً خلّفه في وجداننا جيل سبقنا »[١] .

●

وهكذا التقت الارادات الخيرة ، وتعاهدت النفوس المؤمنة بوطنها وشعبها ، على ان تعمل عملاً ينهي الاوضاع الفاسدة السيئة التي تسيطر على مصر ، وكان تاريخ ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٢ إيذاناً بميلاد البطل الذي قدّر له ان يقود الأمة العربية ، على مدى ثمانية عشر عاماً ، وأن ينتقل بها من مرحلة التخلف الذهني والمادي ، الى مرحلة القرن العشرين ، بكل منجزاته وتطوراته العصرية الحديثة .

---

(١) فلسفة الثورة ، ص ١٧ .

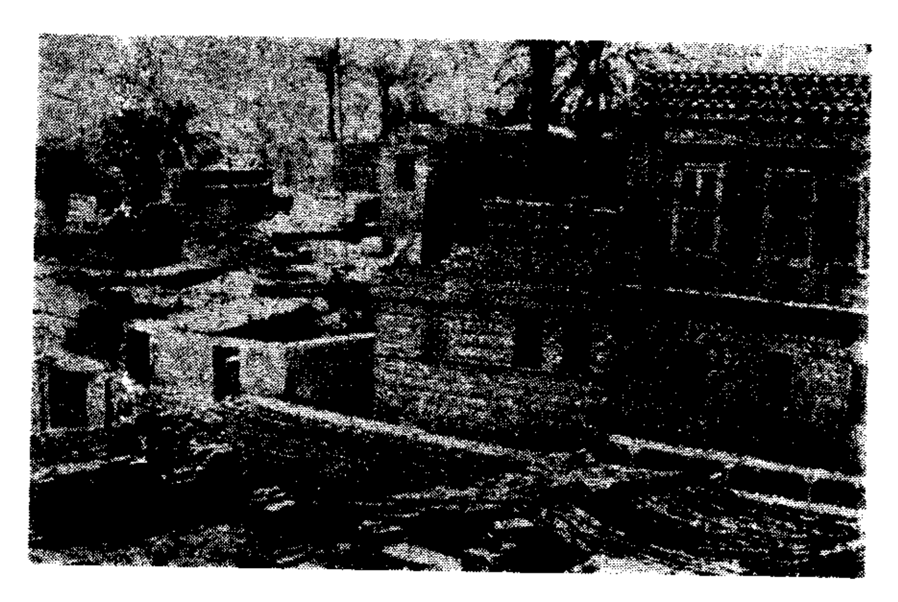
صعيدي من بني مر

وهذا حديث آخر ، ابثه اليك ، حول الجوانب الشخصية التي قد تهمك عن ولادة جمال عبد الناصر الانسان ، وسيرته ، في عهد الطفولة ، والفتوة ، والشباب ، على أن اعود اليك في حديث لاحق عن ولادة جمال عبد الناصر البطل ، مفجّر ثورة ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٢ الرائدة ، وأبعاد تلك الثورة التي تمتد جذورها في مراحل سابقة عليها ، وفي مراحلة لاحقة لها .

ففي حي « باكوس » ، بمدينة الاسكندرية ، تعالى يوم الخامس عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ صوت مولود جديد تضعه زوجة رئيس مكتب البريد ، في المنطقة ، السيد عبد الناصر حسين ، وذلك في بيت صغير من بيوت ذلك الشارع الضيق في المدينة القديمة . واتفق الرأي بين الزوج والزوجة على ان يطلق على المولود الجديد اسم « جمال » .

لكن رئيس مكتب البريد في حي باكوس ، عبد الناصر حسين، لم يكن سكندرانياً ، وإنما هو من محافظة « اسيوط » ، في الصعيد، ومن قرية صغيرة تدعى « بني مر » ، لا يتجاوز عدد سكانها السبعة آلاف ، خمسة آلاف منهم من المسلمين والباقون من المسيحيين ، وذلك من ضمن مليون ونصف المليون من البشر ، تضمهم محافظة اسيوط .

فمسقط رأس جمال عبد الناصر هو في الحقيقة ، قرية « بني مر » ، هذه



قرية « بني مر » مسقط رأس جمال عبد الناصر

القرية التي كان البطل الكبير يفتخر بالانتساب اليهـــا ، فيقول في احدى خطبه :

« انا افخر بأنني واحد من اهالي « بني مر » ، وأفخر اكثر من هذا بأني واحد من عائلة فقيرة . وأنا اقول هذا لأسجل وأعاهدكم ان جمال عبد الناصر سيستمر حتى يموت ، فقيراً في هذا الوطن » .

وأترك الحديث عن « بني مر » الواقعة على بعد ثلاثـــة كيلومترات الى الشمال الشرقي من مدينة « اسيوط » وعن عائلة الرئيس عبد الناصر ، لوكالة « انباء الشرق الاوسط » التي وضعت تحقيقاً خاصاً عن ذلك [1] جاء فيه ان الطريق الزراعي الذي يفصل بـين اسيوط وبني مر ترتفع فيه اشجار النخيل الكثيفة الرمادية المائـــلة الى الخضرة ، تحتضن بينها حقول الذرة ، وأعواد القصب .. وكلما اقتربت من القرية ، ظهرت امامك منازلهـــا وأكواخها

الرمادية اللون ، المبنية بالطوب اللبن ، وتتكون في الغالب من طابق واحد ، تظللها ايضاً اشجار النخيل التي تنتشر حول هـــذه المنازل والاكواخ ، وفي داخلها .

ويوجد في قرية « بني مر » مدرسة ابتدائية واحدة ، وثلاثـــة مساجد صغيرة ، وكنيسة ، ووحدة صحية . وهذه هي كل مظاهر الحضارة في القرية الصغيرة .

وقرية « بني مر » ، كمعظم قرى مصر قبل الثورة ، ترتبط بتاريخ طويل من الاسى والحرمان والظلم الذي عاشه المجتمع الريفي ، في ظل الاحتلال الاجنبي ، ونظام الاقطاع الزراعي . وفي وسط كل هذه الظروف القاسية ، وضع الاساس العاطفي والانفعالي لذلك الدافع الانساني الهائل في نفس جمال عبد الناصر ؛ فكان البؤس والحرمان اللذين شاهدهما في قرية « بني مر » وغيرهـا من قرى مصر ، هو السبب الاول لكراهيته للاستعمار والاستغلال والاقطاع ، والعمل على محاربتهم في كل زمان ومكان .

وحتى عام ١٨٩٠ ، لم يكن في قرية « بني مر » مدرسة واحدة . ولكن بعض ممثلي العائلات بها ، ومن بينهم حسين خليل سلطان ، جدّ الرئيس جمال عبد الناصر ، رأوا انشاء كتاب للقرية ألحقوه بالمسجد الوحيد فيها آنذاك ، بهدف تعليم ابنائهم القرآن الكريم ، والقراءة ، والكتابة ، ومبادىء الحساب. وكان اول من التحق بهـذا الكتاب ، عبد الناصر حسين ، الذي كان والده احد مؤسسيه . وفي عـــام ١٩٢٢ انشئت اول مدرسة ابتدائية للبنين في « بني مر » ، وفي عام ١٩٤٤ انشئت اول مدرسة للبنات فيها .

---

(١) من تحقيق خاص من انباء الشرق الاوسط نشرته جريدة « الأنوار » اللبنانية في عددها رقم ٢٥٧٣/٢٦ بتاريخ ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٧٠ ، اعـده حسني عبد الوهاب ومشرف ابو حشيش .

وعندما التحق عبد الناصر حسين الذي ولد عام ١٨٨٨ بالكتاب المذكور كان لا يزال في الثالثة من عمره . فلما بلغ السادسة من عمره ، كان قد تعلم القراءة والكتابة ، وأراد والده ان يلحقه بمدرسة ابتدائية ، ولكن لم يكن في مدينة « اسيوط » نفسها، البالغ عددها وقتئذ ثلاثة آلاف وتسعمئة نسمة مدرسة ابتدائية حكومية واحدة . وكان هناك مدرسة ابتدائية اقامتها الطائفة القبطية ، وكانت هذه المدرسة تقبل بين تلاميذها نسبة معينة من التلاميذ المسلمين. وتمكن حسين خليل سلطان من إلحاق ابنه عبد الناصر بهذه المدرسة ، ولبث يدرس فيها حتى حصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩١٣ ، والتي اتاحت له الالتحاق بمصلحة البريد .

وتضيف الوكالة ان أول ما يسترعي الانتباه في هذه القرية هو البيت ، الذي خرج عبد الناصر من بين أهله . وهو ، وإن كان لم يعِشْ طويلاً فيه ، أثناء طفولته ، إلا أنه طالما ضمه بين أهله وأقاربه ، عندما أصبح ضابطاً في الجيش ، وفي معسكر « منقباد » بمديرية أسيوط ، ثم عندما أصبح رئيساً للجمهورية ، بعد الثورة . ومنزل أسرة عبد الناصر لا يختلف عن غيره من بيوت القرية حتى وقتنا هذا ، فهو يقع في نهاية أحد الشوارع الضيقة المخنوقة في القرية ، بناه جده حسين خليل سلطان منذ أكثر من مائة عام بالطوب اللبن ، سقوفه كلها تقريباً من جذوع أشجار النخيل وفي طريقها الى التآكل ؛ تظلل الدار كبقية دور القرية ، مجموعة من أشجار النخل ، تتدلى ثمارها لتداني أسقف حجرات الطابق الثاني المتواضعة .. وهذا البيت الذي يضم بين جدرانه أكثر من خمسة عشر فرداً من أعمام جمال عبد الناصر وأقاربه، يسمى بمنزل العائلة أو البيت الكبير !..

وقرية « بني مر » تعتبر نموذجاً صادقاً للقرية المصرية بكل ملامحها الحقيقية .. ولا تزال تحتفظ بكل هذه الملامح ، حتى بعد أن تولى ابن من أبنائها رئاسة الجمهورية . فلا قصور شيّدت ، ولا طرقات رصفت ، ولا

حدائق نسقت ، ولا صناعات أقيمت فيها ، بل ظلت كما هي ، على حالتها الأولى . حتى إن التيار الكهربائي الذي عـم معظم قرى ونجوع مصر ، لم تتمتع به قرية « بني مر » إلا منذ شهور قليلة ، وكان جمال يحرص دائماً على أن تكون بلدته آخر بلدة تتمتع بمشروعات الثورة ، وكان يقول ذلك علانية للمسؤولين عن محافظ أسيوط .

وقد حدث عام ١٩٥٦ ، أن أنشئت الوحـدة المجمعة بالقرية ، واقترح المسؤولون انشاء قرية نموذجية عند مدخل « بني مر » ، تضم مائة وثماني فيلات ، تتوسطها فيلا أنيقة على أحدث الطرز المعمارية ، تخصص كاستراحة لرئيس الجمهورية ابن هذه البلدة ، أما باقي الفيلات فتكون لأقارب الرئيس وأهله . ولكن جمال عبد الناصر ، الزعيم والقائد الذي عرف بالنزاهة والاخلاص ، رفض الفكرة تماماً ، بعد ان وضع حجر الاساس . وأهدت البلدة قطعة الأرض ، ومساحتها سبعة أفدنة ونصف لابنها وأقاربه ، وقال الزعيم : « لو لم أكن رئيساً للجمهورية ، ما كان ليحدث هذا . لذلك فأنا لا أقبل بأي شيء يرتبط بمنصبي كرئيس للجمهورية » .

●

ونعود الى الحديث على عبد الناصر حسين ، والد الرئيس الراحل ، الذي انخرط في سلك الوظيفة ، بمصلحة البريد .

فمع بدية الحرب العالمية الأولى ، نقلته مصلحة البريد الى الاسكندرية حيث تزوج بإبنة المقاول محمد حماد الذي كان يعمل بتجارة الفحم في الاسكندرية ، لكنه كان في الأصل من مديرية « المنيا » ، وكان على صلة بأحد اخوة عبد الناصر حسين ، واسمه سلطان ، كان يعمل أيضاً في تجارة الفحم ، قبل أن يتولى شؤون الجمعية التعاونية للبترول في المنيا . وحتى ذلك

التاريخ ، وهو عام ١٩١٧ ، كان عبد الناصر حسين ، والد الرئيس جمال عبد الناصر ، أول موظف حكومي في قرية « بني مر » كلها .

وفي ١٥ كانون الثاني ١٩١٨ ، ولد الرئيس جمال عبد الناصر ، كما ذكرنا من قبل ، في حي « باكوس » بمدينة الاسكندرية .

وفي عام ١٩٢١ ، نقل والده الى « أسيوط » ، حيث استمر أكثر من عامين في مسقط رأسه .

وفي عام ١٩٢٣ ، نقل الى « خيل العربين » بالقرب من السويس ، الى الخطاطبة ، على حافة الصحراء الضريبة ، ثم الى دمنهور ، وبعدها الى الاسكندرية ، مرة أخرى ، وفي النهاية نقل الى القاهرة حيث الادارة العامة لمصلحة البريد .

وكان عبد الناصر حسين ، طوال هذه المدة ، يضطر لنقل اسرته معه ، كلما نقل من مركز الى مركز للعمل ؛ فإذا تعذّر عليه الحاق اولاده بمدرسة في المركز الذي يعمل فيه،عهد بهم الى بعض اقاربه لمتابعة دراستهم الابتدائية او دراستهم الثانوية .

ولا يخفى ان حياته ، كموظف محدود الراتب ، كانت تتعرض لكثير من المشقات والصعوبات، لأنه بارح بلدته، وهو لا يملك غير مرتبه،فلا رأس مال ولا ممتلكات تسعفه على متطلبات الاسرة ، وضرورات الحياة .

وفي الخامسة من عمره ، أي عام ١٩٢٣ ، ألحق جمال عبد الناصر بمدرسة مصلحة السكة الحديدية في الخطاطبة ، وكان التعليم فيها يقتصر على القراءة والكتابة .

وفي عام ١٩٢٥ ، التحق جمال بمدرسة النحاسين الابتدائية في القاهرة ، وعاش ابن السابعة من عمره في عهدة عمه خليل حسين الذي كان موظفاً في

وزارة الاوقاف بالقاهرة ، والذي كان يسكن منزلاً يقع في شارع « السكة الجديدة » بالموسكي .

ولا ريب في ان هذه الفترة الاولى من حياة القائد البطل قـــد جعلته يكتسب ميزتين عظيمتين ندر ان اتفقتا لرجل فرد : ميزة العناد والعزة والشهامة في فلاح الوجه القبلي ، وميزة الاهتمام بما يتعدى افق الحياة اليومية، وهي على العموم ميزة سكان البحر، ومن هاتين الميزتين المتحدرتين اليه بالوراثة عن ابيه وأمه ، تولدت في نفس الفتى تلك الروحية الثورية التي لازمته طيلة حياته الاسطورية المليئة بالأمجاد والبطولات .

ولا نستطيع ان نتجاوز هـــذا الانتقال ما بين مدرسة مصلحة السكة الحديدية في « الخطاطبة » ومدرسة النحاسين الابتدائية في « القاهرة » دون ان نشير الى عوامل نفسية أثرت في جمال عبد الناصر أيما تأثير . ففي الخطاطبة رأى جمال لوناً جديداً من الحياة ، لأنه اصبح هذه المرة، يعيش في صميم الريف ، حيث تحيط الخضرة به من كل جانب ، وعلى غير بعيد توجد ضيعة « مبارك بك الجيار » — اول « بك » يراه جمال — وكثيراً مـا كان يذهب الى هناك في صحبة والده ، ويسعد في كل مرة لأنـــه يعود راكباً حمارة « البك » .

كان جمال قـد تعود على صخب حي « باكوس » في الاسكندرية ، وعلى هـــدوء « الخطاطبة » الريفي . ولكن الوضع في القاهرة كان مختلفاً ؛ فهنا يعيش اكثر من مليون نسمة (في ذلـك الوقت) ، فبدت المدينة له شديدة الازدحام ، وخاصة عندما كان يسير في طريقـه الى مدرسته الجديدة . كان في الثامنة ، ولكنه كان يتميز عن بقية رفاقه بأنـه امام أي موضوع يضع السؤال : « لماذا » ؟

ولما كانت الاجابات التي يحصل عليها غير كافية غالبـاً ، فانه يكتفي بالابتسام، ثم ينطوي على نفسه، ويطيل التفكير في الموضوع الذي سأل عنه.

وكان قد تعوّد في هذه الفترة ان يكتب خطابات الى والديه ليخفف من حدة حنينه وشوقه اليهما ، وليسعد بردود والدته عليه . وفي احدى المرات، كتبت اليه والدته أنها ستذهب الى الاسكندرية لتضع طفلاً ، وكان هذا هو آخر خطاب يتلقاه منها . وظل يكتب اليها دون ان يتلقى منها اي رد .

وعندما انتهى العام الدراسي ، اسرع جمال بالعودة الى « الخطاطبة » ، ولكنه لم يجد والدته هناك . سأل عنها ، وكان الجواب هو الصمت . وفي النهاية قال له والده في حزن : « ماتت يا جمال . ماتت بعد ولادة اخيك « شوقي » بأيام قليلة » .

غادر جمال مبنى البريد ، وسار وحيداً الى الصحراء القريبة من القرية . كانت هذه اول تجربة له مع الموت [1] .

لم يكن طفلاً مرحاً سعيداً ، وأمام الموت اصبح حزيناً دائم التفكير ، واستأذن والده ، قبل نهاية الاجازة ، في ان يذهب الى الاسكندرية ليعيش مع جده ، ووافق الأب . وهناك في الاسكندرية، التحق بمدرسة «العطارين» الابتدائية ، وسنه لا تزيد عن تسع سنوات .

ومرت ثلاث سنوات ، وفي احدى امسيات تموز (يوليو) الحارة ، رأى حشداً من الناس يتدفقون من الشوارع نحو ميدان « محمد علي» . لم تكن لديه فكرة عن السبب في تدفق هذا الحشد،ولكنه اشترك مع هذا الجمع المتزاحم، المتصايح . وعندما وصل الجميع الى الميدان ، رأى الخطباء الذين يلقون الكلمات .

---

(١) يقول داوود الصائغ في مقال بعنوان « ٥٢ عاماً من الكفاح » نشر في مجلة « الاسبوع العربي » اللبنانية — العدد ٥٩١ الصادر في ٥ تشرين الاول سنة ١٩٧٠ : ان جمال انطوى على نفسه ، بعد موت أمه ، يقرأ في بيت عمه الرسائل التي بعثت بها اليه قبل موتها .

كان الجو الذي يحيط به ، مثيراً للغاية . كان هناك رجال بوليس وجنود انكليز . وأمام صيحات المتظاهرين ، انطلقت عدة طلقات نارية ، وصرخ رجل ، ووقع جريحاً . كل هذا ، وجمال يصيح ايضاً ، دون ان يعرف تماماً لماذا يتظاهر ؟

كان يكفي بالنسبة إليه ، انه يقف ضد الانكليز . وفجأة ، قبضت يد كبيرة على ياقة قميصه ، ووجد نفسه في قبضة القانون ، وزج به مع عشرات المتظاهرين في عربة البوليس ، ثم سيقوا الى اقرب نقطة بوليس ، ووضعوا جميعاً في غرفات السجن . وفي السجن اتجه جمال الى شاب بجواره ، وسأله : « من أجل ماذا كنّا نتظاهر ؟ »[1]

لقد كانت المظاهرة احتجاجاً على تحرش الانجليز بمظاهرة قام بها الطلبة في مدينة المنصورة . وهكذا ازدادت حماسة الفتى الذي لم ينم طيلة الليل ، وهو في السجن ، بل راح يتحدث عن ضرورة محاربة الانجليز ، وطردهم من مصر . حتى إذا اصبح الصباح ، تمكن جده حسين خليل سلطات ، بعد تدخل لدى السلطة المسؤولة ، من اخراجه من السجن .

وهكذا ، وقف جمال عبد الناصر ، رغم طراوة عوده ، امام قضيتين كبيرتين تفوقان تصوره واحتماله ، في ذلك العمر : الموت والسجن ، أضف الى ذلك شعور بغربة دائمة ، فكأنه مثل المتشرد ، لا يستقر به المقام ، ولا تطول به صحبة الأجواء العائلية ، بسبب اضطرار ابيه الى التنقل المستمر ، بداعي الوظيفة .

ولقد تسأل : اما كان في امكان عبد الناصر حسين ان يتدبر اموره ،

---

(١) من مقال بعنوان « الانسان » لعبد الفتاح رزق ، نشرته مجلة « روز اليوسف » القاهرية في عددها رقم ٢٢٠٨ الصادر بتاريخ ٥ تشرين الاول سنة ١٩٧٠ .

وان يقنع المتنفذين ، آنذاك ، بالتخفيف من قرارات النقـــل ، كلما طاب له إصدار قرار ؟

والإجابة على ذلك: « إن السبب في تنقل والد الرئيس من بلد الى آخر ، انه لم يكن لديه اي واسطة او نفوذ لدى كبير ، داخل مصلحة البريد » على حد قول جورج فوشيه ، صاحب كتاب « جمال عبد الناصر وصحبه » .

ويوضح جورج فوشيه أيضاً مدى تأثر جمال عبد الناصر بالجو العام المسيطر على مدرسة النحاسين الابتدائية بالقاهرة ، والتي تواجه مقابر سلاطين المماليك المجاورة لحي الحسين وخان الخليلي ، فيقول :

« لا شك ان هذا الجو الديني من مساجد ومشايخ وروائح البخور .. قد اثر في شخصية الرئيس ، وتوج إيمانــه بالدين ، وقيمه الروحية والاخلاقية ، ومبادئه الفضلى » [1] .

ويبدو ان ملامح الزعامة والريادة كانت بادية على جمال عبد الناصر منــذ الصغر ، فهو يسلك مسلكاً يخالف مسلك اولاد المدارس عادة ، فإذا دخــل مع رفاقه في نقاش ، كان رأيه هو القول الفصل في ذلك النقاش .

وكان لجمال رفيق في المدرسة ، هو اقدم اصدقائه ، جمعتــــه به زمالة الدراسة ، كما جمعت والدهما زمالة العمل في مصلحة البريد ، وزمالة « التنقل » معاً من بلد الى بلد ؛ هذا الصديق القديم هو السيد حسن النشار المدير بشركة مصر للتأمين الذي يقول ، فيما يرويه من ذكريات عن عبد الناصر :

كان جمال عبد الناصر بالنسبة لنا ،كزملاء في المدرسة وأصدقاء في الحياة،

---

(١) جورج فوشيه في كتابه « جمال عبد الناصر وصحبه » .

يمثل شيئاً مبهماً . فهو رائدنا في كل شيء : في الدراسة ، وفيما بعـــد الدراسة كان اطول قامة منّا جميعاً ، وكان رزيناً يستأنس بالوحدة والتأمل والصمت. وكان دائم التفكير. وكان أبعدنا عن الخطأ وارتـكاب ما يستوجب المحاسبة. وكنا عندما نختلف حول موضوع ما ، يكون رأيه دائماً القول الفصل .

وكان عبد الناصر يثير دهشة والديه بخواطره وإيحاءاته الغريبة . وذات يوم في « الخطاطبة » ، سأل اباه فجأة ، والاسرة تتناول الطعام ، وقطعـة من اللحم في فم جمال : « ابي ، لماذا نأكل اللحم ، والفلاحون الذين يرعون الماشية ويربونها ، لا يأكلونها ؟ »

وتوقف الوالد عن الأكل ، وأخذ ينظر الى ابنه في تأمل وصمت . ويوماً عاد والده الى المنزل ليجده يحفر الأرض امام مدخل المنزل ، وسأله : « ماذا تفعل يا جمال ؟ » وكانت اجابته : « لقد أردت ان ارى ما تخبئه لنا هـذه الأرض . نخرج منها ، وإليها نعود » . ودهش الأب ، ولم يُحر جواباً امام ابنه الذي يحاول ان يعرف كل ما يسمعه بنفسه ويتأكد منه !

ترك جمال مدرسة النحاسين الابتدائية ، بعد السنة الثالثة ، وأرسله والده الى جدّه لوالدتـــه السيد محمد حماد ، حيث أتم السنة الدراسية في مدرسة العطارين، ونال منها الشهادة الابتدائية . ثم التحق بمدرسة « حلوان » الثانوية ونقل والده من « كوم حمادة » الى الاسكندرية عام ١٩٢٩ ، وأقام معه [١] حيث التحق بمدرسة « رأس التين » الثانوية ، وحيث بدأ اشتغاله لأول مرة بالعمل السياسي ، مما كلفه تلقي عدة ضربات بعصى البوليس الغليظة في جبهته تركت آثارها بعد ذلـــك بوضوح . ورغم ذلك واصل هتافه مع رفاقه : « تحيا مصر » .

---

(١) في هذه الفترة ، تزوج والده من امرأة جديدة انجب منها ، فيما بعد ، ثمانية اولاد .

ففي صيف تلك السنة (١٩٣٠) كانت المظاهرة المذكورة هي اول مظاهرة يشترك فيها جمال عبد الناصر وذلك احتجاجاً على صدور المرسوم الملكي رقم ٧٠ لسنة ١٩٣٠ القاضي بإلغاء دستور ١٩٢٣ ، في عهد اسماعيل صدقي رئيس الوزراء . ثم امكنه بعد ذلك ان يقود عدة مظاهرات اخرى ، وأصبح اسمه مرتبطاً بالمظاهرات .

وفي صيف عام ١٩٣٥ ، اعلنت السلطة البريطانية ان دستور ١٩٢٣ لا يمكن تطبيقه ، فنظم جمال عبد الناصر ، بصفته ممثلاً للجنة طلبة المدارس الثانوية ، مظاهرة ضخمة ضد السلطة ، للمطالبة بتطبيق نصوص الدستور ؛ فقد ألقى وزير خارجية بريطانيا « صمويل هور » خطاباً بتاريخ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ قال فيه : « لا صحة لما زعموا من اننا نعارض في ان يعود الى مصر النظام الدستوري المناسب . فنحن بتقاليدنا لا نستطيع ان نفعل شيئاً من ذلك، على اننا لما استشرنا...كانت نصيحتنا ضد إعادة دستور ١٩٢٣ او دستور ١٩٣٠ لأن الاول ظهر انه غير صالح للعمل به ، ولأن الثاني ضد رغبة الامة بالإجماع » .

ولكن المظاهرة اصطدمت برجال الشرطة الذين اطلقوا الرصاص ، واستعملوا العصي الغليظة في تفريق المتظاهرين، فقتلوا بعض الطلبة، وجرحوا البعض الآخر ، ومنهم جمال عبد الناصر الذي يقول عن تلك المرحلة من حياته [١] :

« وفي فترة من حياتي ، كانت الحماسة هي العمل الايجابي في تقديري . ثم تغيّر المثل الاعلى في العمل الايجابي ، وأصبحت أرى انه لا يكفي ان تضج

---

(١) « فلسفة الثورة » لجمال عبد الناصر — الطبعة التاسعة ، صفحة ٣٤ — المطبعة العالمية بالقاهرة .

اعصابي وحدي بالحماسة ، وإنما عليّ ان انقل حماستي كي تضج بهـا اعصاب الآخرين .

وفي تلك الايام قدتُ مظاهرات في مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقي بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائي كثيرون ، ولكن صراخنا ضاع هباء وبددته الرياح اصداء واهنة لا تحرك الجبال ، ولا تحطم الصخور .

ثم اصبح العمل الايجابي ، في رأيي ، ان يجتمع كل زعماء مصر ، ليتحدوا على كلمة واحدة . وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة ، بيوتهم، واحداً واحداً ، تطلب اليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة ، ولكن اتحـادهم كان فجيعة لإيماني ، فان الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليهـا كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ » [١] .

ولعل جمال عبد الناصر الذي لم يكف عن ارسال الهتاف: « تحيا مصر»، فيما تنزف الدماء من جبهته ، قد نسي آلامه الجسدية ، وغرق في آلام نفسية مريرة إذا رأى رجال الشرطة الذين انضموا الى الثورة عام ١٩١٩، يصبحون الآن أداة صماء يحركها المغتصبون البريطانيون لمصلحة الحكام العملاء. وبذلك « تحول عبد الناصر في هذه الفترة من متظاهر الى ثائر » [٢] ، على حد قول جورج فوشيه .

وهكذا لبث جمال ورفاقه ورجال مصر الاحرار يكافحون حـتى صدر مرسوم بتاريخ ١٢ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٣٥ يقضي بإعادة دستور عام ١٩٢٣ .

---

(١) وقد فصلنا الحديث على هذه المعاهدة في الفصل السابق .

(٢) جورج فوشيه ، في كتابه « جمال عبد الناصر وصحبه » .

ونعود الى الذكريات المتعلقة بعهد دراسة جمـال عبد الناصر ، في المرحلة الثانوية ، بمدرسة النهضة التي التحق بها عام ١٩٣٣ ، وكان عمره آنذاك ١٥ عاماً ، واستقرت الاسرة في باب الشعرية قرب مسجد الشعران الذي كان جمال يقضي فيه ساعات طوالاً، ليقرأ الكتب التي كان يستعيرها من مكتبات أساتذته : احمد حسنين القوني ، ومرسي الحميدي ، ونجيب ابراهيم .

ومن هـذه الكتب التي قرأها جمال ، كتاب « المدافعون عن الاسلام » الذي نشره وقدم له الزعيم المصري مصطفى كامل ، وفيهـا يذكّر الأمة بمجدها القديم ، ويلقي الضوء على معالم حضارتها ، ويدعو ابناءها الى إحياء تراثهم المجيد ، ومنهـا كتاب « طبائع الاستبداد » للكاتب السوري الوطني المجاهد عبد الرحمن الكواكبي الذي اضطهده الاتراك ، فلجـأ الى لبنان ، ثم الى مصر ، ومنها كتاب « أم القرى » الذي يتضمن تصويراً لاجتماع مصر في شكل مؤتمر ، وتداول المجتمعين وبحثهم لأسباب تخلفهم .

وقرأ جمـال عبد الناصر ايضاً كتاب احمد امين عن مجددي الاسلام مثل جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ، وكتاب « أعلام المسلمين » ، وتابع مقالات الامير شكيب ارسلان في صحيفتي «اللواء» و «الاخبار»، والصحيفة الاخيرة كان يصدرها امين الرافعي المعروف بعدائه لكل حل وسط مع الانكليز ، وكانت هذه المقالات تدور حول فضل الحضارة العربية على اوروبا ، ولمـاذا انتقلت الحضارة الى الغرب ، وكيف يمكن للعرب استعادتها بالعلم والوحدة والحرية [١] .

ومن اساتذة جمال عبد الناصر الاستاذ القوني الذي حبب اليه آفـاق

---

(١) من مقال بعنوان « ابن الارض الطيبة » ليوسف الشريف ، نشرته مجلة « صباح الخير » القاهرية في العدد ٧٦٩ الصادر في اول تشرين الاول سنة ١٩٧٠ .

الحضارة الغربية ، فأقبل على قراءة بعض المؤلفات للكتّاب الاوروبيين مثل روسو وفولتير الفرنسيين ، وقد كتب عن هذا الاخير مقالاً بعنوان « فولتير رجل الحرية » في مجلة « مدرسة النهضة الثانوية » ، عندما اصبح رئيساً لتحريرها .

ومن اقوال جمال عبد الناصر في ذلك المقال :

« ومع ان الثورة ضد التقاليد كانت عامة في القرن الثامن عشر ، إلا ان اسماء القواد بين هؤلاء الفلاسفة ضعيفة . وكان من بين هؤلاء الفلاسفة فولتير وروسو اللذين حملا اقوى الاسلحة وأشدها فتكاً ، وقد مهّد من أتى بعدهم للثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ » [١] .

وتعليقاً على قراءات جمال ومطالعاته وهواياته،يقول صديقه وزميله القديم حسن النشّار :

كان هدوء جمال عبد الناصر واتزانه يهيء له امكانيات هائلة للقراءة والاستيعاب وإبداء الملاحظات وكتابتها على هوامش الكتب التي يقرأها بنهم .

وكان السؤال الاول الذي يوجهه لأصدقائه : « ماذا قرأتم ؟ » . ويسمع منهم تلخيصاً لما قرأوه ، وملاحظاتهم . ثم نبادره بالسؤال : « وأنت ؟ » . ويبدأ عبد الناصر ، في ذهنية حاضرة ، وبتركيب مدهش ، يسرد ما قرأه في أمسه من كتب او مقالات ، ودائماً يخرج بأفكار تظل محور مناقشاتنا لفترة طويلة !

---

(١) هذا المقال نشر في السنة الدراسية ١٩٣٤ — ١٩٣٥ ، وكان جمال يومذاك طالباً في السنة الرابعة الادبية بمدرسة النهضة الثانوية .

وكان الرئيس يشتري كتب توفيق الحكيم ، وبعد ان يقرأها يعطيها لي ، واشتري كتب العقّاد ثم اعطيها له ليقرأها، حتى استقرت كتب توفيق الحكيم عندي ، واستقرت كتب العقّاد لديه ، وما زلت حتى الآن احتفظ بكل كتبه .

وكان الرئيس يستخدم القلم وهو يقرأ ، ويضع خطوطاً تحت العبارات التي تثير في نفسه معاني ما ، او تلك التي تستحق وقفة للتأمل والتفكير . فمثلاً : المحادثة التي جرت بين عالم الآثار الفرنسي ومهندس الري الانجليزي في كتاب « عودة الروح »[1] ، حول الشعب المصري، وافتقاره الى قائد مخلص يلتف حوله، تجد الرئيس يضع تحتها خطوطاً، ويقلق عليها بكلمات من عنده.

والحقيقة ان فكرة البحث عن قائد التي يتحدث عنها حسن النشار قد سيطرت على تفكير جمال قبل وبعد الثورة . ففي الجزء الثالث من كتابه « فلسفة الثورة » ، يكشف عن هذا الاحساس بكثير من الدقة ، والصراحة والوضوح ، فيقول [2] :

« ولست ادري لماذا اذكر دائماً .. قصة مشهورة للشاعر الايطالي الكبير « لويدجي بيراندلو » أسماها : « ست شخصيات تبحث عن ممثلين » !

ان ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها في ظروف حاسمة على مسرحه .

وان ظروف التاريخ ايضاً مليئة بأدوار البطولة المجيدة التي لم تجد بعد ، الابطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست ادري لماذا يخيّل اليّ دائماً ان في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل

---

(١) عودة الروح ، لتوفيق الحكيم .
(٢) « فلسفة الثورة » لجمال عبد الناصر — صفحة ٦١ و٦٢ .

الذي يقوم بـه ، ثم لست ادري لماذا يخيّل اليَّ ان هذا الدور الذي ارهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعباً ، منهوك القوى على حدود بلادنا ، يشير الينا ان نتحرك ، وأن ننهض بالدور ، ونرتدي ملابسه ، فإن احداً غيرنا لا يستطيع القيام به .

وأبادر هنا فأقول : ان الدور ليس دور الزعامة . إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بهـا ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة في هـذه المنطقة ، ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدور ايجابي في بناء مستقبل البشر » .

زعيم من طراز جديد

ونعود مرة جديدة الى عـام ١٩٣٥ ، عندما جرح جمال في جبهته ، في المظاهرة التي قادها ، لنتبين ملامح الحركة السياسية في ذلـك الحين ، حيث تعلقت آمال المصريين في الكرامة والحرية والاستقلال بأحد وزراء ذلك العهد. يقول حسن النشار ، في حديثه الى « صباح الخـير » القاهرية ، متحدثاً عن الوزير الذي كانت تنعقد عليه آمال الأمة يومذاك :

« في ظهر يوم الثلاثاء ١٢ شباط (فبراير) سنة ١٩٣٥ كنا على موعـد مع هذا الزعيم ، ولمحناه يخرج من مكتبه ، وخلفه حاشية من النواب وغيرهم واعترض جمال طريقه ، وهو يهمّ بدخول « الاسانسير » (المصعد) ، وقال له : « إحنا كوّنا مجموعة كبيرة من طلبة المدارس المختلفة ، وعاوزين ناخـد رأيك فيما يجب ان نفعله ، وكيف يمكننا خدمة بلادنا » ؟

وفي هذه اللحظة بالذات ، احسسنا بشخصية الزعيم تتجسد في جمال عبد الناصر : شجاع يمتاز بكل صفات القيادة والقدرة على مواجهة الكبار ، بلا تردد او خوف . وأذكر ان الوزير نصحه بالاتصال بطلبة الجامعـة . وذهبنا خلف جمال الى هناك ، لنجد شباب الاحزاب يتطاحنون ، لا حول الكفاح والآمال والأماني ، ولكن حول من يكون رئيساً ووكيلاً وأميناً للاتحـاد . وانفضّ الاجتماع دون التطرّق بكلمة واحدة حول هذه المعاني، وهو ما دفع

عبد الناصر الى تكوين « لجنة طلبة المدارس الثانوية » ، وكان يحمل معه كراسة تضم قيادة التنظيم الذي كان يضم كثيراً من الاسماء بينها : حسين عباس ، وأحمد الشافعي ، ومحمود القوني ، وعبد الرؤوف جبريل .

وفي الوقت الذي دعت فيه الاحزاب الى العودة الى الدراسة ، عقب اعلان دستور ١٩٢٣ ، كان عبد الناصر يخطب في فناء المدرسة الحسينية الثانوية التي ضمت الالوف من طلبة المدارس الثانوية .

وهاجمنا البوليس ، وتقرر اغلاق المدارس . ولكن عبد الناصر لم يهدأ ، فقد ساعدته الكراسة التي دوّن فيها اسماء وعناوين قيادات الطلبة على الاتصال بهم ، ومعاودة تنظيمهم من جديد ، في فترة تعطيل الدراسة .

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٥ ، والمكان مدرسة النهضة الثانوية ، بدأت الدراسة منذ شهر ، وكان قد مضى عام على وعد «توفيق نسيم» بإعادة الدستور ، وكانت المناقشات في الفصل ، وفي فناء المدرسة حول اسلوب المقاومة ، ولكن من الذي يستطيع ان يعلن عن قيام المظاهرات ؟ فالسجن او الفصل مصيره المحتوم .

وفي اللحظة التي بدأ فيها جمال عبد الناصر ينظم صفوف الطلبة للتظاهر ويأخذون طريقهم الى شوارع القاهرة ، قبض عليه البوليس ، وألقي في سجن قسم الموسكي ، لأنه هتف بحياة مصر .

ودعا رئيس الحكومة آنذاك الى عودة الطلبة الى مدارسهم ، معلناً « ان الذين يواصلون تنظيم المظاهرات خونة » !

وفي اعقاب هذا التصريح ، نشبت الصراعات بين اصحاب القمصان السوداء ، وأصحاب القمصان الخضراء . وكان عبد الناصر يهبّ على رأس

مجموعات من طلبة المدارس الثانوية ، لنجدة العدد القليل من الطلبة الوطنيين ، بقيادة « نور الدين طراف » .

وأخرج البوليس السياسي رئيس اللجنة التنفيذية لطلبة المدارس الثانوية[1] ولكنه لم يكف عن مراقبته ، وحرّض ناظر « مدرسة النهضة الثانوية » على فصله بتهمة تحريض الطلبة على الثورة . وفي اللحظة التي عرف الطلبة فيها بما حدث لجمال عبد الناصر ، كانوا قد اتخذوا قراراً بحرق عنابر المدرسة الداخلية وبعد ساعة واحدة كانت النيران تندلع في العنابر .

ولما كانت المدرسة خاصة لا تتبع وزارة المعارف ، فقد خاف الناظر من امتداد خسائر المدرسة الى بقية ما فيها من فصول وأدوات ، وقرر عودة عبد الناصر .

ومما يرويه حسن النشّار عن ذكريات هذه المرحلة قوله ، بعد ان قرر ناظر المدرسة إعادة جمال الى مقعده بين الطلبة :

«ولكننا صممنا أن يذهب اليه في منزله، ويقدم الاعتذار له، وبالفعل ارسل معنا ضابط المدرسة الذي اصطحبه معنا في عربة حنطور دخلت المدرسة ، ونحن نهتف بحياة مصر » .

ومرة ثانية نقول مع جورج فوشيه : « إن هذه المرحلة من عمر جمال عبد الناصر، التي حولته من متظاهر الى ثائر، جعلت نفسه تمتلىء يقيناً « بأن مصر لن تحصل على استقلالها بالخطب والمرافعات ، بل يجب ان تقابل القوة بالقوة ، والاحتلال العسكري بجيش وطني.. وقرر ان يكون ضابطاً » [2].

---

(١) جمال عبد الناصر .

(٢) « عبد الناصر وصحبه » لجورج فوشيه .

أليس في ذلك صدى لقول عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » :

« ولقد آمنت بالجندية طول عمري، والجندية تجعل للجيش واجباً واحداً، هو ان يموت على حدود وطنه ... » .

ثم أليس فيما قاله جمال عام ١٩٥٩ ، صدى لهذا الكلام ، إذ اعلن ان « الثورة في طبيعتها ليست ترفاً ، بمعنى انها ليست إجراء تلجأ اليه الشعوب لكي تستكمل بـه مظاهر أبهتها ، وتضيف الى كتب تاريخها حكاية تروى ، وقصة تحكى ، ان الثورة إجراء تلجأ اليه الشعوب ، مضطرة ، حين تفشل جميع الوسائل العادية في تلبية مطالبها العميقة » .

●

ويتحدث الاستاذ عبد العزيز الشوربجي ، المحامي لدى محكمة النقض ، وكان يومذاك مندوباً للجنة التنفيذية لطلبة الجامعة ، عن المظاهرة الثانية التي أصيب فيها عبد الناصر برصاصة في جبهته ، بعد ان كان في المظاهرة الاولى قـد أصيب بجروح من عصا البوليس ، فيقول [1] : ان عبد الناصر بصفته مندوباً للجنة طلبة المدارس الثانوية ، اتفق معه مساء ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٥ على عقد مؤتمر يضم الطلاب الثانويين والجامعيين في ميدان الاسماعيلية (التحرير) لوضع خطوط الحركة الوطنية التي ستطالب بعودة الدستور . وقد دعاه في الميدان كي يخطب في جماهير الطلبة ، ولكنه لم يجد مكاناً عالياً يقف فيه ، فدفعه جمال عبد الناصر الى عمود نور ، وأعانه على تسلقه . وما كاد يبـدأ بالخطابة حتى ملأت قوات البوليس الميـدان ، وانقضوا على الطلبة بعصيهم الغليظة ؛ وأصابه منهم الكثير ، ووقع منظـاره على الأرض ، ولكن جمال

---

(١) ناصر الشهيد الحي – دار الصياد – وضعه ذو الفقار قبيسي ونجيب صالح .

ظل ثابتاً في مكانه ، يبحث له عن منظاره ، حتى عثر عليـه ، وقدمه له ، ومضى يحثه على الاستمرار في الخطابة ، ويحث زملاءه على الثبات في اماكنهم وسرعان ما التأم الشمل من جديـد ، وكف رجال البوليس عن الضرب ، بل أخذتهم روعة الموقف ، فراحوا يهتفون مع الطلاب بحياة مصر ، وذهبت اوامر رؤسائهم بضرب الطلاب ادراج الرياح .

وفي فجر اليوم التالي ، وقف جمال في فنـــاء المدرسة ، وصاح وسط الطلبة : « تحيا مصر حرة ». وردّد الطلبة الهتاف، ثم وقف على الدرج يشرح لهم الموقف السياسي ، مما ألهب صدور الجميع ، فحملوا عـلم المدرسة ، بينما حمل جمال العلم المصري ، وانطلق يتقـدم المظاهرة ، ويطوف بمدارس الحي المجاورة لينضم طلبتها الى المتظاهرين .

وروى الاستاذ مرسي الحديدي ، احد اساتذة اللغة العربية في المدرسة ، ذلك الحين ، انـــه كان بين اعضاء هيئة التدريس ، مدرّس بريطاني اسمه « وولي » ، يتولى تدريس اللغة الانجليزية ؛ وكان هــــذا المدرس يعرف عن جمال انه وطني ثائر متعصب لوطنيته ، وانه يؤلف حوله جماعة من الطلبـة الثائرين امثاله ؛ وكان يخشى ان يكون يوماً ، هدفاً لسخط جمال وإخوانه ، ولذلك كان يحرص على ان يخرج مسدسه كلما دخل الفصل الذي يجلس فيـه « جمال » ، ويضعه في متناول يده على منضدة المعلمين ، حتى يدافع بـه عن نفسه عند اللزوم ، او بالأحرى كان يتعمد هذا التصرف ليشعر الطلبة ان القوة هي صاحبة الكلمة الأخيرة في كل مناقشة ، ممـــا أثار الطلبة ضده ، وأيقنوا انه يتحدى مشاعرهم الوطنية ، فأضمروا له العداء والكراهية .

وفي ذلك اليوم ، عندما وقف جمال يهتف في ثورة عارمة بحياة مصر ، في فناء المدرسة توهم « مستر وولي » انه هو المقصود بتلك الثورة ، او ان رشاشاً سيصيبه منها ، فاستنجد تلفونياً بالبوليس ، ولذلك مــــا كاد الطلبة

يغادرون المدرسة ، حتى فوجئوا بفوهات بنـــادق البوليس تحاصرهم من كل جانب ، ولكن جمال تقدمهم ، وهو يهتف قائلاً : « إننا نرحب برصاصكم . هذه صدورنا . اطلقوا رصاصكم إذا شئتم ، او اطلقوا سبيلنـا » ، فأثارت عبـارته ثائرة زملائه ، وانطلقوا يحطمون كل شيء امامهم ، وكان اول تلك الأشياء سيارة « مستر وولي » التي كانت واقفة بجوار باب المدرسة .

ويتحدث السيد محمد عمر الطوانسي ، وكان طالباً في المدرسة في ذلـك الحين ، عن قصة مدرس اللغة الانجليزية ، فيقول : « مضينا الى مدرسة فؤاد الأول ، فأخرجنا طلبتها ، كما اخرجنا طلبة مدارس الحي الأخرى ، وسرنا في مظاهرة تزيد على عشرة آلاف طالب وآلاف مؤلفة من ابنـاء الشعب ؛ وعنـــدما مررنا بفندق « شبرد » ، وكان يجلس في شرفته نفر من الضباط الانجليز ، هتف جمال بحياة مصر ، ثم صرخ بالانجليز : « لتسقط انجلترا » .

وانطلق يتقدم المظاهرة ، مخترقاً شوارع العاصمة، في طريقه الى الجامعة، لينضم الى الطلبة المجتمعين هناك . فلما بلغ الروضة ، وجد ان البوليس قـد فتح « كوبري عباس » ليحول دون الاستمرار في المظاهرة ، فاستأجر جمال مع عدد من اخوانه مركباً عبروا به النيل تحت نيران البنادق ، بينما استطاع بعض طلبة كليـة الهندسة إغلاق الكوبري ، فاندفع عليه الطلبة ، وأدركوا جمال عبد الناصر وصحبه ، والرصاص يتساقط حولهم ؛ وسقط الشهيد محمد عبد المجيد مرسي ، الطالب بكلية الزراعة ، وانحنى عليه محمـــد عبد الحكيم الجراحي ، الطالب بكلية الآداب ، فأصابته رصاصة مزقت أمعاءه واستشهد بعد خمسة أيام وهو يهتف : « تحيا التضحية ، تحيا مصر » !

كان الرصاص يتعقب جمـال عبد الناصر وزملاءه ذلك اليوم ، فيلجأ هو وزميله حسن النشار الى بيت صديق لهما بالنيل، حتى اذا انتهى اطلاق الرصاص، ذهب جمال الى بيته في خميس العدس، لا ليلوذ به، وإنما ليعد الطعام لإخوانه

المعتقلين ، ويحمله إليهم في قسم الموسكي ، ثم انطلق الى بيت الأمة، على رأس جماعة كبيرة من الطلبة لحضور المؤتمر الوطني الذي عقد بمناسبة عيد الجهاد ، وهناك اصطدموا مرةً أخرى ، برجال البوليس .

ولاحظ أحد الضباط الانجليز ان الفتى الطويل القامة الضامر البدن ، هو الذي يثير الطلبة ، ويذكي لهب الوطنية في قلوبهم بصوتـه القوي ، فأطلق عليه رصاصة سدّدها الى رأسه حتى يتخلص منه .

وأسرع به زملاؤه الى دار « جريدة الجهاد » التي تصادف وقوع الحادث بجوارها . وفي مكتب صاحب الجريدة ، ضمد رجال الاسعاف جرح جمال ، ونصحوه بالذهاب الى مستشفى «قصر العيني»، ولكنه رفض، فإنّ كل من كان يذهب الى هناك ، كان البوليس له بالمرصاد ، فيليقي القبض عليه ، ويحمـله الى السجن [١] .

●

وعلى الرغم من كل النصائح التي كان يوجهها اليه مدرسوه ومدير مدرسته، فقد مضى جمال عبد الناصر في ارضاء روحه المشبعة بالثورة الى أبعد حدود، حتى اذا ما قال له استاذه ، ذات يوم :

– اسمع يا بني ، انني أخشى عليك من هـذه الوطنية . ونصيحتي إليك ان تُخفي شعورك الوطني بقدر ما تستطيع ، لأنك امـام حكومات لا تقيم لمستقبل اي طالب وزناً .

أجابه جمال عبد الناصر بقوله :

– كل نصحٍ أرحب به ، إلا الكفّ عن مثل هذا !

---

(١) المرجع السابق .

وراح عبد الناصر يعقـد الحلقات السياسية في بيته الواقع في حارة خميس العدس بالخرنفش ، او في مسجد الشعراني ، او في الحدائق العامة ، وينفـخ في رفاقه روح الثورة حتى اصبح رائدهم ، وزعيمهم ، وصاحب الكلمة المسموعة لديهم .

ولم يكن جمال يكتفي بالحلقات والاجتماعات السياسية ، وإنما كان ايضاً يعرف ان المطالبة هي السبيل الأهم للإطلاع على احـــوال التاريخ ، وعلى ظروف الافراد والمجتمعات، ويدرس سير الأبطال والشعوب. ومما يروى عنه انه طالما استوقفته ، في مطالعاته ، عبارات لكتاب عرب وأجانب ، فسطر ملاحظاته حولها ، او رسم تحتها خطوطاً تجعلها بارزة ، تدليلاً على اهميتهـا بالنسبة إليه . وقد كان، مرة ، يُطالع كتاب توفيق الحكيم « عودة الروح » فلفت نظره ما ورد على لسان عـــالم الآثار الفرنسي الذي كان يتحدث الى مهندس انجليزي يعمل في مصر ، حيث قال :

« هل رأيت في بلد ما ، أشقى من هؤلاء المساكين ؟.. اوجدت افقر من هذا الفلاح المصري ، ولا اهول عملاً ؟.. إني اعلم ذلك جيداً ، فقد اشتغلت بالحفر عن الآثار المصرية في قرى الصعيد ، وخالطت بعض الفلاحين ، وعلمت كل شيء .. عمل ليل ونهـار في الشمس المحرقة والبرد القارس ، وكسرة من خبز الاذرة ، وقطعة من الجبن مـع بعض الأعشاب من السريس ، وغيره مما ينبت وحده .. تضحية مستمرة ، وصبر دائم ، ومع ذلك فها هم يغنون .

« أتسمع هذه الاصوات المجتمعة ، الخارجة من قلوب عدة ! ألا تخالهـا خارجة من قلب واحد ؟.. اني اؤكـــد ان هؤلاء القوم يحسون لذة في هذا الكدح المشترك . هذا ايضاً الفرق بيننا وبينهم . ان اجتمع عمالنا على الألم ، أحسوا جراثيم الثورة والعصيان، وعدم الرضا بما هم فيه. وان اجتمع فلاحوهم على الألم ، أحسوا السرور الخفي ، واللذة بالاتحاد في الألم . ما أعجبهم شعباً صناعياً غداً !!

لا تستهن بهذا الشعب المسكين اليوم ، ان القوة كامنة فيـه ، ولا ينقصه ذلك الرجل منه ، الذي تتمثل فيه كل عواطفه وامانيـه ، ويكون له رمز الغاية...عند ذلك لا تعجب لهذا الشعب المتماسك المتجانس المستعذب والمستعد للتضحية ، إذا اتى بمعجزة اخرى غير الهرم.

وإن بلداً أتى في فجر الانسانية بمعجزة الهرم ، لن يعجز عن الإتيان بمعجزة اخرى ، او معجزات !... يزعمون انه بلد ميت منـذ قرون ، ولا يرون قلبه العظيم بارزاً نحو السماء ، من بين رمال الجيزة !. لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الى الأبد »[1].

ومن خلال هذه العبارات،كان جمال عبد الناصر يستشف مستقبل مصر ، ومستقبل البطـل المنتظر الذي لم يلبث ان تجسد في جمال عبد الناصر على مدى ثمانية عشر عاماً من تاريخ مصر والعروبة .

وفضلاً عن ذلك ، فقد كان جمال يستعيض بالرسائل التي تضج بالوطنيـة والثورة ، متى صعب عليه الاجتماع بزملائـه ، وعقد الندوات معهم . ومن الأمثلة على مراسلاته ، هذه الرسالة التي كتبها الى احد اصدقائـه الطلبة ، حيث يقول :

« قال الله تعالى: « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .. فأين تلك القوة التي نستعد بها لهم ؟ إن الموقف ، اليوم ، دقيق ، ومصر في موقف أدق . ونحن نكاد نودع الحياة ، ونصافح الموت ... فإن بناء اليأس عظيم الأركان، فأين من يهدم هذا البناء ؟

إن في مصر حكومة قائمة على الفساد والرشوة . فأين من يغيّر هـذه

---

(١) « عودة الروح » لتوفيق الحكيم .

الحال . وإن الدستور معطل ، والحماية على وشك الاعلان ، فأين من يقول للاستعمار : قف عند حدك ؟ فإن في مصر رجالاً ذوي كرامة ، لا يريدون ان يموتوا كالأنعام.اين الوطنية التي كانت سنة ١٩١٩ تشتعل ناراً في الصدور؟ بل اين ذلك الذي يذود بلسانه وخطرات قلبه عن حياض هذا الوطن العزيز المقدس ، مضحياً الحياة والعمر في سبيل الاستقلال ؟ اين من يُخلقُ خلقاً جديداً حتى يصبح المصري الخافت الصوت ، الضعيف الأمل ، الذي يُطرق برأسه ساكناً ، صابراً على حقه المهضوم، يقظاً ، عالي الصوت، عظيم الرجاء، مرفوع الرأس ، يجاهد بشجاعة وجرأة في سبيل الاستقلال والحرية ؟ يقولون ان المصري يجزع من حفيف ثيابه ، في وضع النهار ؛ ولكن يجب ان يتقدّم من يقودونه الى مواقف الدفاع ومواطن الكفاح ، فيكون لهم صوت اعلى من صوت الرعد ، تتداعى لقوته ابنية الظلم والاستبداد .. فكل روح سكنت جسماً جاء من ابوين مصريين لا ترضى بحالتنا الراهنة ، وتبذل نفسها قرباناً للوطن العزيز والجامعة الوطنية المقدسة .

قال مصطفى كامل : « لو نقل قلبي من اليسار الى اليمين ، او تحرك الأهرام من مكانه المكين ، او تغير مجرى النيل ، فلن أتغير عن المبدأ » .

كل ذلك مقدمة طويلة لعمل اطول وأعظم ؛ فقد تكلمنا مرات عديدة في عمل يوقظ الأمة من غفوتها ، ويضرب على الأوتار الحساسة من القلوب ، ويستثير ما كمن من القوى في الصدور .. ولكن ذلك لم يدخل في حيز العمل الآن » .

●

جميع هذه التساؤلات والخواطر التي وردت في رسالة جمال عبد الناصر ، سوف تكون الثورة المصرية التي قادها جمال هي الجواب عنها، والرّد التلقائي عليها جميعاً .

الى المدرسة الحربية .. فمنقباد .. فالسودان

اتم جمال عبد الناصر دراسته الثانوية في مدرسة النهضة، عام ١٩٣٦، ثم حاول الدخول الى الكلية الحربية، تحقيقاً لحلم يخالج وجدانه، وإيماناً منه، كما يقول، بالجندية التي يعتبرها وحدها سبيل التحرير واسترداد الكرامة.

ويروي زميله وخلفه الرئيس انور السادات القصة الأسطورة لرفض طلب عبد الناصر في المرة الأولى لأنه لم يكن من ذوي الشفاعات والوساطات، ثم قبوله بها – بعد ان كان قد التحق بكلية الحقوق – في آذار (مارس)١٩٣٧، إثر اعلان الكلية الحربية عن حاجتها لطلاب جدد، فكان جمال في عداد الأربعين طالباً الذين قبلوا في الدورة الجديدة.

اما تفاصيل مثول جمال عبد الناصر امام لجنة كشف الهيئة بالكلية الحربية، في المرة الأولى، فقد وردت على النحو التالي: سأله مدير اللجنة:

– اسمك ايه؟

– جمال عبد الناصر حسين

– ابوك بيشتغل ايه؟

– موظف بمصلحة البريد

– موظف كبير؟

– لأ .. موظف صغير .

– بلدكم إيه ؟

– بني مر ، مديرية اسيوط .

– يعني فلاحين ؟

– ايوه ...

– فيه حد من عيلتكم ضابط جيش ؟

– لأ .

– امال انت ليه عاوز تبقى ضابط ؟

– عشان ابذل دمي فداء الوطن .

– فيه حد اتكلم عشانك ؟

– واسطة يعني ؟ انا واسطتي ربنا !

– انت اشتركت في مظاهرات سنة ١٩٣٥ ؟

– ايوه .

– كده .. طيب اتفضل .

و « تفضل » جمال بالخروج ، ليعرف بعد ذلك ان الرسوب كان حليفه امام هيئة الكشف، وذلك لأنه فلاح ابن فلاح من بني مرّ في مديرية اسيوط.

بعد ذلك أقنعه صديقه حسن النشار بالالتحاق معه بكلية الحقوق .. فقبل جمال على مضض ، لأنه كان راغباً في خدمة بلاده عن طريق الانخراط في سلك الجندية . حتى اذا اعلنت الكلية الحربية في آذار (مارس) سنة ١٩٣٧ عن حاجتها لطلاب جدد، عزم جمال على الاشتراك مجدداً في الامتحانات. ولكنه ، قبل ذلك قرر امراً .

وبكل ما عرف عنه من شجاعة وجرأة ، توجـه جمال الى منزل وكيل وزارة الحربية المصرية اللواء ابراهيم خيري . وعلى باب المنزل سلم الخادم بطاقته ، ودخل ينتظر في صالون منزل اللواء .

بعد قليل ، أقبل وكيل وزارة الحربية ، وحـاول ان يستفسر من جمال عما يريده ، فقال له جمال :

ـ أفلا تقبل الكلية الحربية الطلبة إلا اذا كان عندهم وساطة ، أم ان هناك قواعد عامة تسري على الجميع ؟

قال اللواء : هل قدمت طلباً ورُفض ؟

فقال جمال : اجل ، ونجحت في الكشف الطبي .. ولكن كشف الهيئة يحتاج الى الواسطة .. وليس لي واسطة .. ومعنى ذلك ان اعود الى كلية الحقوق .

ورمقه اللواء ابراهيم خيري طويلاً .. ان امامه شاباً قوي البنية ، يمتاز بالشجاعة ، فضلاً عن كونه صاحب حق ، وصاحب رغبة صادقة في خدمة بلاده عن طريق الجندية .

وببساطة متناهية ، قال له وكيل وزارة الحربية .

ـ إذن تقدم مرة ثانية للكلية .

وتقدم جمال بطلبه الثاني. وشدّ ما كانت مفاجأته عندما وجد ان وكيل وزارة الحربية اللواء ابراهيم خيري ذاته كان على رأس لجنة كشف الهيئة .. وأمر اللواء بقبول جمال فوراً في الكلية الحربية .

ُقبل جمال في الكلية الحربية ، في عداد مجموعة تتألف من اربعة وأربعين طالباً ، قسموا الى سريتين ، وجعل جمال في السرية الثانية .

وبعد فترة اختبار دامت خمسة أشهر ، روقبت خلالهـا جميع تصرفاته وميوله النفسية ، وتلقى خلالهـا بعض العلوم والتمارين العسكرية ، تقررت صلاحية الطالب جمال عبد الناصر من الناحية العسكرية، وقيد اسمه في القسم الاعدادي بالكلية ، حيث تعرف الى الاسس المشتركة بالنسبة للوحدة الصغرى في جميع الاسلحة ، وتدرب بصورة عملية على جميع اعمـال الميدان ، وتعلم صفات القيادة ومقوماتها ، واصطلاحات الحرب وأساليبها الفنية والتكتيكية سواء أكان المحارب فرداً في الجيش ، او قائداً له .

ثم انتقل جمـال من القسم الاعدادي الى القسم المتوسط في الكلية . وفي هذا القسم تدرب على قيادة فرقة المشاة ، وأصبح مؤهلاً ليكون قائد فصيلة في الميدان ، فألمّ بوسائل الميدان الخاصة بمواد الحرب ، وهـذه الوسائل هي الاشارة وهندسة الميدان والطبوغوفرافيا ، وفن القتال .

وبانتقال جمـال من القسم المتوسط الى القسم النهائي في الكلية الحربية ، كان قـد اصبح ذا كفايات عسكرية عالية ، حتى اسند اليه المسؤولون عن الكلية سلطات قائد جماعة ، وهي رتبة عسكرية لا تمنح، عادة، إلا للمتفوقين من الطلاب ، وهي تؤهلهم لتعليم الطلاب المستجدين في الكلية الحربية .

وبعدما أمضى جمال عبد الناصر ستة عشر شهراً في الكلية الحربية ، تقدم للامتحان النهائي ، فنجح في جميع مواد الامتحان ، وكان مجموع درجاته ٧١ درجة ، وفي اول تموز (يوليو) ١٩٣٨ تخرج من الكلية، والتحق بسلاح المشاة ملازماً ثانياً ، ثم خدم في سلاح الفرسان ، وبعدها نقل الى منقباد .

وفي منقباد ، تيسر لبذور الثورة الكامنة في نفس جمـال عبد الناصر ، وبضعة من رفاقة الشباب ، ان تجد التربة الصالحة فتنمو ، وتكبر ، وتبشر بثمارها اليانعة .

ولنرجع ، مع الرئيس انور السادات الى منقباد ، وإلى هذا العام ١٩٣٨، إذ يقول ، موضحاً اسباب الثورة ، ونشوء بذورها في « منقباد » [1] :

يظن كثير من الناس ان هـــذه الثورة دبّر لها تشكيل الضباط أثر حادث معين جمعهم هدف وتدبير .

وفي اجواء الظنون، تجد الاشاعات كثيراً من نقط الارتكاز . تجد النقطة الاولى في حرب فلسطين .. بين اشلاء الضحايا وخيانات فاروق وعصابته .

وتجـــد النقطة الثانية في تحقيقات الاسلحة الفاسدة وتدخل الملك لحفظ الدعوى بالنسبة لحاشيته .

وتجد النقطة الثالثة في تصرفات قيادة الجيش وكبار ضباطه الذين وضعوا انفسهم في احذية فاروق .

ولقد كانت كل هـــذه الاحداث فعلاً ، من الاحداث التي شغلت اهتمام الضباط الاحرار ، واستحثت خطاهم ، ولكن نشأة الثورة ، والتمهيد لها ، لم يستمد من حادث من الاحداث .

فقد نشأت هذه الثورة نشأة طبيعية ، ونمـا التمهيد لها نمواً طبيعياً لأنها كانت في كل مراحلها ، تفاعلاً طبيعياً قوياً بـين ضمير جيش مصر ، وضمير شعب مصر .

متى نشأت إذن ، وأين نشأت ؟

لنرجع الى الوراء .. الى عام ١٩٣٨ .

ولنذهب الى منقباد .

---

(١) كتاب «اسرار الثورة المصرية» للرئيس انور السادات، قدم له الرئيس جمال عبد الناصر وصدر في سلسلة «كتاب الهلال» — العدد ٧٦ — تموز (يوليو) ١٩٥٧، صفحة ٣٠ وما بعدها.

في هذه البيئة الخالصة ، حيث يشعر المصري بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه ، وفي الشتاء ، حـــين يقسو الجو ، وتتمرد العواصف فتزداد الروابط بين الاصدقاء ، يقاومون بها قسوة الطبيعة ، وينتصرون بها على عواء الرياح . هناك حول نار في معسكر المناورات « بتباب الشريف » ، كنا نقضي طرفاً من كل ليلة .. اصدقاء كلهم صغار السن ، صغار المناصب ، كبار الآمال ، وافرو الشباب. ضباط لم تزد رتبة احدهم على الملازم ثان .. نتحرق طول النهار في الجبل ، فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب !

وكانت في القلوب نار ؛ نار لا تنطفيء ، لأن وقودها يتجدد في كل لحظة في احساساتنا الشابة المرهفة ، وممـــا يقع امام اعيننا كل يوم من الصباح الى المساء . كانت آمالنا الكبيرة ، وعزّة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الاحداث . فقد كنا ضباطاً صغاراً ، وكان لنـــا قواد ، وكان هناك ايضاً انكليز . وكان قوادنا المصريون لا عمل لهم إلا إذلالنا ، وإلا الانحناء امـام الانـكليز .

وكنا نرى هذا الوضع الكريه ، فنحترق ونسخط ، ولكننا لم نكن نستطيع ان نتكلم ، ومـاذا يستطيع ملازم ثانٍ ان يفعل في داخل النظام العسكري ، وفي تلك الأوضاع الرهيبة ، إلا ان يسكت ، ويكظم الغيظ ، ويدخن النار في حشاه .

هكذا كانت ايامنا ؛ ولكن ليالينا كانت تختلف اختلافـاً كبيراً . ففي جو من الصداقة والألفة ، كنا نجلس فنمزح ، ونذيب في هـــذا المرح شقاء اليوم الطويل .. شقاء الجسد ، وشقاء النفس ، وشقاء الغربة في جبل بعيد .

ولا ندري لماذا كان يتوسطنا دائمـــاً شاب رقيق وديع ، عامر النفس بالصفاء ، لم يكن يكبرنا سناً ، ولا رتبة . فقد كنا جميعاً ابنـاء « دفعة » واحدة! ولكنه كان الملتقى الذي جمع صداقاتنا جميعاً. كنا نمزح ، فنضحك عالياً ، ونسخر من كل شيء ، ولا ترحم ألسنتنا احداً ، واحياناً نغني !

وكان يصنع كل ما نصنع ، ولكنه كان مع ذلك ايضاً يفكر .. يفكر بقلبه ، ويفكر بوعيه ، ولا نكاد ننطلق في المرح حتى نجد موضوعاً هادئاً ، يثيره بيننا جمال عبد الناصر . وربما كان موضوعاً شخصياً ، وربما كان موضوعاً عاماً ؛ وربما كان ذكريات عابرة تمر به في حياته ، فلا يلبث ان يستنبط منها فكرة او رأياً يثير بيننا مناقشة طويلة هادئة .

وكان جمال يطوي نفسه على كثير من الآلام الشخصية .. آلام يذكرها منذ توفيت والدته وهو صغير ؛ فأثرت وفاتها في حياته تأثيراً كبيراً ؛ لعل من اظهر عناصره شدة الحياء التي طبعت حياته حتى اليوم .

وكان الى جانب حياته وهدوئه ؛ يمثل الشخصية الكاملة لأبناء الصعيد . فهو يكيف الحياة بمثله « الصعيدية » الخاصة ؛ فتجده وديعاً رقيقاً ملىء الصدر بالحنين . إذا لمستَ نفسه لمسة عاطفية قد لا تحرك احداً من الناس ؛ ولكنه ينقلب اسداً هصوراً في اللحظة التي يشعر فيها بأن احداً فكر مجرد التفكير في الاعتداء .

كان هذا الصديق بيننا صورة حلوة للاخاء ، والصداقة ، والاتزان ، والهدوء ، والكرامة . فكان لهذا كله يستأثر باحترامنا جميعاً ، فكأنه في سكونه وهدوئه وطابعه الخاص ، معنى مجسم حي ، لكل المعاني والانفعالات التي يمكن استخلاصها من تفاعل العواطف الانسانية المتضاربة في انسان قست عليه الحياة .

وهكذا .. وحول هــذا الرجل ، التأمت مجموعة من الضباط الصغار الاصدقاء .. لم يكن احد يدري انها ستكون نواة لمجموعة اكبر وأكبر ، وأن اجتماعها في تلك القباب البعيدة لن يكون مجرد صدفة تمرّ ، ويتشتت من بعدها شمل الاصدقاء ، وإنما سيكون البدء الحقيقي لجهاد عنيف ، ومحن كثيرة ، وعمل خطير .

وإن كنا قد أخذنا حياة قوادنا الكبار في ذلك الوقت بالسخرية العنيفة ، نطلقها في ساعات المرح ، فقد جاء اليوم الذي لم تعـد فيه السخرية تغني عن آلامنا شيئاً .

فقد القى علينا القدر بقائد جديد للمنطقة ، لم يكد يصل اليها حتى شعرنا بأن الذي وصل ، غاز من غزاة الترك .

كان يرى نفسه بيننا مثلما يرى السلطان عبدالحميد نفسه بين معالم اسطنبول الآمر الناهي الفظ الذي لا يُناقـَش .

وأصبحت الحياة كريهة منذ اللحظة التي وصل فيهـا اللواء محمود سيف الى منقباد .

كان هذا اسمه ، ولكننا كنا نسميه السلطان عبد الحميد لأنه كان يفرض علينا تقاليد السلاطين .

وبدأنا نيأس من خدمة الجيش. وأعدّ بعضنا استقالته فعلاً من هذا الجيش الذي يضم بين قواده .. السلطان عبد الحميد !

ولكننا نرى صبر جمال فنعجب ، ونرى هدوءه وصموده لهـذا الذل الطويل ، فتسكن نفوسنا ؛ فقد كان جمال يعيش بأمل لم نحلم نحن به في تلك الفترة السحيقة من حياتنا في « منقباد » .

واشتدت الصلات بين كل منا وبين المجموعة الكاملة ، حتى اصبح كل منا يفكر بعقلية الكل ، وأصبح من حق كل منـا ان يتصرف باسم الجماعة ، وأصبحت هذه الجماعة ، يوماً بعد يوم، قيداً جديداً لتصرفاتنا ، لأن كل عمل يأتيه فرد منها ، سيُنسب الى الجماعة ، شاءت أم لم تشأ .. علمت بالأمر أم لم تعلم !

وإني لأذكر تلك الأيام والليالي اذكر مرحنا وآلامنا وأيام صداقتنا الجميلة الأولى .. والسلطان عبد الحميد الذي اراد ان يـــذل رقابنا ، كما ذل رقبته

لصغار الانجليز ، وراح يتجول في صورة شرسة مضحكة مبكية معـــاً في « منقباد » .

أذكر كل هذا ، واذكر اننا في خلال تلك الفترة الحالمة من حياة الشباب بدأنا نفكر ذات ليلة ..

وقال جمال :

« إنهم الانجليز اصل بلائنا كله » .

وكانت مفتاح تفكير طويل .. لم يلبث ان اصبح خطى عملية متتابعة .. كنا جميعاً نعلم ان الانجليز هم اصل بلائنا كله .. وكنا جميعاً نكره الانجليز، ولكن هذه الكلمة قالها جمال ، وكأنه يحدد لنا رسالة كبرى ، لا ينبغي ان يتخلى عنها .

وشهدت « تباب الشريف » ، والنار الموقدة عليها ، عهــداً مقدساً ، ربط مجموعة صغيرة من الشباب الصغار .

لم يربطهم بعمل معين ، ولا بزمن محدد ، ولكن ربطهم بفكرة الحياة .

وبدأنا نجمع حولنا انصاراً لفكرة الحياة ، كل منا يختبر عــدداً من الضباط الآخرين ، ويكون في محيطه خليّة صغيرة يثير فيها هـذه الفكرة ، ويرى مدى استعدادها للعمل يوم يأتي وقت العمل ...

وبدأنا نخطو الخطوة الأولى ، فنحسب لهــا حساباً ، وتلقي الكلمة ، فنفكر قبل القائها مرتين ..

بدأنا ننزع من اعماقنا زهو الشباب ، ونُحِلّ فيهـا الشعور بالمسؤولية ، والاقتصاد في الأمل .

لقد قتل « جمال » فينا المرح ، وكنا في شرخ الشباب !

وجاء الدرس الأول الذي اخذناه ، بعد ذلك ، فأصبح درس حياتنا ..
فقد مرت ايام قليلة .. كنا فيها لا نزال في فترة تكويننا الأولى ، وإذا بالشيء الذي نسيناه جميعاً يقع . وكنا خليقين بتوقعه . فإن ضابط الجيش لا يستقر في مكان واحد طويلاً .. وإن هي إلا لحظة مفاجئة ، حتى كنا قد تفرقنا شعاعاً ، واحداً في الاسكندرية ، والثاني في طنطا ، والثالث في القاهرة ، والرابع في مرسي مطروح ..

وكانت الحرب إذ ذاك قد بدأت ، والاعصاب توترت ، ورأينا حلمنا الكبير يذوب ويتساقط كما تتساقط حبات الندى عالقة بزهرة ، او تذوب في شعاع الصباح .

وافترقنا .

ولكن الحلم لم يذب .. والفرقة لم تستطع ان تكون حاجزاً بين هذه المجموعة ، في اقسى الظروف التي حلت بها .

وفهمنا مع الايام هذا الدرس ، وهو ان الصداقة القوية عندما تقوم على نقاء وطهر ، وعندما تتركز ايضاً حول فكرة ، فإنها قادرة على الحياة ، مهما فرقت الحياة بين الاصدقاء . بل هي اكثر من ذلك ، تستطيع وحدها صنع المعجزات .

والذي وقع ، بعد تلك الايام ، هو الأثر القوي لهذه الصداقة النقية التي ربطتنا . فقد فرقت بيننا الظروف كثيراً ، وجمعت بيننا بعد ذلك ، كثيراً .

وكنا إذ نفترق ، لا تفارقنا الفكرة ، ولا عهد الجماعة ، وكل ما هناك ان احدنا كان يجد الفرصة للعمل ، فيعمل .. يعمل مستقلاً بإرادته في ظاهر الأمر ، ولكنه في حقيقته ، يكون مقيّداً بإرادة الجماعة المتمثلة في فكرتها الكبيرة ، وعهدها المقدّس .

وقد تختفي من بيننا اسماء ، في كثير من الاوقات ، كما اختفى اسم جمال

عبد الناصر عامين كاملين، بين كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٩ وكانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١ ، إذ كان في هذه الفترة قد نقل الى السودان .

ولكن الذي كان يبقى في ميدان العمل ، كان يعمل .. يعمل بإرادته ، ولكن باسم هذه الجماعة ، وفكرتها الاصلية ، ويعمل بإرادته ، ولكنه يرجع الى من يستطيع الرجوع اليه من جماعتنا ، في كل فرصة تؤاتيه لذلك .

ولم تعد تمر الايام هينة ، ولا رفيقة ، فقد بدأت احداث كثيرة تقع .. بدأت بالحادث الاول عام ١٩٤٠ .. وكان ميدانه ميدان القتال في « مرسي مطروح » .

●

وهكذا كان ، فقد نُقل جميع هؤلاء الضباط الاصدقاء من « منقباد » الى ارجاء مختلفة من مصر ، بينما نُقل جمال عبد الناصر الى « أمبابة » ، وبعد ذلك بشهر واحد نُقل الى « العلمين » ولبث في « العلمين » اربعة اشهر انتقل بعدها الى « ابي زعبل » واستقر به المقام اخيراً في السودان .

وكان كل من الضباط يحاول اثنـــاء تنقلاته ان يجمع عدداً جديداً من الضباط على الفكرة ، وكان الهدف واضحاً ومحدداً ، وهو تخليص البلاد من الانكليز الذين هم اصل البلاء كله ، كما قال جمال عبد الناصر لرفاقه ذات ليلة .

ولقد كانت نيران الحرب العالمية الثانية على وشك ملامسة أرض مصر .. وكانت سياسة الحكومة ، آنذاك هي سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب ، لأنه لم يكن في الامكان تفادي الحرب ، نظراً للمعاهدة المبرمة مـع الانجليز عام ١٩٣٦ ، والتي سبقت الاشارة إليها . والانجليز ، كما هو معلوم ، طرف هام في الحرب العالمية الثانية ...

ومثل هـذه السياسة لم تقابل بالارتياح من جانب انكلترا ، فأبرق لورد هاليفاكس ، وزير الخارجية البريطانية الى « كيلرن »، سفير انجلترا في مصر بما معناه ان الحكومة ، وكانت برئاسة علي ماهر ، يجب ان تستقيل فوراً ..

واستقالت الحكومة .. وبدأت الأجواء تتلبّد بالغيوم ..

وتسربت اخبار الى الضباط المصريين،في مرسي مطروح،مفادها ان اوامر ستصدر اليهم من قيادتهم تقضي بأن «تنسحب الفرقتان المصريتان اللتان تقومان بالدفاع في القطاعين البريين لتحتلها قوات بريطانية حتى تنفرد بريطانيا بالدفاع عن النقطة كلها » .

ولقد كان بإمكان الضباط ان ينفذوا هـذه الأوامر ، ولو على مضض وكره ، لو لم تكن الأوامر مرتبطة بأوامر أخرى تقضي بأن « يترك الضباط سلاحهم ، عنـد انسحابهم ، وأن يسلموه للقوات البريطانية التي ستحتل القطاعين » .

ولا نحسب ان ثمة صفعة مذلة يمكن ان توجه الى جندي او ضابط أعظم من صفعة الأمر بترك السلاح ، فضلاً عـن الانسحاب .. ولمن ؟ للجنود البريطانيين المحتلين الغزاة .

وصمم الضباط على امر .

صمموا على رفض الأوامر ، حتى ولو اقتضاهم ذلـك الرفض ان يدفعوا حياتهم ثمناً للتمرد على الأوامر .

لا بـل صمموا على ان يعودوا في طريقهم الى القاهرة ، وأن يحتلوا جميع المرافق العامة ، ويفرضوا مجدداً حكومة علي ماهر الذي كان قـد تقدم باستقالة مدوية ، وبيان شهير في شهر تموز (يوليو) .

وفي شهر ايلول (سبتمبر) صدرت الأوامر « المنتظرة » ، فعلاً .. فرفض الضباط ترك السلاح .. وتقدموا الى القاهرة .. ولكن الظروف المحيطة بهم اوضحت لهم ان قيامهم بالاستيلاء على المرافق العامة قـد يعود عليهم بالوبال والضرر العظيم .

وهكذا اكتفوا بالاحتفاظ بسلاحهم ، وبحقدهم على الانجليز الذين اكتشفوا صورة واضحة للعداء العميق الذي يكنه لهم الضباط المصريون .

وفي القاهرة ، عاد الشمل فالتأم ، واجتمع الضباط من جديد مـــا عدا جمال عبد الناصر الذي كان ما يزال في السودان .

حادثة ٤ شباط (فبراير) وازدياد السخط

ولا نمضي بعيداً ، في توضيح الاسباب التي ادت الى تفجر البركان الثوري الكامن في نفوس الضباط المصريين، قبل الوقوف عند حادثة ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢ التي يعتبرها الشعب والجيش المصريين وصمة عار في جبين الحكم المصري الذي كان يتولى، ساعة يشاء الانكليز ان يتولى ، ويتخلى ساعة يشاء الانكليز ان يتخلى .

وخلاصة الحادث أن انجلترا التي كانت على ثقة من كره المصريين لهـا ولوجودها في البلاد ، استاءت أشد الاستياء عندمـا وجدت ان ثمة تقارباً كبيراً بين الملك والجيش من جهة ، وبين الشعب والملك من ثانية جهة (وكان الملك يُنظر اليه ، يومذاك على انه شاب وطني محبوب) ، فأدركت ان مثل هذا التقارب سيؤدي حتماً الى قيام جبهة موحدة قوامها الجيش والشعب ، فصمّمت على ضرب هذه الجبهة ، وفصل الجيش عن الشعب ؟

وهكذا قرّرت ارغام الملك على تكليف مصطفى النحاس ، زعيم الوفد (والوفد آنذاك حزب غالبية الشعب) ، وبذلك يبدو النحاس ، وكأنـه رجل بريطانيا ، فتقوم الهوة بينه وبين الجيش ، وتتصدّع ، بذلك ، الجبهة الموحدة المرتقبة ، نتيجة التقارب بين الملك من جانب ، والجيش والشعب من جانب آخر .

ولكن بريطانيا وجدت ان هذه «اللعبة» تقتضي إيجاد الأسباب الموجبة ، والظروف الملائمة لممارسة اللعبة ، فافتعلت مظاهرات « مصرية » تهتف باسم « روميل » المتقدم نحو هذه البلاد الواقعة تحت الاحتلال البريطاني .

وسارت المظاهرات في الليل .. وبدلاً من ان تتجه السلطات المحتلة نحو المتظاهرين ، اتجهت نحو القصر ، وبواسطة « كيلرن » السفير البريطاني ، خيَّرت الملك بين تاجه وبين تكليف النحاس بتأليف الحكومة .

وذهلت البلاد من تلك الاحداث لأنها « كانت اغرب من كل ما تصوره خيال هذا الشعب .. وأذهلها بعد ذلك عنه او شغلها عنه ، ما تقاذف به السياسيون من سباب واتهامات وما أثير من قصص الاجتماعات التي تمت في قصر الملك ، والمواقف المثيرة التي رأتها قاعاته من الزعماء . وطاش صواب ضباط الجيش ، لأنهم كعسكريين ، شعروا بأنها ضربة عسكرية لا يراد بها سواهم . وفي فورة الحماسة وعنف الشباب ، بدأت الاجتماعات تعقد علناً في نادي ضباط الجيش لمناقشة الموقف . وتقرير الخطة بصورة مفتوحة ، لا يمكن ان تؤدي الى خير »[1] .

والحقيقة ان هذه الحادثة هزّت ضمائر الضباط أيما هزة ، حتى ان جمال عبد الناصر (وكان يومئذ في السودان) كتب الى صديقه « حسن النشار » رسالة يقول فيها ، حول تلك الحادثة :

« ان خطابك جعلني أغلي غلياناً مرّاً ، حتى كنت على وشك الانفجار من الغيظ ، ولكن اشعر بالخزي والعار لأن جيشنا سكت على هذا الاعتداء وارتضاه . ولكني مسرور على أي حال ، فقد كان ضباطنا يشغلون اوقات فراغهم بالحديث عن ساعات اللهو والمسرات ، فبدأوا الآن يتحدثون عن الانتقام ، لا من اجل القصر ، ولكن من اجل مصر »[2] .

---

(١) « أسرار الثورة المصرية » للرئيس أنور السادات، صفحة ٦٥ .

(٢) مجلة «صباح الخير» القاهرية – العدد ٧٦٩ – اول تشرين الاول «اكتوبر»، صفحة ٣٠.

وإلى هـــذه الحادثة نفسها ، يشير جمال عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » حيث يقول :

« ثم ان هذا اليوم — اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة في نفسي — أبعد من حادث ٤شباط (فبراير) ١٩٤٢ الذي كتبتُ بعده خطاباً الى صديق قلت له فيه : « ما العمل، بعد ان وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين » ؟

الحقيقة اني اعتقد ان الاستعمار يلعب بورقة واحدة في يده، بقصد التهديد فقط ، ولكن لو انــــه احسّ ان بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ، ويقابلون القوة بالقوّة ، لا نسحب كأي امرأة من العاهرات .

وطبعاً هذا حاله او تلك عادته .

أما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهـــذا الحادث تأثير جديد على الروح والإحساس فيه ؛ فبعد ان كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن الفساد واللهو ، اصبحوا يتكلمون عـن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة، وأصبحت تراهم وكلهم ندم، لأنهم لم يتدخلوا —مع ضعفهم الظاهر— ويردوا للبلاد كرامتها ، ويغسلوها بالدماء ، وإن غداً لناظره قريب .

لقد حاول البعض ، بعد الحادث ، ان يعملوا شيئاً بغية الانتقام ، ولكن الوقت كان قد فات ، أما القلوب فكلها نار وأسى .

والواقع ان هذه الحركة .. ان هـــذه الطعنة ، ردت الروح الى بعض الاجساد ، وعرفتهم ان هناك كرامة يجب ان يستعدوا للدفاع عنها ، وكان هذا درساً قاسياً » [١] .

●

---

(١) « فلسفة الثورة » لجمال عبد الناصر — صفحة ٥٠ — الطبعة التاسعة — المطبعة العالمية بالقاهرة .

ولقد استغل جمال عبد الناصر هـذه الحادثة ، وتبلورت في ذهنه فكرة إقامة تنظيم « الضباط الاحرار ». واتبع لذلك خطة يكون التنظيم بموجبها، سرياً، يضم عدداً من الضباط، ويتغلغل هؤلاء الضباط في جميع اسلحة الجيش حتى تتم لهم السيطرة عليه ، على ان تكون التشكيلات السرية على اساس نظام الخلايا ، في تسلسل هرمي ، وذلك خوفاً من ان ينهار التنظيم ، اذا ما اكتشف بعض الاعضاء ، والتسلسل الهرمي لهذا التنظيم يخضع ، في نهـاية الامر ، لقيادة عليا ، فلا يعرف اعضاء الخلايا ، اسماء افراد هـذه القيادة .

وبعد امتحان دقيق عسير ، ودراسة طويلة هادئة ، بدأ جمال عبدالناصر باختيار أعوانه ، وذلك تمهيداً لإقامة « الهيئة التأسيسية لتنظيم الضباط الاحرار » .

●

وفي هذه الاثناء كانت مقاييس كثيرة قد اتضحت .. وأشخاص كثيرون وضعوا على المحك ، فظهروا على حقيقتهم .

الملك الذي كان يمثل ، في نظر الشعب ، عنصراً من العناصر الوطنية حتى حادثة ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢ والذي « اعتبرناه فعلاً رمزاً لمصر ، وأردنا ان نثأر له بإبادة الانجليز » — على حد تعبير انور السادات — قد تبدّلت به الحال ، وتطورت نظرته الى العرش والشعب ، والى المستقبل ، والانجليز ، تبدلاً وتطوراً جعلاه في الصف الاول من اعداء الشعب .

وكذلك علي ماهر الذي أرغم عام ١٩٤٢ على الاستقالة، لتكليف النحاس بالوزارة، والذي هلّل المصريون لعودته الى الحكم عام ١٩٤٤ ، ما كاد يستقر على كرسي رئاسة الوزراء حتى وجد نفسه رهيناً لأوامر الانجليز .. ينفذها راضياً او مكرهاً ، على حد سواء .

ومن « الاوامر » التي اصدرها علي ماهر بناء على « اوامر » الانجليز ، إبقاء انور السادات في المعتقل – وكان السادات الرجل العسكري الوحيد الذي أقام اتصالاً مع مرشد الاخوان المسلمين المرحوم حسن البنا الذي هيّأ له اول اجتماع بالفريق عزيز المصري المشهور بمواقفه الوطنية المعادية للانجليز – فاضطر انور السادات الى الهرب من معتقله في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٤ ، أي بعد تأليف وزارة احمد ماهر بشهر واحد.. ولبث متخفياً حتى عام ١٩٤٥ ، عندما ألغيت الاحكام العرفية .

وعلى الرغم من ان جمال عبد الناصر كان قد عاد من السودان ، في ذلك الوقت ، فقد وجد « ان من الخير للتشكيل وللثورة ألا يعاود العمل المنظم الفعلي إلا بعد ان تشكل لهذا العمل اسباب النجاح ، وكل وسائله » .. هذه الاسباب والوسائل التي لم تكتمل إلا عندما بدأت الخطط والاعمال المنظمة التي انتهت الى تفجير ثورة ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٢ .

وتعاقبت ، يومئذ ظروف كثيرة .. ولندع الرئيس انور السادات الذي عاش تلك الايام بنفسه ، يتحدث عن الظروف الكثيرة المتعاقبة :

« في هذا الوقت، كان جمال عبدالناصر قد بدأ يتولى بنفسه امر التشكيل داخل الجيش لينظمه تنظيماً جديداً ، وليضع له خطة بعيدة المدى ، طويلة الأمد ، قائمة على فلسفة مدروسة واقعية .

وبدأت حركتنا تتخذ صورتين : صورة داخل الجيش يرسمها ويكوّن عناصرها ، جمال عبد الناصر ، وصورة خارج الجيش ، تولّيت انا امرها .

وكان الغالب على الصورتين، روح فدائية ، وكانت بين الصورتين صلات. كنا قد بدأنا نعتمد على أنفسنا كل الاعتماد ، إثر أحداث وأحداث . وكنا قد رسمنا خطتنا القريبة على ان ننشىء تشكيلاً شعبياً وتشكيلاً عسكرياً ،

يعملان جنباً الى جنب ، كل بوسائله، وكل بخططه ، ولا يرتبط احدهما بالآخر أي ارتباط ظاهر حتى تأتي اللحظة المناسبة لذلك .

ومر بنا تاريخ طويل ، ووقعت أمام أعيننا هزات عنيفة وكنت اتعجل الخطى ، وكان جمال يتريث. حتى أتى اليوم الذي شكلت فيه وزارة المرحوم النقراشي ، عقب مصرع المرحوم أحمد ماهر .. وذهب النقراشي الى السفارة البريطانية ، فقابله « كيلرن » ، على سلم السفارة ..

وكانت هذه القصة حديث مصر ..

فقد كانت قصة بغيضة فاضحة .. ولم يكن في البلاد مصري واحد يحتمل سماعها ، دون أن تفور الدماء في عروقه ، ويهم بأي عمل يمكن أن يسمى من أعمال الجنون . فقد كانت خلاصة هذه القصة ان النقراشي لم يكد يشير الى مطالب مصر ، حتى هز ذلك اللورد كتفيه في استهتار وسخرية ، وقال للنقراشي :

— « دعك من هذا الكلام ، فإن حديث الجلاء والوحدة [١] ليس إلا حديث خرافة » .

وكانت لطمة قاسية أردنا أن نردّها .

وذهبت الى جمال ، وفي يدي خطة من التشكيل الشعبي ، لنسف السفارة البريطانية على كل من فيها .

واستمع لي جمال طويلا . وناقش خطتي مناقشة كاملة ، وأقر كل أطرافها وعناصرها . ولكنه في آخر الأمر ، هزّ رأسه ، وقال : لا .

---

(١) اي وحدة « وادي النيل » بين مصر والسودان .

كان يستعرض في ذهنه الاجراءات التي يستطيع الانجليز اتخاذها عقب نسف سفارتهم، وكان يستحضر في ذهنه مصرع «لي ستاك» سردار السودان . وقال : « لا .. نحن لا نريد أن نعيد مأساة السودان التي وقعت منذ عشرين عاماً » .

وقال السادات :

« وكان على حق ، فعشرون عاماً في عمر أمّة مكافحة ينبغي لها أن تغيّر من اساليب كفاحها ، بما تتضمنه من تجارب ومن دروس ..

ولم تتم هذه الخطة .. ولكن بدأ صراع من نوع آخر جديد » [1] !

●

ولقد تتساءل ، ههُنا عن اسباب رفض جمال عبد الناصر للعمل الشعبي الذي كوّن انور السادات تشكيله ، تمهيداً لنسف السفارة البريطانية ؟

أهو الخوف من انتقام الانجليز ، وإجراءاتهم التعسفية بحق البلاد ؟

أم هو الخوف من انتقال بادرة الثورة من يد الجيش المنظمة الى يد المدنيين الذين لا يتحلون بنظامية العسكريين في غالب الأحيان ؟

لعلنا لا نكون مخطئين إذا رجحنا الأمرين معاً ، وأولينا الأهمية الكبرى للترجيح الثاني ، لأن المستقرىء للأحداث في ذلك الوقت ، ولما حدث من قبل ومن بعد ، يتبيّن مـــدى حذر جمال عبد الناصر ، ودقته في اختيار أعوانه ، وتحديد الأوقات المناسبة لتنفيذ الخطوات الثورية التي تقوم بها التشكيلات السرية المختلفة .

---

(١) « أسرار الثورة المصرية » لأنور السادات صفحة ١١٣ و ١١٤ .

فقد روى حسن النشار ، صديق جمال ورفيقه منذ عهد الدراسة، صفحة مطوية من حياته كشف فيها عن سر تاريخي هام ، إذ قال : [1]

« كان جمال عبد الناصر يرى ان خلاص الأمة من الاستعمار والذل والمهانة لا يمكن ان يتحقق في ظروف التمزّق السياسي والحزبي .. إلا عن طريق الجيش ، فاتفقنا على خطة عسكرية يشترك فيها بعض القيادات الوطنية .. وذلك بقطع خطوط المواصلات والإمدادات عن الجيش الانجليزي في « العلمين » ، وكان عبد الناصر آنذاك (عام ١٩٤٢) اركان حرب الكتيبة الثالثة المرابطة في ابي زعبل — وكان من شهود الاتفاق على الخطة البكباشي محمد طاهر ، ومحمد سالم وكيل وزارة الحربية في ذلك الوقت .

كانت اولى مراحل تنفيذ الخطة احتلال محطة الاذاعة وتوجيه ضربة من الخلف لقوات الاحتلال في الصحراء الغربية .. ولكن الخطة لم تتم ، ولم يستطع البوليس ان يعرف شيئاً عنها ، حتى بعد اعتقالي أنا وعبد الفتاح عنايت ، في سجن مصر .

ويضيف حسن النشار ان عبد الناصر اتبع بعد ذلك خطتين : خطة سرية الثورة ، وتوقيتها ، بحيث لم يكن احد غيره وغير الهيئة التأسيسية للضباط الاحرار على علم بالخطة؛ ثم خطة عدم الاستعانة بالمدنيين في التخطيط والتنظيم للثورة ، لأنه تعلم درساً من فشل خطة ١٩٤٢ .

●

ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان كل الاسباب التي مهدت حتى الآن للثورة في نفوس الضباط كانت تقوم على اساس عاطفي انفعالي ، تضاف اليه الأحداث السياسية التي ساعدت على نمو هذه الأسباب ، ولكن الأسس

---

(١) مجلة «صباح الخير» القاهرية — العدد ٧٦٩ — اول تشرين الاول « اكتوبر» ١٩٧٠ .

المدروسة لتفجير الثورة لم تقم في الحقيقة إلا انطلاقاً من الثامن من شهر ايار (مايو) سنة ١٩٤٥ ، يوم انتهاء الحرب العالمية الثانية في اوروبا .

انتهت الحرب العالمية الثانية في اوروبا بتاريخ ٨ ايار (مايو) سنة ١٩٤٥ ، فسمي ذلك اليوم « يوم السلام » ، وسمي « يوم النصر » ، ولكنه لم يكن في حقيقته يوماً للسلام ولا يوماً للنصر .

لقد حسب الناس ، بعدما ضللتهم الدعاية الغربية ، ان انتهاء الحرب العالمية الثانية ، معناه انتصار قوى الخير على قوى الشر ، وغلبة سلطان النور على سلطان الظلام ، نظراً للعهود والمواثيق التي ابرمت ، وللوعود التي قطعت للشعوب في ذلك الحين .

وبالنسبة لمصر ، كان المخلصون ، من رجال الجيش والوطنية ينتظرون بفارغ الصبر ان تضع الحرب اوزارها ، حتى يبدأوا خطوات جديدة على ارض واضحة المعالم . ذلك ان انتهاء الحرب يعني اكثر من شيء بالنسبة لمصر . انه يعني تبلور الاوضاع بصورة واضحة صريحة لا تتيح أي مجال للمخادعة والمواربة ، وإنما لا مجال إلا لأحد عملين : إما عمل لأجل مصر ، وإما عمل ضد مصر .

وانتهاء الحرب يعني ايضاً انتهاء الاحكام العرفية التي جعلت المصريين يعيشون في مثل كابوس ، ويعرضون كراماتهم ومقاماتهم وأحياناً شرفهم وعرضهم لتعديات المخابرات البريطانية ، ولافتراءات عملائهم ، ولتحركهم المشبوه كلما تبينوا ان ثمة خطوة وطنية في طريقها الى الظهور .

وكان جمال عبد الناصر ، خلال الحرب العالمية الثانية ، كما ألمعنا من قبل ، قد بدأ يتحين الفرصة السانحة للتنظيم ، ولاختيار رفاق النضال ، ورسم الخطوات لتحقيق الهدف الكبير .

ولم تكن امامه فرصة افضل من فرصة انتهاء الحرب العالمية الثانية .

وبدأ جمال عبد الناصر يعمل ، وكان جمال الذي يعمل ، هو — على حد تعبير انور السادات[1] — جمال الناضج الذي مرّت به تجارب السنوات الست الكثيرة ، سنوات الحرب ، وما تخللها من احداث داخلية وخارجية وما رآه فيها من هزات عنيفة ، ومن محاولات وطنية وأخرى خائنة .. ومن بطولات زائفة وأساليب خادعة، ومن اوضاع غريبة حلّت بالجيش، او فرضت عليه، ومن دعايات مثيرة ، غرق فيها الشعب ، وتهدف كلها الى تضليله لكي يكسب الاستعمار وأذنابه من الخونة وأصحاب المصالح والحكام الفاسدين .

وكان جمال يرى ان هذه الظروف والأحداث والصوَر قد مرّت بغيره مثلما مرّت به.. وأن هذا الغير قد تأثر بها وانفعل، واكتسب وعياً جديداً، نشأ في فترة الحرب، وآن له ان يتجمع، وأن يُعمل وعياً في كثير من عناصر الجيش.. وعياً لا بد ان يحرك اصحابه الى عمل معين او اتجاه معين.. ولا بد لكي تنجح خطى اصحابه ، أن تتجمع وأن تتوحد وأن تتحد اهدافها .

وكان ايضاً يرى عقبات في الطريق . فعلى الرغم من ثقته بأن العناصر الواعيـة في الجيش ، تسيطر عليها نفس الافكار والمبادىء التي تسيطر على العناصر الواعية في الشعب.. وعلى الرغم من شعوره بأن ما يسخط منه افراد الشعب وجماعاتهم هو عين ما يسخط منه ضباط الجيش وجنوده.. وعلىالرغم من ثقته بأن المعركة التي يجب ان تبدأ هي معركة الجيش والشعب معاً .. إلا انه كان يشعر بانعدام ثقة الشعب في الجيش ، وانعزال الجيش انعزالاً ظاهراً عن قضايا الشعب .

فقـد كانت صورة الجيش في ذلك الوقت هي صورة « الكرباج » الذي يلهب بـه الطغاة ظهور ابناء الشعب ، وهو سيف التهديد الذي يملكه الحاكم ويملك ان يسخره ضد هذا الشعب كلما ثار او سخط (ويؤكد جمال عبدالناصر هذه الحقيقة إذ يقول: « وكنا نقول: كنا نحن الشبح الذي يؤرق به الطاغية

---

(١) « اسرار الثورة المصرية » لانور السادات ، صفحة ١٣٠ وما بعدها .

احلام الشعب ، وقـد آن لهذا الشبح ان يتحول الى الطاغية ، فيبدد احلامه هو » [1]) .

انها الصورة التي رسمها الانكليز ، وشاركهم في إظهارها ، ووضع الإطار حولها ، حلفاؤهم : القصر والأحزاب .

وأصبح الشعب لا يخشى الملك ، لا لأنه مقدس ، او لأن القانون يحميه ، ولكن لأنه القائد الأعلى للجيش ، والمسيطر على تحركاته ، والآمر فيه والناهي .

والجيش مظلوم .

والشعب مظلوم .

فلم يكن جيش مصر اجنبياً عن أبنائهـا ، ولم يكن جيشاً من المماليك او المرتزقة .. ولكنه كان جيشاً من الشعب .. مشاكله هي نفس مشاكل الشعب .

ولم يكن الشعب يجهل هـذه الحقيقة ، ولكنه كان يضلّل عنها بأساليب كثيرة ، وفي مناسبات متعددة ، تجعله يخشى جيشه ، وكأنه جيش احتلال .

كانت هذه هي الحقيقة الاولى في الموقف : ان الشعب يعتقد أن هـذا الجيش هو جيش فاروق لا جيشه ، وأنـه يائس من امكان القيام بالثورة الكبرى ، لأن الجيش عندئذ ، لن يثور في صفوفه ، ولن يقاتل دفاعاً عن مطالبه ، وإنما سيقف في وجه أبنائه ، يضربهم بالحديد والنـار ، ويحطّم معنوياتهم ، وينصر عليهم الظالم والطاغية والمحتل .

وكان حاجزاً ليس من اليسير تحطيمه ، فليس من اليسير ان تخلق ثقة وإيماناً ، حيث لا ثقة ولا إيمان .

---

(١) « فلسفة الثورة » لجمال عبد الناصر ، صفحة ٢٠ .

وكان هناك، الى جانب هذا العامل ، حلف آخر كبير .. جمعت عناصره مصالح مشتركة كثيرة .

وكان هـذا الحلف يجمع بين الملك والاحزاب والرجعية ، ويعمل بوحي الاستعمار ، او يعمل لصالحه .

وقد لا نذهب وراء الاستنتاجات كثيراً ، فنتهم عناصر هـذا الحلف العامدة .. ولكن شيئاً في الوجود لا يستطيع ان ينفي عن هـذه العناصر جميعاً ، أنها كانت تخدم الاستعمار ، ضالة او عامدة .

فأما الملك ، فقد كان عامداً ، متعمداً ، فاهماً لما يعمل حق الفهم . كان الملك قد عرف تماماً ان الهوة سحيقة بينه وبين هـذا الشعب .. وكان الذين حوله من الحاشية الفاسدة والرواد الخائنين ، قد أقنعوه تماماً ، بأن كل تقرُّب من ناحيته الى الشعب ، سيزيد من نهم هذا الشعب في مطالبه ، وان هـذا الشعب ، ان لم يضرب بالسياط ، سيتغوّل ، ويتحول الى خطر دائم عليه ، وعلى أسرته وعلى عرشه ايضاً .

وكان حسنين يقول بلسان الملك : « لقد عرض الملك عرشه في الطريق ، فلم يتقدم لإنقاذ هذا العرش احد من أبناء شعب مصر [١] » .

وفي هذا الكلام إشارة الى حادث ٤ شباط (فبراير) سنة ١٩٤٢ الذي سبق الحديث عنه ، والذي حاول فيه الملك التمرد على الانجليز ، فكانت الغلبة لهم ، حيث أرغموه على تولية مصطفى النحاس رئاسة الوزارة .

●

واذا أضفت الى هذه الوقائع ، تكالب أحزاب الاقلية على الحكم ، وزعمها بعد حادثة ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢ بأنها تريد الثأر للكرامة المصرية ، عن

---

(١) « أسرار الثورة المصرية » لأنور السادات ، صفحة ١٣٣ .

طريق الثأر من حزب الوفد برئاسة النحاس الذي قبل الحكم ، انفاذاً لإرادة المحتلين البريطانيين ،

واذا أضفت اليها ايضاً إغراق حزب الاقلية في الفساد ، والاستجابة للشهوات، وانتظام الاقطاعيين والرأسماليين الاستغلاليين والسماسرة والمنتفعين، في صفوفه ،

واذا أضفت اليها حملات التضليل ، والمتاجرة باسم الدين ، التي حملتها عناصر رجعية مستغلة تعرف مقدار أصالة التقوى والايمان في نفوس المصريين،

اذا فعلت ذلك ، أدركت أية تناقضات كانت تقوم في داخل المجتمع المصري ، وأية أمراض اجتماعية وخلقية كانت تنتاب عدداً كبيراً من طبقات الشعب، وأي ضعف وتخاذل هذا التخاذل وذاك الضعف اللذين كانا يسيطران على الغالبية الساحقة ممن يمارسون الحكم ، تحت وصاية الانجليز، وبرعاية القصر الضالع في التآمر على مصالح الشعب .

واذن كان لا بد من عمل يزيل جميع هـذه المظاهر التي تشف عن تخلّف اجتماعي ، سياسي ، ُخلقي ، حضاري .

وهـذا العمل لا سبيل الى إتمامه بغير القوة . القوة التي تستخدم الحديد والنار ، اذا لزم الحديد والنار ، لإزالة الملكية الطاغية ، والاقطاع المستغل، وتجار السياسة المرتمين في أحضان الانجليز او على أعتاب القصر ، وبذلك .. وبذلك وحده يمكن إعـادة الثقة المفقودة ما بين الشعب والجيش ، ثم بعد تحقيق هذه الثقة ، يلعب الجيش دوره التاريخي الذي لا يستطيع احد سواه ان يلعبه .

وهكذا وجد جمال عبد الناصر ان عليه ، وعلى رفاق الجهاد ، ان يحاربوا على اكثر من جبهة : ان يحاربوا الانجليز ، والملك ، والاحزاب ، والرجعية ، والانهيار الذي تشهده البلاد .

وكانوا على ثقة ان الجيش لا يستطيع ، بعد الآن ، ان يقف موقف المتفرج ، او ان يكون على الحياد ، بالنسبة لما يجري في سائر مرافق البلاد .

ويطرح جمال عبد الناصر على نفسه هذا السؤال [١] :

« هل كان يجب ان نقوم ، نحن الجيش ، بالذي قمنا بـه في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ ؟ »

والجواب على ذلك ان ثورة ٢٣ تموز (يوليو) كانت تحقيقاً لأمل كبير رواد شعب مصر ، منذ بدأ في العصر الحديث يفكر في ان يكون حكمه في ايدي أبنائه ، وفي ان تكون له نفسه ، الكلمة العليا في مصيره .

وإذا كان الأمر كذلك ، ولم يكن الذي حدث يوم ٢٣ تموز (يوليو) تمرداً عسكرياً ، وليس ثورة شعبية ، فلماذا قدر للجيش ، دون غيره من القوى ، ان يحقق هذه الثورة ؟

ومرة ثانية يجيب جمال بأن هذا السؤال طالما ألح على خواطره ، في دور الأمل والتفكير والتدبير قبل ٢٣ تموز (يوليو) ، وبعد ذلك في مراحل كثيرة من التجربة : « لقد كانت أمامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ تموز (يوليو) تشرح لنا لماذا يجب ان نقوم بالذي قمنا به » .

كنا نقول : « إذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟ »

وكنا نقول : « كنا نحن الشبح الذي يؤرق به الطاغية احلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح ان يتحول الى الطاغية ، فيبدد احلامه هو .. » وكنا نقول غير هذا كثيراً ؛ ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله ، اننا كنا نشعر شعوراً يمتد الى اعماق وجودنا ، بأن هذا الواجب واجبنا ، وأننا إذا لم نقم به ، فإننا نكون كأننا قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها .. »

---

(١) « فلسفة الثورة » لجمال عبد الناصر ، صفحة ١٩ .

طريق العمل الثوري

منذ ان انبثق الوعي في وجدان جمال عبد الناصر، كان قد آمن ان العمل الايجابي يجب ان يكون طريق الجيش والشعب .. ولكن اي عمل ؟ ولقد رأى جمال « انه لا يكفي ان تضج اعصابي وحدي بالحماسة ، وإنما عليَّ ان أنقل حماستي كي تضج بها اعصاب الآخرين » .

وهكذا، كان منسجماً مع نفسه، يوم نظم المظاهرات الطلابية في «مدرسة النهضة» وقادها، ويوم كوَّن لجنة لمقابلة زعماء مصر ومطالبتهم بتوحيد الصف والكلمة ؛ حتى اذا جاءت الحرب العالمية الثانية ، وما سبقها بقليل ، التهبت مشاعر الشباب ، وأشاعت الظروف التي مرت بالبلاد ، النار في خلجاته ، فبدأ اتجاه الجيل كله يسير نحو العنف .

●

وفي اعتراف مثير ، فيه من النبل الانساني ، والشعور الوطني العميق ، مثل ما فيه من الروح الثورية اللاهبة العنيفة ، يكشف جمال عبد الناصر عن جانب خطير من جوانب الايديولوجية الثورية العنيفة التي آمن بها ، في مرحلة من حياته: « وأعترف — ولعل النائب العام لا يؤاخذني بهذا الاعتراف — ان الاغتيالات السياسية توهجت في خيالي المشتعل في تلك الفترة ، على انها العمل الايجابي الذي لا مفر من الإقدام عليه، إذ كان يجب ان ننقذ مستقبل وطننا.

وفكرت في اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التي تقف بين وطننا وبين مستقبله، ورحت أفنّد جرائمهم، وأضع نفسي موضع الحكم على اعمالهم، وعلى الأضرار التي ألحقتها بهذا الوطن ، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذي يجب ان يصدر عليهم .

وفكرت في اغتيال الملك السابق ، وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا .

ولم أكن وحدي في هذا التفكير .

ولما جلستُ مع غيري ، انتقل بنا التفكير الى التدبير .

وما أكثر الخطط التي رسمتها في تلك الأيام،وما أكثر الليالي التي سهرتها، أعدّ العدّة للأعمال الايجابية المنتظرة .

كانت حياتنا ، في تلك الفترة ، كأنها قصة بوليسية مثيرة . كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز، وكنا نتستر بالظلام، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هي الأمل الذي نحلم به !

وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه ، ومـــا زلت اذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ، ونحن نندفع في الطريق الى نهايته .

والحق انني لم اكن في اعماقي مستريحاً الى تصور العنف على انـــه العمل الإيجابي الذي يتعيّن علينا ان ننقذ به مستقبل وطننا .

كانت في نفسي حيرة، تمتزج فيها عوامل متشابكة ، عوامل من الوطنية، ومن الدين ، ومن الرحمة ، ومن القسوة ، ومن الايمـــان ، ومن الشك ، ومن العلم ، ومن الجهل .

ورويداً رويداً ، وجدت فكرة الاغتيالات السياسية الـــتي توهجت في خيالي ، تخبو جذوتها ، وتفقد قيمتها في قلبي كتحقيق للعمل الإيجابي المنتظر .

وأذكر ليلة حاسمة في مجرى أفكاري وأحلامي في هذا الاتجاه .

كنا قد أعددنا العدة للعمل .

واخترنا « واحداً » قلنا إنه يجب ان يزول من الطريق. ودرسنا ظروف حياة هذا « الواحد » ، ووضعنا الخطة بالتفاصيل .

وكانت الخطة ان نطلق الرصاص عليه وهـو عائد الى بيته في الليل . ورتبنا فرقة الهجوم التي تتولى إطلاق النار ، ورتبنا فرقة الحراسة التي تحمي فرقة الهجوم ، ورتبنا فرقة تنظيم خطة الافلات الى النجاة ، بعـد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة ، وخرجت بنفسي مع جماعات التنفيذ ، وسار كل شيء طبقاً لما تصورناه .

كان المسرح خالياً ، كما توقعنا؛ وكمنت الفرق في اماكنها التي حددت لها ، وأقبل « الواحد » الذي كان يجب ان يزول ، وانطلق نحوه الرصاص .

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عملية الإفلات الى النجاة ؛ وأدرت محرك سيارتي ، وانطلقت أغادر المسرح الذي شهد عملنا الإيجابي الذي رتبناه .

وفجأة دوى ، في سمعي ، اصوات صريخ وعويـل ، وولولة امرأة ، ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة .

وكنتُ غارقاً في مجموعة من الانفعالات المحمومة الثائرة ، والسيارة تندفع بي مسرعة .

ثم أدركت شيئاً عجيباً .

كانت الاصوات ما زالت تمزق سمعي .

الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة .

لقد كنتُ بعدتُ عن المسرح بأكثر مما يمكن ان يسري الصوت ؛ ومع ذلك ، بدا ذلك كله كأنه يلاحقني ويطاردني .

ووصلتُ الى بيتي ، واستلقيتُ على فراشي ، وفي عقلي ، حمّى ، وفي قلبي وضميري غليان متصل .

وكانت أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ما زالت تطرق سمعي .

ولم أنم طول الليل .

بقيت مستلقياً على فراشي ، في الظلام ، أشعل سيجارة وراء سيجارة ، وأسرح مع الخواطر الثائرة ، ثم تتبدد كل خواطري على الأصوات التي تلاحقني .

ــ أكنت على حق ؟

وأقول لنفسي في يقين : « دوافعي كانت من أجل وطني ! »

ــ أكانت تلك هي الوسيلة التي لا مفر منها ؟

وأقول لنفسي في شك : « ماذا كان في استطاعتنا ان نفعل ؟ »

ــ أيمكن حقاً ان يتغير مستقبل بلدنا اذا خلصناه من هذا الواحد ، او من واحد غيره ، ام المسألة اعمق من هذا ؟

وأقول لنفسي في حيرة : « أكاد احسّ ان المسألة اعمق » .

ــ اننا نحلم بمجد امة ، فما هو الأهم : أيمضي من يجب ان يمضي ، ام يجيء من يجب ان يجيء ؟

وأقول لنفسي، وإشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر المزدحمة : « بل

المهم ، ان يجيء من يجب ان يجيء .. اننا نحلم بمجد امة ، ويجب ان يُبنى هذا المجد » !

وأقول لنفسي، وما زلت أتقلّب في فراشي،في الغرفة التي ملأها الدخان، وتكاثفت فيها الانفعالات :

— واذن ؟

وأسمع هاتفاً يرد عليّ : « وإذن ماذا ؟ »

وأقول لنفسي في يقين ، هـذه المرة : « اذن يجب ان يتغير طريقنا .. ليس ذلك هو العمل الايجابي الذي يجب ان نتجه اليه.. المسألة اعمق جذوراً، وأكثر خطورة ، وأبعد اغواراً » .

وأحس براحة نفسية صافية ، ولكن الصفاء ما يلبث ان تمزقه ، هو الآخر ، اصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ، تلك التي ما زالت اصداؤها ترن في اعماقي .

ووجدت نفسي اقول فجأة : « ليته لا يموت » !

وكان عجيباً ان يطلع عليّ الفجر ، وأنا اتمنى الحياة « للواحد » الذي تمنيت له الموت في المساء ؟

وهرعت في لهفة الى إحدى صحف الصباح .. وأسعدني ان الرجل الذي دبرت اغتياله .. قد كتبت له النجاة !

●

وهكذا بدأ جمال عبد الناصر يرسم الخطوط الاولى فيالصورة التي تحققت مساء ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢، صورة الثورة المنبعثة من قلب الشعب ، الحاملة لأمانيه ، المكملة للخطوات ذاتها التي خطاها من قبل على طريق المستقبل !

ولكن من أين يبدأ جمال بالعمل؟ وما هي وسائله الى ضمان نجاح الاهداف التي يرمي اليها من وراء القيام بهذا العمل ؟

وهكذا ، وبعد دراسة مستفيضة للموقف ، قام بها جمال عبد الناصر عام ١٩٤٥ ، وبعد ما أدرك حقيقة الملابسات والظروف المحيطة به ، قرر ان يبدأ العمل الداخلي في الجيش .

يقول انور السادات ، في هذا الصدد : « والذين يعرفون جمال ، يعرفون انه رجل لا يبدأ عملاً حتى ينتهي تماماً من بحث جميع تفاصيله ، ولا يخطو خطوة حتى يدرس الأرض التي سيخطو عليها ، ويتبين جيداً معالم طريقه ، يدرس ، قبل كل هذا ، ما سبقها من خطى ..

ويوم قرّر جمال ان يبدأ عمله التنظيمي الجديد .. كان كمن يقف في منتصف طريق متصل.. وراءه خطوات تتلاشى مع الليل، وأمامه خطوات تبدو مع النهار .

وكان لا بد له ان يسلط أضواءه القوية على الليل الطويل من خلفه ، ليدرس كل خطوة من الخطى السابقة ، فقد تعوّد ان يستفيد من هذه الدراسات ، وأن يكسب كثيراً من التأمل في افكاره السابقة ، وفي افكار الآخرين » .

والليل الطويل الذي كان لا بدّ لجمال عبد الناصر ان يسلط عليه أضواءه، لم يرجع بتاريخه فقط الى عام ١٩٤٢ وما قبله بقليل ، كما يقول الرئيس انور السادات ، وإنما هو ضارب في أعماق التاريخ المصري الذي طالما عاد جمال الى تقليب صفحاته ، فأحس بالأسى يمزق نفسه « ازاء تلك الفترة التي تكون فيها اقطاعٌ طاغ، لم يجعل له من عمل إلا مص دماء الحياة في عروقنا، وأكثر من هذا ، سحب بقايا الاحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق ، وترك في أعماق نفوسنا تأثيراً يتعيّن علينا ان نكافح طويلاً لكي نتغلب عليه » .

والواقع ان تصور جمال عبد الناصر لهذا التأثير كان يعطيه في كثير من الأحيان ، كما يقول ، تفسيراً لبعض المظاهر في حياة مصر السياسية .

فأحياناً ، يخيّل الى جمال ان كثيرين يقفون من « الثورة » موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر إلا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيهما علاقة .

وأحياناً ، يثور جمال على هذا الوضع ، وأحيانـــاً يقول لنفسه ولبعض زملائه : « لماذا لا يقدمون ، ولمـاذا لا يخرجون من المكامن التي وضعوا فيها انفسهم ، ليتكلموا ويتحركوا ؟ »

ولا يجـــد جمال تفسيراً لهذا ، إلا رواسب حكم المماليك : كان الامراء يتصارعون، ويتطاحن فرسانهم في الشوارع؛ ويهرع الناس الى بيوتهم يغلقونها عليهم ، بعيدين عن هذا الصراع الذي لا دخل لهم فيه .

وأحياناً ، يخيّل الى جمـال ، ان المصريين يلوذون بخيالهم ، يكلفونه ان ان يحقق لهم ، في اطـار الوهم ، ما يريدونه ، ويستمتعون هم بهـذا الوهم ، ويقعدون به عن محاولة تحقيقه . ولم يكن كثيرون منهم قد تخلصوا من هذا الشعور ، بعد ، ولم يهضموا ان البلد بلدهم ، وأنهم سادته ، وأصحاب الرأي والأمر فيه .

يقول جمـال عبد الناصر : « ولقد ظللت مرة احاول ان افهم عبارة ، كثيراً ما هتفت بهـا ، طفلاً صغيراً ، حينما كنت ارى الطائرات في السماء . لقد كنت اصيح :

« يا ربنا يا عزيز .. داهية تاخذ الانجليز » .

ولقد اكتشفت ، فيما بعد ، أننا ورثنا هـذه العبارة عن اجدادنا على عهد المماليك، ولم تكن يومها منصبّة على الانجليز، وإنما حوّرناها نحن، او حوّرتها الرواسب الكامنة فينا ، والتي لم تتغير ، وان تغير اسم الظالم . فقد كان اجدادنا يقولون :

« يا رب يا متجلّي .. اهلك العثمانلّي ! »

وبنفس الروح التي لم تتغير ، جرى المعنى على لساننا ، وان تغير اسم « الانجليز » باسم « العثمانيين » طبقاً للتغيرات السياسية التي توالت على مصر بين العهدين ! »

وفي موكب إلقاء الضوء على الليل الطويل ، عبر التاريخ المصري، يتساءل جمال عبد الناصر : « ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك ؟ »

ويرى جمال انه بمجيء الحملة الفرنسية، تحطم الستار الحديدي الذي فرضه المغول على مصر ، وتدفقت عليها افكار جديدة ، وتفتحت لها آفاق لم يكن لمصر عهد بها .

وورثت اسرة محمد علي كل ظروف المماليك ، وإن حاولت ان تضع عليها من الملابس ما يناسب زي القرن التاسع عشر .

وبذلك بدأ اتصال مصر بأوروبا والعالم كله من جديد .. وبكلمة ، فقد بدأت اليقظة الحديثة .. وهذه اليقظة بدأت بأزمة جديدة :

« لقد كنا ، في رأيي ، اشبه بمريض قضى زمناً في غرفة مغلقة، واشتدت الحرارة ، داخل الغرفة المغلقة ، حتى كادت انفاس المريض تختنق .

وفجأة هبّت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدافعت تيارات الهواء الباردة تلسع جسد المريض الذي ما زال يتصبب عرقاً .

لقد كان في حاجة الى نسمة هواء .. فانطلق عليه اعصار عاتٍ ، وأنشبت الحمى اظفارها في الجسد المنهوك القوى .

هذا هو ما حدث لمجتمعنا تماماً ، وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر !

كان المجتمع الاوروبي قد سار في تطوره بنظام ، واجتاز الجسر بين عصر

النهضة من اعقاب القرون الوسطى الى القرن التاسع عشر ، خطوة خطوة ، وتلاحقت مراحل التطور ، واحدة إثر اخرى .

أما نحن ، فقد كان كل شيء مفاجئاً لنا .

كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ ، فانهار فجأة .

كنا قد انقطعنا عن العالم ، واعتزلنا احواله ، خصوصاً بعد تحول التجارة مع الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح ، فـإذا نحن نصبح مطمع دول اوروبا ، ومعبراً الى مستعمراتها في الشرق والجنوب .

وانطلقت علينا تيارات من الافكار والآراء لم تكن المرحـلة التي وصلنا اليها ، في تطورنا ، تؤهلنا لقبولها .

كانت ارواحنا ما زالت تعيش في آثار القرن الثالث عشر ، وان سرت، في نواحيها المختلفة ، مظاهر القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين .

وكانت عقولنا تحاول ان تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التي تخلفنا عنها خمسة قرون او يزيد ، وكان الشوط مضنياً والسباق مروعاً مخيفاً » .

بعد هـذه الجولة ؛ في رحاب التاريخ المصري ، حيث ألقى الضوء على الوجه السلبي من الحياة القومية طيلة عهود الاحتلال ، عـاد جمال عبد الناصر يسلط الضوء على الخطوات السابقة ، في ليل مصر ، التي كان قد خطاها مع بعض الرفاق ، في سبيل إقامة تنظيم حركي فعال ، على اساس التنظيم المبدئي الذي كان قد شكل عام ١٩٤٢ ، من خمس ادارات رئيسية هي :

١ – **الادارة الاقتصادية** : وقـد نشأت فكرتها ، على اساس النظر في في ماضي المكافحين الذين دخلوا السجون ، ثم بارحوها إما الى مقاعد الحكم ، وإمـا الى المصير المؤلم الذي جعل الشعب يتنكر لهم ولكفاحهم ، فعضهم الجوع بنابه ، واضطره الى بذل ماء الوجه حيناً ، وإلى سفح الكرامة حيناً

آخر ، فما كان من الحركة المنظمة إلا ان قررت الحؤول دون تعرُّض أي من افرادها الى هذا المصير الأخير، وذلك عن طريق تكوين رأسمال لها، يتجمع من اموال يقدمها كل من اعضائها .. ومن استثمارات تجارية اخرى ، كإقامة « دكان » لبيع الزجاجات القديمة .

ورغم ان ما جمعته اللجنة من مال لم يستثمر ، ولم يستعمل فيما جمع من اجله ، فقد بقيت فكرة الادارة الاقتصادية ماثلة في ذهن جمال عبد الناصر ، عندما كان يعد العدة للتنظيم الحركي الفعال .

٢ – **لجنة التشكيلات** : وكانت من الخطورة والأهمية بمكان كبير ، ذلك انه كان من مهامها تجميع العناصر التي يمكن ان تنضم الى الضباط الاحرار ، من سائر الضباط في مختلف اسلحة الجيش . وكانت لجنة التشكيلات تقوم بتبويب العناصر المنضمة ، بالنظر الى نوع اسلحتها واختصاصها ، وتشكل منها الخلايا والتنظيمات الاخرى .

وكان على هذه اللجنة ان تراقب مدى اضطرار التشكيلات ، وتقدمها ، او تأخرها ، على ضوء المعلومات المتوفرة لديها عن عدد الضباط المنضمين للتنظيم، او الخارجين على ذلك التنظيم، فإذا تبينت لها اسباب تقدم التشكيل او تأخره ، عملت على تفادي ما من شأنه ان يعيق عمل الضباط الاحرار الذي لا بدّ ان ينتهي الى الثورة المظفرة .

وكانت لجنة التشكيلات هي الوحيدة التي تعرف جميع الضباط المنضمين الى التنظيم ، وإذا كانت لها من حسنات ، فمن حسناتها انها اقامت العلاقات بين ضباط التنظيم لا على اساس اختبارات الجمعيات السرية ، وإنما على اساس الصداقات القائمة فيما بينهم ، ومعلوم ان الثقة والمحبة تتولدان من الصداقة المتينة ، اكثر مما تتولد ان من الارتباطات الشكلية المعهودة في انظمة الجمعيات والأحزاب .

٣ — **لجنة الدعاية :** وكان من مهامهـا ان تتصل بالمنظمات والتكتلات الشعبية ، وذلك لا عن طريق القيـام بالدعاية المفتعلة ، سواء بالمنشورات او اختلاق الأنباء في الجرائد والمجلات ، وإنمـا عن طريق مجاراة الأحداث السياسية ، بمناقشتها بين الضباط وغير الضباط ، وبذلك تكون القناعة الشخصية اقرب الى العقيدة ، وأشد فعلاً في النفس من « كليشيهات » الدعاية الروتينية المعروفة ، في عالم السياسة ، وفي عوالم الدعاية الاخرى .

وعن طريق لجنة الدعاية امكن الضباط الاحرار ان يتعرفوا الى الاتجاهات الشعبية ، وأن يتصلوا بأركان الحزب الوطني الذي اسسه الاستاذ عبد العزيز علي بصورة سرية عام ١٩١٩ .

٤ — **لجنتا الارهاب ، والامن :** وهمـا اللجنتان اللتان ترتبطان مباشرة بالعمل الثوري الذي أدى الى انبثاق فجر الثالث والعشرين من تموز (يوليو) عام ١٩٥٢ .

●

وعلى ضوء هـذه التنظيمات ، كان لا بـدّ ان يعمد جمال عبد الناصر الى استكمال عدة الثورة ، وجمع الضباط الاحرار ، تمهيداً للأمر العظيم الذي على ضوئه سيتغير تاريخ مصر ، والشرق العربي .

جبل الاولياء

كانت السودان ، والعريش ، والصحراء الغربية ، وكل ثكنة من الثكنات التابعة للجيش المصري ، فيما عدا مدينتي القاهرة والاسكندرية ، تعتبر جميعاً بمثابة المنفى للمغضوب عليهم من رجال الجيش ، فاذا ما قام اصطدام بين ضابط مصري وطني ، والمحتلين الانجليز ، او اذنابهم العاملين لحسابهم من رجال البلاد ، سجل اسم الضابط على « اللائحة السوداء » ، وقذف به الى المنفى القريب او البعيد .

وطبيعي ان جمال عبدالناصر ، منذ ان كان برتبة الملازم ، كان مغضوباً عليه من المتحكمين بمقدرات الجيش والبلاد . وكان الخلاف قد بلغ اشده مع القومندانات الانجليز ، عندما اعلن عن تحرك الكتيبة المصرية الثالثة الى السودان .

وبدلاً من ان ينتظر جمال صدور الامر اليه بالارتحال الى « منفاه » في السودان مع الكتيبة الثالثة ، قدّم بنفسه طلباً يرجو فيه نقله الى الشطر الآخر من وادي النيل ، وسط دهشة رفاقه الضباط الذين احبوه وتمنوا لو بقي بينهم.

وفي السودان ، التقى جمال بملازم آخر هو عبد الحكيم عامر ، وتوثقت العلاقة بين الرجلين حتى اصبحا رفيقي جهاد ، وشريكي نضال ، وتوطدت اواصر المحبة بينهما بفضل اكثر من عامل كان له الاثر في نفس كل من الملازمين الثائرين .

ومن اهم هذه العوامل وجود « قومندان » ، هو الآمر الناهي ، بالنسبة اليهم كضباط صغار ، ذليلاً امام اسياده الانجليز ، عزيزاً على ابناء بلاده من الضباط الذين يقلون عنه رتبة . وكان هذا القومندان يتحلى « بمزايا » ، أقلها الولوع بشرب الخمرة،بل واصدار الاوامر الى ضباط كتيبته بمسامرته ومعاقرة الخمرة ، معه ، كل مساء ، وذلك امعاناً منه في التحكم والغطرسة والتعالي على ضباطه الصغار الذين كانت تسوؤهم مثل هـذه التكاليف المرهقة ، فلما التقى جمال وعبد الحكيم ، آل الاستياء الى ضيق وسخط ومقاومة ، كان من شأنها جميعاً ان تؤدي الى حرب باردة بين القومندان من جهة ، وجمال وعبد الحكيم من جهة ثانية .

وحسب القومندان ان الحرب انتهت، بالتحاق عبد الحكيم عامر في دورة دراسية بالقاهرة، ولكن جمال بقي له بالمرصاد ، فاضطر « لنفيه » من جديد الى « جبل الاولياء » في السودان .

وعرف عبد الحكيم بنقل زميله جمـال ، فلما عاد من دورته الدراسية الى السودان ، وأدرك ان القومندان يريد نقله هو الآخر الى «كسلا» في السودان ايضاً ، عمد الى مناورة بارعة، اذ طلب الى القومندان ان يرسله الى «كسلا»، فأسقط في يد القومندان،وحسب ان لعبدالحكيم في«كسلا» اقارب وأصدقاء، فأصدر الامر بنقله هو الآخر الى « جبل الاولياء » ، حيث حقـّق رغبته بلقاء جمال عبد الناصر .

وفي جبل الأوليـاء ، توثق العهد ، وتمتـّنت الصلات بين الرجلين اللذين تعهدا على العمل معاً لتحرير البلاد من اعدائها في الخارج وفي الداخل .. ثم ما لبث ان صدر الامر بنقل جمال الى الصحراء الغربية ، وبنقل عبد الحكيم الى منقباد في اسيوط .. وهكذا افترق الرجلان ، ليعودا الى لقاء جديد ، والى احداث جديدة ، بعد حادثة ٤ شباط (فبراير) ١٩٤٢ .

طلائع الثورة

توالت الأحداث ، بعد ذلك ، بسرعة ، وتفاقم امر الانجليز ، وعملائهم ممن باعوا الضمائر ، واشتروا بأثمانهـا مقاعد في الحكم ، او أرائك وزارات الدولة ، حـتى بلغ السيلُ الزُبى ، ولم يعد في مستطاع ضباط الجيش ان يحتملوا الاهانات .

ويبدو ان الحركات التحررية لا بد لها من مثل هذه المعمعة ، حيث تصقل التجارب نفوس الثائرين ، وتضع الرجـال والاحزاب والمؤسسات على محك الوطنية الصحيحة ، فيظهر الاصيل من الدخيل ، ويعرف الصالح من الفاسد ، ويمكن بالتالي تبين معالم الطريق الى الهدف الوطني النبيل .

وعن تلك الفترة من تاريخ مصر الحديث ، يقول الرئيس انور السادات في كتابه « اسرار الثورة المصرية » [١] : « كانت فـترة عصيبة تلك التي تلت حادث ٤ فبراير ... وكانت مجالاً لنشاط كبير ، هنا وهناك ... فقد كان الملك ، مثلاً ، يظهر امـام الشعب بمظهر الوطني الذي تحدى المستعمرين ، وأراد ان يقود شعبه الى الخلاص منهم ، فغلبوه على امره ، واستلوا منه سيفه وصولجانه ، وألزموه قصره كالطير السجين .

---

(١) صفحة ١٦١ .

وكانت الاحزاب المعادية للوفد ، تحاول بنشاطها الخفي والظاهري ، ان تكسب من تصويرها للحادث نفسه ، ومن نقائص الحكم الوفدي المعروفة ، ومن عطف الشعب على موقف الملك المطعون في قصره ، وسيلة لاكتساب الانصار ، وبث الدعاية الحزبية ، والتمهيد للوثوب الى الحكم في ثوب وطني ، بعد ان كانت لا تعرف طريقها الى الحكم إلا وأنف الشعب راغم، تحت اقدام القصر والانجليز .

وكانت طوائف الشباب المجاهد المختلفة الاتجاهات، قد زج بها في السجون والمعتقلات ومستشفيات المجانين .

وبقيت خارج الاسوار جماعة « الاخوان المسلمين » من ناحية ، وجماعات صغيرة ضئيلة العدد من الشباب الساخط ، تجتمع لتفكر ، وتزداد سخطاً ، او تجتمع لتدبر امراً كهذا الذي كنا ندبره ، والذي اعتقلت بسببه، واعتقل معي بسببه عزيز المصري وآخرون .

وكانت هناك اجتماعات متفرقة ، تعقد هنا وهناك ، تضم شباباً ثائراً ساخطاً . فمن هذه الاجتماعات ، مثلاً ، اجتماعات كانت تعقد في حي الزيتون ضمت عدداً من ضباط الجيش ، من بينهم الصاغ كمال الدين حسين وضباط آخرون، واجتماعات اخرى كانت تضم اليوزباشي مصطفى كمال صدقي، وعدداً من الضباط وضباط الصف .

كان كل يعمل في طريق ، وكانت اغلب الخواطر والأفكار تتجه ناحية القتل والإرهاب .. قتل الانجليز وأعوانهم ، فلم يكن هناك متنفس حقيقي للثورة المكبوتة في الصدور ، ولم تكن هناك آمال واضحة تدعونا الى التريث والتفكير ، او تستطيع ان تحدد خطواتنا اليها في اتزان .. كنا قد فقدنا كل صمام يحمينا من الانفجار ، حتى صمام التعزي بالأمل » .

ويقول الرئيس انور السادات: « وكان جمال وعبد الحكيم في ذلك الوقت كسائر هـــذه الجماعات الشابة الساخطة ، يحاولان ان يصنعا شيئاً . ولكن الميزة التي امتاز بها جمال ، ميزة الصبر والتريث والتفكير الكثير، استطاعت ان تنأى بها وبمجموعة اصدقائها عن كل عمل طائش، او خطوة غير مأمونة».

●

ومرّ حوالي العامين (١٩٤٤) على استلام مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد مقاليد الحكم ، والحالة تسير من سيء الى أسوأ ، حتى بـدا لكل ذي باصرة وبصيرة ان الحكم المصري اصبح رهيناً بيدي ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا ، فلم يعد ضباط الجيش يطيقون صبراً لهذه الإهانة التي تلحق بوطنهم .. وتحول الهمس الخافت ، الى كلام مسموع، ثم الى هتافات صارخة.

وأدرك جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ان هـــذه النقمة الشعبية والعسكرية العارمة لن تؤدي الىنتيجة اذا لم تنتظم فيحركة مجهزة موحدة ، يهمها ان تعارض الحكم ، وأن تتحدى الانجليز الذين تحدوا كرامة البلاد .

وهكذا عمدا الى تنظيم سري ، واتفقا على ان يكونا غير ظاهرين فيه ، حتى كان يوم ، فوجىء فيه اعضاء مجلس ادارة نادي ضباط الجيش ، وكبار لواءاته وقادته، بدعوة موجهة الى الضباط لعقد اجتماع في نادي الضباط يهدف الى البحث في شؤون الحكم ، وما آلت اليه البلاد من اوضاع سيئة .

وكان عـدد الضباط الحاضرين ضخماً ، كما كانت المناقشات والخطب التي دارت في الاجتماع ، والقرارات التي اتخذت على ضوئها ، من الجرأة والصراحة والوضوح ، بحيث أثارت اللواءات الكبار الذين اعترضوا على حركة الضباط المجتمعين ، باعتبارها تخالف التقاليد العسكرية ، ولكن سرعان ما فوجىء اللواءات بسخرية الضباط الصغار .. وانتهى الاجتماع الى مقررات ، منها

تكوين لجنة تضم ضباطاً من مختلف اسلحة الجيش ، ولم يكن جمال عبدالناصر ولا عبد الحكيم عامر اعضاء فيها .

وكلفت اللجنة بالاتصال برئيس ديوان الملك ورائده، المرحوم احمد حسنين[1] الذي لم يكن قد ُعرف بعد ، على حقيقته ، فنصحهم بألا يقوموا بأية حركة لأن ظروف البلاد غير مناسبة لأي عمل .

وهكذا عادت اللجنة بنصيحة احمد حسنين الذي كانت تظنه ، والملك ، من ضحايا السياسة البريطانية في مصر ، ولكن « عندما تكلمت الوثائق والوقائع — على حد تعبير انور السادات — أثبتت ان احمد حسنين رائد فاروق ورئيس ديوانه ، وظهيره ومرشده ، يوم حادث ٤ شباط (فبراير) ، وقبله، وبعده .. والرجل الاول في القصر المعتدى عليه .. احمد حسنين هذا ، كان طوال حكم « الوفد » في تلك الفترة ، يتصل بالانجليز .. لا لمصلحة البلاد .. ولكن لكسب ثقتهم فيه كحاكم جديد ، يستطيع ان يقضي لهم من المصالح ما كان الوفد يقضيها .. وأن ينفّذ لهم سياستهم « الديمقراطية » في حكم البلاد وتوجيهها .. »

•

بعدئذ ، كان لا بد للضغط المتزايد من صمام الامان ، وكان لا بد للشعب والجيش ان ينفسوا عن رفضهم للأوضاع السيئة التي آلت اليها مصر ، فكان السُّباب يتصاعد علناً على أفواه الضباط والمدنيين، في ادوات النقل، والمنازل، وأماكن الاجتماع الاخرى ، وكان يهدف من ذلك اسماع الانجليز بأن الضباط لم يعودوا يحتملون المزيـــد من الإذلال ومن تحطيم الكبرياء القومية ، وأنهم

---

(١) في كتابه « اسرار الساسة والسياسة في مصر » يروي محمد التابعي فصولاً مثيرة عن حياة احمد حسنين الشخصية والسياسية ، ويذكر انه كان زوجاً لنازلي ، والدة الملك السابق فاروق .

أصبحوا من النقمة بحيث يقدمون على اي عمل من شأنه اعادة الكرامة ، الى بلادهم ، والحكم الى الايدي الوطنية النظيفة الامينة .

●

وبلغت الجرأة ببعض الضباط حداً جعل احدهم ، وهو ضابط شاب من السواحل يدعى « ابو شبانة » ، ان يُلقي بحذائه على عربة مصطفى النحاس، عقب خروجه من صلاة الجمعة في مسجد الرفاعي ، فأصاب الحذاء ، خطأً عربة عبد الحميد عبد الحق . ويروي انور السادات تفاصيل القصة ، ثم يقول: « وثارت ثائرة الحكومة ورجالها .. وظن البعض ان الحذاء يُخفي قذيفة من نوع آخر أشدّ خطراً وفتكاً ، فارتاعت القلوب ، وهلعت الأفئدة ، وحوقلت الألسنة ، وبسملت الشفاه ، وانتهى الأمر بالقبض على الضابط ، صاحب الحذاء .

وفي ثوان معدودة ، كان الفريق حمدي سيف النصر (باشا) ، وزير الحربية ، قد أُبلغ بنبأ العدوان الأثيم .. وفي الدقائق التالية ، كان قد توجه الى وزارته ، وجمع هيله وهيلمانه ، وقرّر عقد مجلس عسكري مستعجل لمحاكمة هذا الضابط المقبوض عليه ..

ولأول مرة،عقد المجلس العسكري،في الدور الأسفل من وزارة الحربية.. وجيء أمامه بالضابط المتهم .. وشرع في محاكمته على وجه السرعة، بينما كان حمدي سيف النصر ، في غرفة مكتبه ، يستجوب الشهود بنفسه قبل ان يمثلوا امام المجلس ، ويُلقي اليهم بتفاصيل ما يشهدون به ، ويهددهم بكل تهديد مستطاع !

وليس أمر هذه المحاكمة هو ما يهمنا... فقد كان الضباط جميعاً في انتظار محاكمات مثلها ، لكل منهم .. وكانت كل كلمة مما كانوا يقولون علناً في الطرقات والمجتمعات ، كافية لإدانة قائلها .. وسامعيها ! ولكنها حادثة من الأحداث التي وقعت في تلك الأيام نتيجة لعدم اكتمال الوعي السياسي فينا ..

فحقيقة كنا ، الى ذلك العـام ، نأمل كثيراً في وطنية الملك .. وكنا نصنع كل هذا لمقاومة الانجليز في شخص الحكومة التي فرضوها .

ولكن عاماً واحـــداً لم يكد يمرُّ بنا ، حتى أدركنا أننا كنا على خطأ عظيم .. وحتى تغيرت فكرتنا تغيُّراً كاملاً ، وأصبح واضحاً امامنا ان كل شخص ممن كنا نعرفهم ، ونعلـّق الآمال عليهم ، كان يضع مصلحة البلاد تحت كعب حذائه ، وأنهم جميعاً كانوا يعملون في سبيل تقوية نفوذهم ، والوصول الى مقاعد الحكم ، والسيطرة والسلطان ..

حتى الملك المطعون في قصره ، أدركنا من امره ما لم نكن ندركه ، وما لم نكن نتصور حقيقته .

وحتى الاحزاب التي لبست اثواب الملائكة ، لم نكن نستطيع ان نتصور مدى القذارة الموغلة في أبدانها تحت هذه الأثواب البيضاء الناصعة ... » .

●

إزاء ذلك كله ، وبعدما انكشف الاشخاص على حقيقتهم ، واتضحت الأحداث في صورها الجلية ، كان لا بد من نفض اليد من الاحزاب السياسية ، والتكتلات والهيئات الساعية كلها الى كسب المغانم ، وتحقيق المصالح الذاتية ، ومن ثم ارتقاب قيام جيل جديد نظيف ، جيل لم تلوث يديه مغانم السياسة التقليدية ، ولا كبلته قيود المحسوبية والتزلم للمستعمر الانجليزي المحتل ، ولم تدنـّس طهارة ايمانـه ، ونقاوة عقيدته ، غايات آنيـّة أنانية ، ولا مصالح ذاتية فردية ، فكان « الضباط الاحرار » معقد رجاء الوطن ، ومناط أمله في التحرُّر والتحرير .

الضباط الاحرار والاخوان المسلمون

في الطريق الى الثورة ، كان لا بـد من اعتماد شتى الأساليب ، والتعاون مع التنظيمات او الافراد ، ممن تبدو عليهم ، للوهلة الأولى ، علائم الوطنية والاندفاع المخلص نحو إنقاذ البلاد من جلاديها . ومن بين الأساليب التي رأى بعضهم اعتمادها اسلوب القتل والارهاب وتصفية اعـداء الشعب ، ومن بين التنظيمات شبه العسكرية التي رؤي التعاون معها « جماعة الاخوان المسلمين ».

ولقد ذكرت لك ، في فصل سبق ، كيف ان جمال عبد الناصر أشرف مرة واحدة ، على عملية من عمليات الارهاب ، ثم وجد الندم يأكل نفسه ، لأسباب وطنية ، ودينية ، وإنسانية ، وحمد الله تعالى على ان « الواحد » – كما أسماه في كتابه « فلسفة الثورة » – قـد نجا من محاولة الاغتيال التي دبّروها له .

ومن بين الذين تحمسوا كثيراً لفكرة الاغتيالات ، الشهيد وجيه خليل الذي اتصل بعبد الحكيم عامر ، للتفاهم مع الضباط الاحرار الذين لم يعد امر قيام تشكيلهم سراً يخفى على احـد ، وذلك من اجل تدبير سلسلة ارهابية من الاغتيالات .

وأخبر عبدالحكيم جمال عبدالناصر بما دار بينه وبين الشهيد وجيه خليل، ولكن شيئاً هاماً لم يستطع جمـال استخلاصه من الحديث ، وهو : مَن الذي



جمال عبد الناصر ساجداً لله في خشوع

سيدير هـــذه المعركة الارهابية ؟ ما هي أهدافه منها ؟ من سيموّلها ؟ من سيتحمل المسؤولية المترتبة على القيام بها ؟

واتضح ان الشهيد وجيه خليل لم يكن يتكلم باسمه الشخصي ، وإنما باسم جماعة تسانده ، هي التي كلفته القيام بهـذا الاتصال .. وفي هدوء متناه قال جمال عبد الناصر : « لا » .

وأردف قائلاً: « قد نرى القيام بحملة ارهابية واغتيالات، ولكننا عندما نصنع ذلك ، يجب ان نصنعه بأنفسنا ، ونتحمل وحدنا كل مسؤولياته ونتائجه .. فالخط الذي يجب ان نسير عليه كضباط في الجيش هو ألا نكون

آلات ولا ادوات في يد احد من الناس، ولا جماعة من الجماعات ، مهما كانت وحدة أهدافنا ، ومهما كانت درجة اخلاصهم » .

أما هـذا الكلام ، فواضح وضوح الشمس : ان الضباط يرفضون التبعية لأي كان ، وهم في عملهم الثوري مستقلون ، متضامنون فيما بينهم ، قادرون على تحمل مسؤولية عملهم بأنفسهم .

وأما الشهيد وجيه خليل، فقد انتهت قصة اتصاله باسم جماعته، بالضباط الأحرار ، قبل أن تولد .. ولكن « وجيه خليل » لم تكن هـذه نهايته البطولية ، إنما كتب قصة البطولة والاستشهاد بدمه ، وبصورة ملحمية رائعة عظيمة مجيدة ، حين انضم ، بعد تلك الحادثة ، الى الضباط الأحرار ، وكان من أهم عناصرهم فيما بعد، حتى إذا دقّ النفير يدعو الى إغاثة فلسطين الشهيدة كان أول الضباط الذين لبوا النداء .

وفي ميدان المعركة ، على ارض فلسطين ، اصيب احـد زملائه بجروح ، وكان هو في مصفحته ، فهبط من المصفحـة ، غير عابيء بنيران العدو الاسرائيلي ، يحاول حمل زميله الجريح ، ولكنه خرّ على الارض العربيـة الطاهرة صريعاً ، ومات كأنبل وأشرف ما يموت الشهداء الأبطال .

●

اختط جمال عبد الناصر ، اذن ، للضباط الاحرار نهج الاستقلال عن كل الأفراد والأحزاب والتشكيلات الأخرى ، حتى لا يكون الضابط في تنظيمه تابعاً لأي شخص كان ، ولأية جهة كانت ، فضلاً عن ان الضابط العسكري يصعب عليه تلقي الاوامر ، وبالتالي انفاذها ، بغير الصورة النظامية التي تعلـّمها من خلال تمرسه بتبعاته ، داخل الجيش .

ولكن الاستقلال لم يكن يعني ، في أي حال من الاحوال ، انكماشاً على

النفس ، وانغلاقاً على الذات ، وانما كان مجال التعاون والتفاهم مفتوحـــاً أمام الجميع .

وهكذا حاول الاخوان المسلمون ان يجتذبوا العدد الكبير من للضباط الى حركتهم ، وكان من بين الضباط الذين عملوا بقـوة على الاتصال بهم ، جمال عبد الناصر ورفاقه الضباط الأحرار .

وفي هذا الصدد، يقول أنور السادات: « وليس سراً ان عدداً من الضباط كانوا قد ألفوا دعوة الاخوان ، وأحبوها .. ورأوا فيها املاً ومخرجاً لمصر من محنتها .

وعندما تلتقي ببعضهم اليوم ، قد يقص عليك قصة ذلك اليوم الذي تمّ فيه « اختياره » بواسطة الجماعة ، ثم طلب منه ان يذهب الى مكان مـا .. لحلف اليمين .

كانوا ، إذ ذاك ، يذهبون ليلاً ، الى حي الصليبة ، فإذا ما انطوى الحي عليهم ، قادهم رسول الاخوان في ازقة مظلمة متعرجة ، حتى يصلوا الى بيت عتيق ، فيصعدون درجاً يؤدي بهم الى غرفة مظلمة ، لا احـــد فيها ، ولا تفتح نوافذها .

ويجلس الضابط الى منضدة ، وضع عليها مصحف ومسدس .. ثم يدخل الى الغرفة في الظلام، حيث يقوم رجل لا يراه الجالس، ويلقنه يمين الإخلاص للدعوة ، فيؤدي هذا القسم ، ويداه موضوعتان الى المصحف والمسدس .

وتنتهي هذه العملية ، فيخرج الرجل من الغرفة أولاً .. ثم يخرج الضابط ليجد رسول الاخوان الذي جاء به ، في انتظاره ، يقوده مثلما جاء بـــه ، الى خارج الحي » .

ونحن نضيف، تعليقاً على هذه الطريقة التي كان الاخوان المسلمون يتبعونها في «اختيار» او « تكريس» العضو الجديد، انها لم تكن طريقة مستحدثة من

جانبهم ، وإنما هي مقتبسة الى حد كبير عن الطريقة المتبعة ، منذ القديم ، لدى المحافل الماسونية إجمالاً ، وذلك حرصاً على السرية من جهة ، وتأكيداً لخطورة العمل الذي يأتيه العضو الجديد بانضمامه الى الحركة ، فضلاً عن ان هذه الشكليات من شأنها ان تلقي في نفسه الروع والمهابة والاحترام . ومن أدلة ذلك ما ورد في كتاب « رسوم الدرجات الرمزية الاولى ، الثانية والثالثة » الصادر عن محفل النجوم الثلاثة الماسوني في بيروت حيث يقول : « يهيأ الطالب بالطريقة المعتادة ، ثم يرشده القائد الى باب الهيكل، والحارس الخارجي يعلن مجيئه بطرقات غير منتظمة على باب المحفل ... » ثم يسأله الحارس الخارجي : « من بالباب » ؟ فيقول :

« طالب فقير في حالة الظلام، قد سبق الإقرار من هذا المحفل على قبوله، أتى الآن مختاراً راغباً متهيئاً على مقتضى النظام يسأل قبوله خاشعاً ليقتبس النور من اسرار « البنائين الاحرار » ويتحلى بمزاياهم » .

وبعد ان تطرح على الطالب عدة اسئلة ، يشرع رئيس المحفل في هذا الدعاء : « أيها الإله القادر على كل شيء ، القاهر فوق عباده . أفض علينا من عنايتك ، وتجلَّ على هذه الحضرة ببركتك . ووفق عبدك هذا الطالب الدخول في عشيرة « البنائين الأحرار »، الى الثبات مدى العمر على طاعتك. فيكون لنا أخاً صادقاً مخلصاً ، وامنَحْهُ معرفة حكمتك ، واشرح صدره لأسرار « البنائين الأحرار » حتى يقوى على إحراز فضيلة التقوى ، وتسبيح اسمك الأعلى » .

وبعد اسئلة اخرى توجه الى الطالب ، يكون تعهده بالصيغة التالية :

« أنا ... أتعهد تعهداً وثيقاً بإرادتي واختياري وأُشهد الله خالق الكون الأعظم، وأنا بين يديه ، وفي حضرة هذا المحفل المعظم المنتظم، محفل البنائين الاحرار المقبولين، ان اصون الأسرار والرموز الماسونية التي تباح لي الآن، او

في المستقبل ، وأكتمها ، ولا ابوح بشيء منها ابداً لأي انسان ، إلا اذا كان من الاخوان الصادقين المخلصين ، بعد دقـــة اختباره ، او معرفتي من احد الاخوان الصادقين بأنه ماسوني حر ، كما اني أتعهد بألا اكتب هذه الأسرار ، ولا أطبعها ، ولا انقشها ، ولا أدلّ عليها بوجه من الوجوه ، وأن امنع مـا استطعت من يحاول ان يفعل ذلـك ، وأتعهد ايضاً بلا تورية ، ولا مواربة ، ولا خدعة ، ان احفظ جميع ذلك حفظاً تاماً ، وإن نكثت في تعهدي هذا اكون مستحقاً ضرب العنق ، وسلّ اللسان . وبالجملة فإني اعاقب عقاب المسيء الكاذب الناقض للعهد ، المجرّد من جميع الآداب ، الممنوع من الدخول في هـذا المحفل او غيره ، المطرود من جميع عشائر البنائين الأحرار ، فاللهم كن لي معيناً على حفظ هذا التعهد العظيم الذي صدر مني في درجة المبتدىء ، وفي حضرة البنائين الأحرار » [١] .

ولقد أردت من هـــذا الاستطراد في اجراء المقارنة بين اسلوب جماعة الاخون المسلمين في « الاختيار » وأسلوب البنائين الاحرار في « التكريس » ان اقول بـأن الاخوان المسلمين اختصروا الاجراءات على الصورة التي رواها الرئيس انور السادات ، فوقعوا ، مع الأسف ، في العجز عن التحرك ، إزاء الكثير من الظروف التي كانت تستوجب في مصر ، القيـام بالعمل الحاسم ، بينما كانت تشكيلات الضباط الاحرار ، وخلاياهم ، وتسلسلهم الهرمي ، وما تعاهدوه فـيما بينهم من ارتباطات ومواثيق ، أقرب الى الأسلوب الماسوني في تكريس البنائين الاحرار ، وضمان التعاون فيما بينهم .

●

وإذا كان بعض ضباط الجيش المصري قـــد انضموا الى جماعة الاخوان المسلمين ، فقـد قرّ رأي بعضهم الآخر على ان يقوم مجرد تعاون فقط بينهم

---

(١) رسوم الدرجات الرمزية الاولى ، الثانية ، الثالثة المطبوعة بمراقبة رئيس محفـل النجوم الثلاثة « ليون براميان » ، في بيروت ، صفحة ٢٢ و ٢٣ .

وبين الاخوان المسلمين ، دون الانضمام بالضرورة الى صفوفهم ، لأن الرجل العسكري، كما اسلفنا، من سماته عدم الخضوع للأوامر اذا لم تأته عن الطريق العسكري الذي يندرج فيه .

وإذا كانت احداث تلك المرحلة الدقيقة من تاريخ ما قبل الثورة المصرية ، لا تجيز لنا الأخذ برأي مشايع او مخالف لما كان عليه الاخوان المسلمون ، آنذاك ، دون الرجوع الى المصادر الوثيقة ، ولما كان جمال عبد الناصر ذاته يشهد في مقدمته لكتاب الرئيس انور السادات : « اسرار الثورة المصرية . بواعثها الخفية وأسبابها السيكولوجية » ، بأن مؤلفه حلّل فيه « الشخصيات والأحداث تحليلاً دقيقاً ، مما جعل الكتاب مرجعاً قيماً يعتدّ به »[1] .

فاننا نترك للسادات امر الحديث عن علاقة الضباط بالاخوان إذ يقول[2]: « ولعل اخطاء كثيرة قد وقعت من جماعة الاخوان في صلتهم بالضباط . فقد كان الضباط ينضمون الى هذه الجماعة او يتعاونون معها ، وفي يقينهم ان دورهم في هذا التعاون هو دور التنظيم والتدريب لشباب الاخوان المتحمس الذي يتحرق شوقاً للتدريب العسكري ، وحمل السلاح في انتظار الفرصة التي تأتيه للعمل .

ولكن تنظيمات الاخوان ، كانت لا تفرق بين الضباط وغيرهم . حتى لقد كانوا يحددون للضباط مواعيد التدريب ، فاذا اقبلوا ، وجدوا واحداً من المدنيين ، يعطيهم دروساً في كيفية استعمال المسدسات !

وكانت هذه الاساليب تزعج الضباط ازعاجاً شديداً .. فهم يقبلون على الاخوان ، وعلى دعوتهم ، كضباط مدربين ، لا كجماعات في حاجة الى

---

(١) مقدمة الرئيس جمال عبد الناصر للكتاب ، صفحة ١١ .
(٢) اسرار الثورة المصرية ، صفحة ١٧٤ .

التدريب .. وهم يشعرون بمرارة وأسى يملآن قلوبهم عندمـا يجدون الجزاء الوحيد لهم على هذا الاقبال والرضى ، هو ان يعلمهم مدني ، كيف يستعملون السلاح !

فوق ذلك،فلم تكن خطة الاخوان واضحة لهم..ولم يكن احد يصارحهم بشيء .. وكانوا يتساءلون : « متى نعمل ؟ وما هو نوع العمل الذي نعدّ انفسنا ونعدّ شباب الاخوان له ؟ » فلا يجابون على سؤال .

وكانوا يسألون : « فما هو المطلوب منا ؟ » .

فيقال لهم : « ان تثقوا في قيادة الدعوة ، وأن تعملوا ما يُطلب منكم في حينه فحسب » .

ولم تكن هذه الفترة قصيرة ، فقد امتدت أكثر من عامين ، وحدثت في خلالها احداث ظن هؤلاء الضباط ان كل حدث منها سيكون الناقوس الذي تصدر على أثره اوامر العمل المطلوب .

ولكن هذه الاعمال مرّت بكل رنين النواقيس ، والاخوان في جمود ، والضباط المنضمون في حيرة من أمرهم لا يعرفون ما يصنعون » .

ولئن قيل إن هذا الكلام عن « الإخوان المسلمين » هو كلام ضابط في الجيش ، لا كلام مؤرخ متجرد ، فذلك صحيح ، وهـو ، فوق كل شيء ، كلام رجل خبر الاخوان ، وكان أول الضباط المتصلين برائدهم المرحوم حسن البنا ، فجمع الى خبرته برفاقه الضباط خبرته بشباب الإخوان .

وعلى ضوء هـذا الواقع الجامد ، كان لا بدّ للضباط ، أو لبعضهم على الأقل، من ان يتحركوا، ويستشيروا أصحاب الرأي المخلصين، لمعرفة ما يمكن اجراؤه ، حتى تنتهي الأوضاع السيئة التي طالما تسيطر على البلاد ، في أقرب فرصة سانحة . وكان أول من اتصلوا بـه الفريق عزيز المصري الذي قال

للضباط ، بوحي من روحه الاستقلالية ، واعتماده على القوة الشخصية والفكرية في الرجال :

« كونوا اخواناً إذا شئتم ، ولكن لا تقفوا عند هذا الحد . اقرأوا .. اقرأوا كل كتاب .. اقرأوا في السياسة ومذاهبها ، والاقتصاد وفنونـــه ، والاجتماع وأبوابه .. اقرأ واوضيئوا في رؤوسكم هذا المصباح الذي وضعه الله فيها لكي يضاء ، لا لكي يهمل ويهال عليه التراب .

اقرأوا ، ثم اضربوا في الأرض ، واعرفـوا الناس ، وجربوا بأنفسكم كل شيء ، ولا تتقيدوا بدعوة ، ولا بزعيم ، ولا تربطوا انفسكم برأي ، قد ترون غيره غداً ، إذا ما استنارت بالعلم رؤوسكم » .

وهكذا كان ، فقد عرف الجيش فيما بعد ضباطاً جمعوا الى روحانية الدين والتقوى ، معرفة بالعلم وحقائقه المادية ، وبذلك تسنى لهم ان يلتقوا على صعيد واحد مع الضباط الأحرار ، وأن ينضموا ، من بعد ، الى تنظيمهم السري .

ولبثت طيلة الأعوام ١٩٤٤و١٩٤٥و١٩٤٦ تقوم محاولات فردية وجماعية ، وتصدر منشورات ، وتقـــع اغتيالات ، حتى انتهى الأمر بالقبض على انور السادات بعد أن اعترف حسين توفيق المتهم باغتيال أمين عثمان ، بجميع أفراد التنظيم الذي كان منضماً اليه ، ولبث انور السادات طيلة واحد وثلاثين شهراً في السجن ، حتى صدور حكم القضاء ببراءته .

ولعل جمال عبد الناصر يشير الى هذه المرحلة من حيـاة السادات حين يقول : « لقد استخدم انور السادات هذه السجايا في جميع ادوار حياته ، كما أحسن استخدامها في خدمة القضية الوطنية ، فنجده قـــد سجن في شهر تشرين الثاني (نوفبر) عام ١٩٤٢ بأمر العدو المستعمر ، ثم أعيد اعتقاله عام ١٩٤٤ لنشاطه الوطني ، ولكم تحمل من الوان الحرمان والتعذيب ، فـلم تهن عزيمته ، ولم تتزعزع عقيدته ، ولا ولم يفت ذلك في عضده ، بل ازداد

رسوخاً وايماناً ، ولا غرو ، فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم ، فكان له من سنوات سجنه الطويلة فرصة للتفكير ، والتفكير ملياً ، حتى رجع بتمعُّنه وتأملاته الى آلاف السنين الخوالي ، وطالع ما صدر خلالها من مطامع العالم التي شخصت وتجمعت حول هذا البلد الطاهر ، فظل الشعب المصري الأبي الكريم رازحاً تحت نير الاستعباد ردحاً طويلاً من الزمان ، متخلفاً بذلك عن تقدم سائر البلدان . فما كاد يفر من معتقله حتى صار رمزاً حياً للمطالبة بالحرية ، ومعبراً صادقاً للشعور الجامح الذي سرى في شعب وادي النيل أجمع ، من البحر الأبيض المتوسط ، حتى أعالي خط الاستواء ، مطالباً بالتحرر من الظلم والاستعباد والطغيان .

ها هو ذا يكافح بهمة لا تعرف الكلل في سبيل المثل العليا ، في الوقت الذي نرى فيه الجموع العالمية تطالب أيضاً بتحقيق العدالة الاجتماعية ، ولا جدوى في انكار مطالبها »[١] .

●

وأياً كان الأمر ، فقد عرف جمال عبد الناصر ، ازاء جميع الاحداث التي مرّت بالبلاد أن يحافظ على استقلالية التنظيم ، وأن يعمل على تطويره من مجرد صداقة قائمة بين ضباط تجمعهم النقمة على الأوضاع الفاسدة ، الى تنظيم متكامل ، له أدواته وأهدافه الواضحة

وهكذا كان دستور « الضباط الأحرار »هو دستور الثقة والمحبةوالصداقة المتبادلة ، وكان هدفهم واضحاً : فهم يريدون تخلص البلاد من المستعمر البريطاني المحتل ، ومن الملك الفاسد الطاغية وعملائه المأجورين المتآمرين على مصالح الشعب المصري .

---

(١) مقدمة جمال عبد الناصر لكتاب أنور السادات « أسرار الثورة المصرية » صفحة ٨و٩.

وكان بين هؤلاء الضباط عدد ممن لا يزالون الى أيامنا هذه يحمون الثورة ، ويمنحونها الراحـــة والدم والعرق وجميع اسباب الكرامة والشرف . ومن الضباط الأحرار كان جمال عبدالناصر، وكان منهم طلعت خيري، وعبدالمجيد فؤاد ، وعثمان نوري ، وكمال الدين حسين ، وحسين حمودة ، وعبد المنعم عبد الرؤوف، وخالد محيي الدين ، فضلاً عمن عرفنا من قبل مثل عبد الحكيم عامر، وأنور السادات وصلاح سالم وغيرهم وغيرهم ممن لا تحضرني اسماؤهم الآن.

وبعد مشاورات طويلة ، انتهى الضباط الى ضرورة ايجاد الثقة بين الجيش والشعب ، وردم الهوة التي اختلقها اصحاب المصالح الفردية ، في مقاعد الحكم وصوروها من الضخامة بمكان كبير ، كأنما ابناء الجيش ليسوا أبناء الشعب العامل الكادح المعذّب. وكانت خطة الضباط تتطلب نفساً طويلاً من العاملين معهم ، وتتلخص خطتهم بما يلي :

١) خلق رأي عام قوي بين ضباط الجيش .

٢) اشعار الضباط ان عليهم مسؤولية كمواطنين ، لا تقل عن مسؤولية افراد الشعب العاديين .

٣) التدرج في بث الوعي السياسي بين الضباط حتى يصبح من الممكن إنقاذ البلاد ، او ان يكون الجيش على الأقل محايداً بين الشعب والسلطات الغاصبة الحاكمة بحيث لا يشترك في تسديد الضربات الى الشعب ، اذا تقدم احد لحمل تبعة الإنقاذ .

وبادىء ذي بدء ، قرر الضباط الاحرار أن يبتعدوا قدر الإمكان عن السرية في العمل ، لأن السرية قد توحي بالتآمر او الخيانة او التواطؤ على مصالح الوطن ، ولهذا وجدتهم يعتمدون الاسلوب العلني في الدعوة ، وفي تجميع الضباط ، ومناقشتهم ، ومحاولة ايجاد الحلول السلمية لما يعترض البلاد من مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية، ولم تكن تغيب عن بالهم، في الوقت

ذاته ، نصيحة الفريق عزيز المصري لهم ، يوم استشاروه ، فإذا بهم يقبلون على تفهم المشاكل الدولية المحيطة بهم ، وعلى تبيُّن ابعادها المختلفة ، واستجلاء الحلول المترتبة عليها .

ولا ريب في ان الاسلوب العلني استهوى الكثير من الضباط الشباب المتحمسين، حتى تكوّن منهم رأي عام صالح لتفجير النقمة ساعة يحين الأوان.

ولكن هذه النقمة المتصاعدة لم يكن من الممكن ان تُترك في حالة من الفوضى ، وإنما كان لا بدّ لها من توجيه ، حتى لا تنقلب الى عكس الاهداف التي ترمي اليها من ورائها ، ولئلا تقع فريسة الاستغلال من جانب السياسيين التقليديين الذين تمرسوا بأساليب وألاعيب الاستغلال السياسي، وضرب الفئات المتحررة بعضها ببعضها الآخر ، وتفجيرها من الداخل ، فتكون نقمتها وبالاً عليها .

وهكذا تمّ الاتفاق ، مجدداً ، على خطة اساسية ، لا يستطيع التنظيم بدونها ان يحقق نجاحاً مضموناً ؛ وكانت الخطة الجديدة تقضي بما يلي :

١) العمل على ألا يتأثر الضباط بالأحداث الجارية أيّ تأثر يدفعهم فرادى او جماعات الى القيام بأي عمل دون وعي اساسي ، ودون خطة حكيمة مرسومة .

٢) العمل على ان يحتفظ ضباط الجيش باستقلال تفكيرهم ، فلا يرتبطون كأفراد او كجماعات بأية هيئة او حزب خارج نطاق الجيش ، لأن الجيش عنصر خطير يجب ان يظل توجيهه في الايدي القادرة على تقدير خطره ، فلا يكون أداة في يد احد او جماعة من الناس .

ومع ان التقيد بهذين الأمرين كان من الصعب تحقيقه بصورة تامة ومطلقة فقد بقي التنظيم حريصاً على اتباع خطوطه الرئيسية ، مهما تقلبت الظروف .

●

ولبث السخط في ازدياد عظيم،حتى انتشرت أصداؤه بين جماعات كثيرة، وأدرك الضباط ، كما أدرك القصر ، بملكه ، وأعوان ملكه ، وقوّاد ملكه، ان أمراً خطيراً سوف يحدث في وقت ليس ببعيد .

وللفاسدين المفسدين منطقهم في معاملة الأحرار الشرفاء ؛ فهم يعتقدون ان النقمة قد تكون صادرة عن شعور بالغبن ، او رغبة في مشاركة المنتفعين بثروات الشعب،ولذلك ظنوا انهم اذا ملأوا جيوب ضباط الجيش، وأصدروا الأوامر بالترقيات الاستثنائية ، استطاعوا الى ترضيتهم وكسب مودتهم سبيلاً .

ولكن أنـّى لأصحاب القضية الوطنية ان يتوانوا امام الاغراءات ، أياً كانت بهارج الاغراءات ، او ان يتهاووا امـام الوعود ، أياً كان بريق الوعود .

وبدلاً من ان يضعف الضباط امام منطق القصر ، والمنتفعين بفتات موائد القصر ، عمدوا الى استراتيجية جديدة في العمل الثوري ، فانتقلوا مجدداً من العمل العلني الى العمل السري ، وتمّ اختيار اعضاء الجهـاز السري لتنظيم الضباط الأحرار ، دون اتباع اجراءات حلف اليمين ، المعروفة في الجمعيات السرية ، بـل تم ذلك بدقة وحذر ، استناداً الى عوامل الاخلاص الوطني ، والثقة النابعة من صداقة واعية متكاملة .

وأول خطوات هذا الجهاز السري أعلنت عن طريق البدء بجمع الاشتراكات، لغرضين أوليين ملحين : احدهما طبع منشورات باسم « الضباط الاحرار » ، وثانيهما إعانـة أسر الضباط الذين يكون من المتوقع وقوعهم بين براثن الطغاة والجلادين من المتحكمين بمصير الشعب .

واستقرّ الرأي ، في التنظيم ، على تحديـد اعداء الوطن ، فكان الأعداء ثلاثة :

١ – الاستعمار

٢ – الملك

٣ – جميع الأحزاب السياسية .

وفيما كانت هذه التنظيمات قائمة على قدم وساق ، حدثت أحداث جديدة، وتوقف اضطراد العمل الثوري ، بصورة مؤقتة ، فقد أعلن اليهود في فلسطين العربية ، قيـام دولة « اسرائيل » الغاصبة ، وكان لا بد للمعركة ان تتجه وجهة اخرى ، في طريقها الى فلسطين المغتصبة .

فلسطين : العار والمأساة !

لسنا ، هنا ، في معرض كتابة تاريخ فلسطين ، أو في مجال عرض القضية الفلسطينية ، بجميع ظروفها وملابساتها . ولكن تاريخ جمال عبد الناصر النضالي الذي بدأ بصورة عملية حاسمة على ارض فلسطين ، وانتهى في ساحة المعركة السياسية لأجل قضية فلسطين ، وحماية العمل الفدائي من أي طعنة يمكن أن توجه اليه من الخلف ، لا يسيغ لنا الحديث المباشر عن خوض الرجل للمعركة ، في أرض فلسطين ، قبل الكلام الوجيز على هذه القضية التي لم يعرف التاريخ قضية في مثل وضوحها وغموضها في آن معاً .

وإذا كانت القضية الفلسطينية نشأت عن ظروف قديمة ، في التاريخ ، مرجعها الى ايديولوجية خرافية أسطورية تجعل اليهود يعتبرون أنفسهم «شعب الله المختار» المفضل على جميع شعوب الأرض ، والوطن الفلسطيني بالنسبة اليهم « أرض الميعاد » ، بعدما تشتتوا في ارجاء الأرض وتفرقوا في المشارق والمغارب ، فإن تبلور القضية الفلسطينية ، في إطار الواقع ، يعود الى تاريخ ليس ببعيد ، في عمر الأمة ، وذلك عندما نشأت الحركة الصهيونية العالمية التي وضعت نفسها في خدمة الاستعمار ، بشتى ألوانه ، ما دام هذا الاستعمار يقدم لها خدمة متبادلة ، بوضعها تحت حمايته ، والدفاع عنها ، ومساندتها ضد الشعب العربي ، صاحب الحق الثابت في أرضه ومصيره .

والحركة الصهيونية ، كما هو معلوم ، هي حركة سياسية عنصرية تهدف الى اقامة دولة اسرائيلية دينية في فلسطين . وقد سميت الحركة بالصهيونية ، نسبة الى جبل صهيون في مدينة القدس ، حيث كان قد بني هيكل سليمان الذي اتخذه اليهود رمزاً لهم، وحاولوا طيلة مدة احتلالهم للأرض الفلسطينية البحث عنه ، وإعادة بنائه ، بعدما اعتبروا ان « حائط المبكى » في القدس القديمة ، وبه « بوابة مندلبوم » ، هو الأثر الباقي من الهيكل المتهدم .

ان حكاية «اليهودي التائه» تفسّر لك حقيقة الوضع الشاذ الذي كان عليه اليهود في جميع أرجاء العالم ، منذ ان تشتت شملهم في اواخر القرن الاول وأوائل القرن الثاني للميلاد ، إثر ثورتهم على الحكم الروماني . فاعتقادهم الذي أشرنا اليه بأنهم شعب الله المختار ، وأن فلسطين هي ارض الميعاد ، ذلك الاعتقاد الذي لا يستند الى التاريخ ولا الى المنطق ، جعلهم يعيشون ، في كل بلد حلّوا فيه ، في أحياء خاصة بهم ، منعزلين عن سائر المواطنين ، متّبعين تقاليد وعادات يختصون بها ، فضلاً عما اتصفوا به من الصفات الدنيئة الهادفة الى السيطرة بأي ثمن على سلطة المال،وبالتالي على النفوذ السياسي، ما أمكنهم الى ذلك سبيلاً . ولا عجب ، والحال هذه ، ان يُلاقي اليهود النقمة من كل شعب حلوا لديه، حتى بلغ الاضطهاد لهم ذروته في ألمانيا ، اثر دعوة الفوهرر هتلر العرقية الآرية التي اتهمت اليهود بأنهم يفسدون صفاء ونقاوة العنصر الآري ، لأنهم « ساميون » دخلاء ، فكان ما كان من امر المجازر المؤسفة التي كان العرب اول مستنكرين لها ، لأنها لم تكن تتسق مع الروح الانسانية في شيء على الاطلاق .

ازاء هذه النكبة العظمى التي مني بها اليهود في ألمانيا ، والنقمة العارمة التي يلاقونها من مختلف شعوب الدنيا بسبب عقليتهم المتحجرة ، ونفسيتهم الدنيئة ، وجشعهم واستثمارهم وطمعهم وسيطرتهم التي لا تعرف حدوداً ، اتحد اليهود ، بل شعروا بواجب الاتحاد ، لصدّ النكبة المشتركة التي لاقوها ، او التي يُنتظر ان يلاقوا مثلها ، بعد ، فنشطت دعوة بعض كتّابهم

وصحفييهم ، وفي طليعتهم الصحفي الهنغاري تيودور هرتسل (١٨٦٠ — ١٩٠٤) الذي يعتبر لولب الحركة الصهيونية ، والذي حسِبَ نفسه، وهو في اواخر حياته مقيم في مدينة باريس ، بأنه من الأنبياء الاسرائيليين الموعودين، فوضع كتاباً في عام ١٨٩٦ أسماه « الدولة الصهيونية » [١] ضمّنه فكرته التي تتلخص في ان يصفي اليهود جميع أملاكهم ومنشآتهم في سائر أنحاء الدنيا ، وأن يتلاقوا في دولة ينظمونها على أحدث صورة ؛ وهذا العمل يجب التمهيد له بمؤتمر يهودي هدفه درس هذا المشروع .

لم يحدد هرتسل ، في بداية الامر ، مكان قيام الدولة اليهودية ، لا بل لم يكن يصر على ان تكون فلسطين بالذات ارض هذه الدولة المقترحة ، غير ان المؤتمر الصهيوني العالمي الاول المنعقد في سويسرا عام ١٨٩٧ ، قرّر ان تكون فلسطين مقراً للدولة اليهودية ، نظراً لعوامل استراتيجية هامة تجعل من فلسطين مركزاً أكثر ملاءمة لبسط السيطرة الصهيونية .

ورغم الاتصالات التي أجراها هرتسل مع البابا ، وملك ايطاليا ، وامبراطور ألمانيا ، والسلطان عبد الحميد الثاني العثماني ، فانه لم يستطع ان يقنع احداً منهم « بعدالة » القضية الصهيونية .

ثم مات هرتسل ، فخلفه اليهودي الانجليزي حاييم ويزمن الذي اصبح فيما بعد اول رئيس جمهورية لدولة اسرائيل. وقد تمكن ويزمن من استغلال نشوب الحرب العالمية الاولى ، ووفق الى اقناع الحكومة البريطانية ، عن طريق ارثور بلفور، وزير خارجية بريطانيا اليهودي الاصل، بتبني الفكرة الصهيونية وهكذا اصدر بلفور وعده المؤرخ في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ ،

---

(١) لا بد من الاشارة الى انه قبل دعوة هرتسل هذه ، صدرت دعوة مبطنة الى الصهيونية تدعو الى ضرورة إعادة تنظيم الامم على أساس تراثها الروحي، وذلك في كتاب وضعه اليهودي الالماني موشي هيس عام ١٨٦٢ ، وعنوانه « روما واورشليم » . كما ان لاوون بنسكر، الكاتب البولوني ، دعا اليهود الى ان يحرروا انفسهم بأنفسهم في كتابه الذي نشره عام ١٨٨٢ بعنوان « التحرر الذاتي » .

بصورة كتاب موجه الى الثري اليهودي الانجليزي اللورد ليونيل دي روتشيلد وفيه يعلن ان حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ، شرط ان تراعى الحقوق الدينية والمدنية للطوائف الأخرى في فلسطين .

وكان هذا الوعد بداية المؤامرة الاستعمارية الصهيونية الكبرى على العرب في فلسطين ، خصوصاً وان مثل هذا الوعد مخالف لأبسط مبادىء القانون الدولي العام الذي لا يجعل في إمكان احد ان يعطي الآخر ما لا يملكه ، فكيف اذا كان الواهب دولة ، وإذا كان الموهوب دولة، والموهوب له شرذمة من الأفاقين المملمين من هنا وهنا. ولكن الصهيونيين اعتبروا وعد بلفور وثيقة رسمية يثبتون بها اقدامهم في السيطرة غير المشروعة على الوطن الفلسطيني ، حتى انهم استطاعوا حمل بريطانيا على إدخال وعد بلفور في صك انتدابها على فلسطين ، في مؤتمر سان ريمو الذي انعقد عام ١٩٢٠ ، فوافقت عليه عصبة الامم في ١٦ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٢ ، عندما اقرّت الانتداب البريطاني على فلسطين .

وإنه ليطول بنا الحديث عن الهجرات اليهودية المتوالية الى فلسطين منذ عام ١٨٨٢ ، بتواطؤ مفضوح مع الدولة المنتدبة ، وعن شراء اليهود بالضغط او الإكراه او الاغراء للأراضي الستراتيجية الهامة في فلسطين ، وعن قيام الفلسطينيين العرب بالاحتجاجات والإضرابات والمظاهرات ضد عملية الهجرة اليهودية الى فلسطين ، ثم بالثورات المتلاحقة في الاعوام ١٩٢٨ و١٩٢٩ و١٩٣٣ و١٩٣٦ .

ولكن الجدير بالذكر هو ان نشوب الحرب العالمية الثانية ، جعل اليهود من جديد يخافون القوى الهتلرية النازية، وهي عدوة اليهود ، وصاحبة المجازر التي أوقعت بقسم منهم ، فإذا بهم يتمادون في التعاون مع بريطانيا وحلفائها ؛ وفي مثل هذا التعاون تدعيم لموقفهم إذ امكنهم انشاء وحدات عسكرية كبيرة

وصناعات عسكرية ضخمة ، وأقاموا مستودعات كبيرة للذخيرة ، تمهيداً لاقتراف جريمتهم التي طالما اعدوا لها في السر والعلن .

وبذلك تمكنت منظمة الهاغانا الارهابية –أي جيش الدفاع– من تدريب ستين الف شاب لحماية المؤسسات الصهيونية، من جهة، وللقيام بأعمال التخريب والعنف، في جميع أرجاء البلاد ، فنسفت فندق الملك داود في القدس ١٩٤٦ حيث كانت امانة سر المفوض السامي البريطاني وهيئة اركان الجيش البريطاني وقتلت وشرّدت الآلاف من الأبرياء ، في سلسلة دموية رهيبة ترمي الى إبعاد السكان وتهجيرهم ودب الذعر في نفوسهم .

ازاء هـذه الاحداث ، لم يكن في إمكان الدول العربية ان تترك الشعب الفلسطيني المغلوب على امره ، وحيداً في معركة غـير متكافئة ، فوقعت في ٢٢ آذار (مارس) سنة ١٩٤٥ ميثاق جامعة الدول العربية، وله ملحق خاص بفلسطين ، يؤكد عروبتها ، وسيادة شعبها .

وحاولت بريطانيا إشراك اميركا في الموضوع ، كأنها تريد ان تضيف الى التواطؤ تواطؤاً آخر، او كأن العرب من الطفولة السياسية بحيث تنطلي عليهم لجان التحقيق المتآمرة المتواطئة المبتعدة عن قواعد الحيـاد الذي لا مبرر له بدونها ، تلك اللجان التي أوصت اكثر من مرة بتوصيات متحيزة لليهود ضد العرب ، حتى اذا احيلت القضية في نهاية الأمر ، وبعد اشتداد الضغط العربي على الدول المتحالفة مع الصهيونية الى هيئة الامم المتحدة ، تألفت لجنة تحقيق دولية اوصت بوضع حـد للانتداب البريطاني ، وتقسيم فلسطين الى منطقتين تقوم في احداهما دولة عربية ، وفي ثانيتهما دولة يهودية ، أمـا منطقة القدس فتخضع لنظام دولي خاص . واقترنت هذه التوصيات بموافقة الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي ، ووافقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني (نوفمـبر) سنة ١٩٤٧ ، وبأكثرية ثلثي الاعضاء ، على تقسيم فلسطين .

رفض العرب قرار التقسيم الذي هللت له الصهيونية ، وفي خضم السخط العربي والهوس الصهيوني ، تمادت بريطانيا في التواطؤ مع القوى الصهيونية المجرمة ، وأعلنت انها ستنهي انتدابها على فلسطين في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨، حتى يكون كل من الفريقين وجهاً لوجه امام مسؤولياته .

وحتى ذلك التاريخ ، اقترف الاسرائيليون من الجرائم والمجازر الوحشية التي يندى لها جبين البشرية ، ويكاد يختلج قلب الصخر لفظاعتها ، ما لا يُعد ولا يحصى في دير ياسين ، والقسطل ، وقبية ، وحيفا .. حتى اضطر الكثير من عرب فلسطين الى النجاة بأنفسهم وبأطفالهم ونسائهم ، واللجوء الى البلدان العربية المجاورة ، على أمل العودة القريبة ، بعد أن تتدخل الدول الكبرى ، وتهدأ الاحوال .

ولكن انتهاء الانتداب البريطاني في ١٥ ايار (مايو) سنة ١٩٤٨ ، كان حلقة جديدة في سلسلة التواطؤ البريطاني — الصهيوني ، فانسحب الجيش البريطاني تحت جنح الظلام تاركاً المرافق الهامة في البلاد بين أيدي الصهاينة الذين أعلنوا ، على لسان دافيد بن غوريون ، رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية انشاء دولة يهودية في فلسطين باسم « اسرائيل » ، عاصمتها تل أبيب .

وهب يهود العالم الى مساندة الدولة المعلنة فوق الارض المغتصبة ، كما ان الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي اعترفا فوراً بالدولة الغاصبة ، وكذلك فعلت الدول الدائرة في فلك كل من الدولتين الكبيرتين .

هنا ، أدرك العرب انه لا بد من ان تدخل جيوشهم النظامية الحرب التي كانت نتيجتها تواطؤاً دولياً جديداً قضى بقيام الهدنة بين العرب واسرائيل ، وان كان لم ينجح في كسب اعتراف اي من الدول العربية بهذه الدولة الغاصبة .

وبين العرب المتدخلين في الحرب ، كان المصريون ، متطوعين وجنوداً ، وان لكل من المتطوعين والجنود قصة تُدمي القلب ، خصوصاً وأنها حدثت في ظل الحكم الملكي المتآمر ، هو الآخر ، على الشعب المصري .

يقول جمال عبد الناصر في «فلسفة الثورة» : وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسي ان طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل الى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية ، أخرج مع زملائي في اضراب عام في الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من كل سنة ، احتجاجاً على وعد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود ، ومنحتهم به وطناً قومياً في فلسطين ، اغتصبته ظلماً من أصحابه الشرعيين .

وحين كنت أسائل نفسي ، في ذلك الوقت : « لماذا أخرج في حماسة ؟ ولماذا أغضب لهذه الارض التي لم أرَها ؟ » لم أكن أجد في نفسي سوى اصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع ، عندما أصبحت طالباً في الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها ، في القرن الاخير ، فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة !

ثم بدأ الفهم يتضح ، وتتكشف الأعمدة التي تتركز عليها حقائقه ، لما بدأت أدرس ، وأنا طالب في كلية اركان الحرب ، حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل .

ولما بدأت ازمة فلسطين ، كنت مقتنعاً في أعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالاً في ارض غريبة ، وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة ، وإنما هو واجب يحتّمه الدفاع عن النفس .

وأذكر يوماً ، عقب صدور قرار تقسيم فلسطين في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٤٧ [١] ، عقد فيه الضباط الاحرار اجتماعاً ، واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين . وذهبت ، في اليوم التالي ، أطرق باب بيت الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين [٢] ، وكان لا يزال يعيش في « الزيتون » ، وأقول له :

« إنكم في حاجة الى ضباط يقودون المعارك ، ويدربون المتطوعين ؛ وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم تحت امرك في أي وقت تشاء » !

وقال لي الحاج امين الحسيني إنه سعيد بهذه الروح . ولكنه يرى ان يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئاً .

ثم قال لي الحاج أمين : « سوف اعطيك ردي بعد استئذان الحكومة » .

وعدت اليه ، بعد أيام؛ وكان ردّه، الرد الذي حصل عليه من الحكومة، هو الرفض !

ولم نسكت !

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبي القدس .

قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار التي تحولت الى مجلس قيادة الثورة » .

---

(١) اقترن هذا القرار بموافقة الجمعية العمومية للأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٧ .

(٢) رئيس الهيئة العربية العليا ، وهو يعيش اليوم في الحازمية ، احدى ضواحي مدينة بيروت .

وكلام جمال هذا يغني عن كل حديث آخر عن الاندفاع العظيم الذي جاش في صدور المصريين ، شعباً وجيشاً ، حيث قام المتطوعون المصريون الذين تدربوا على اعمال المقاومة على يـــد بعض الضباط المصريين الأحرار ، بأخذ مراكزهم في ميادين المقاومة معلنين استعدادهم لبذل الدماء ابقاء على عروبـة فلسطين ، وان التاريخ ليذكر لهم ضروباً من البطولة التي تسجل بمـــداد من نور ، مما يضيق المجال بسرد تفاصيله في هذا المقام .

وإذا كان الاجتهاد او التحليل ، ههُنا ، من شأنه أن ينقص او يشوّه بعض الخطوط في الصورة العامة التي كانت عليها احداث تلك المرحلة التاريخية من حياة فلسطين والأمة العربية ، فإن حديث الرئيس انور السادات ، الذي كان في صميم المعركة السياسية والعسكرية من أجل فلسطين ، يوضح الحقائق بتفاصيلها ، حيث يقول عن جهة القتال في فلسطين ، والمخازي التي ارتكبتها السلطة الحاكمـــة في مصر ، يومذاك [1] : « ... فقد أقبل عام ١٩٤٨ ، وأقبلت معه أحداث فلسطين ، او بصورة عامة ، « حرب فلسطين » .

والقراء يذكرون كيف التهبت المشاعر عقب الاعتداءات اليهودية المتتابعة على عرب فلسطين العزل من السلاح .. وكيف قرر الشباب العربي، في مختلف البلاد ، خوض الحرب المقدسة ، دفاعاً عن العروبة في أعز ديارها ..

وفي الأيام الأولى لهذه الأحداث ، لم يكن قد تقرر ان يخوض الجيش هذه المعركة .. ولكن الحكومة كانت في موقف لا تستطيع معه منع الجماعات الثائرة من الشباب ، من خوض هذه الحرب كمتطوعين .

---

(١) أسرار الثورة المصرية — صفحة ١٩٥ وما بعدها .

وكانت المجموعة [1] ترى من واجبهـــا تدريب الشبان الذين يتطوعون للقتال ، والتطوع معهم لقيادتهم خلال المعركة ..

●

وبدأت في تلك الفترة صلات جديـــدة مع جماعة الاخوان .. صلات بين ضباط المجموعة ، وبين قيادة الجماعة ..

فقد عقدت اجتماعات في بيت المرحوم حسن البنا،ضمت جمال عبدالناصر ، وكان إذ ذاك في كلية اركان الحرب ، وكمال الدين حسين ضابط المدفعيـــة ، وبعض الضباط المنتمين للإخوان .

وفي نفس الوقت نشأت صلات بين المجموعـــة وبين الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين ، وبين المجموعة وبين الجامعة العربية .

وكان هدف المجموعة منهذه الصلات جميعاً،هو تكوين تنظيمات وتشكيلات مسلحة ، وتدريبها واعدادها إعداداً كاملاً بكل ما تحتاج اليه من خبرة ومن سلاح ، قبل التطوع لخوض غمار المعركة المقدسة .

وكان الإخوان يقولون إنهم مستعـــدون الى أقصى الحدود ، وأنهم لا ينقصهم شيء سوى السماح لهم بالسفر الى ميـــدان المعركة . وكان المفتي ، والجامعة العربية الى جانبه ، يكوّنان تشكيلات من المتطوعين ، وقد أعلنت الجامعة انها على استعداد لتسليحهم والإنفاق عليهم .

●

وبقي دور الضباط .. فقد كان الضباط لا يستطيعون الاشتراك في الحرب إلا اذا أُعلنت الحرب من الدولة إعلاناً رسمياً ، واشترك الجيش فيهـــا ،

---

(١) أي بمجموعة الضباط الاحرار التي ألمع اليها الرئيس عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » والتي باسمها قابل مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني .

ولم يكن قد تقرّر ، بعد ، إعلان الحرب . ولذلك فكّر الضباط في الخروج من الجيش ، والاشتراك في الحرب كمتطوعين .

وبدأت الطلبات تنهال على قيادة الجيش من ضباط المجموعة ، ومن عدد كبير من الضباط الآخرين .. وكانوا يكتبون في طلباتهم ، إنهم مستعدون لتقديم استقالاتهم او طلبات الإحالة الى الاستيداع ، على ان تتركهم الحكومة يذهبون الى الميدان بأسلحتهم .

وكانت الحكومة مترددة في ذلك أشد التردد ، مما اوجد الضباط في حالة من الغضب ، وزاد من حدة السخط في قلوبهم ..

ولكن ضغط الحوادث كان قاسياً وخطيراً . وشعرت الحكومة بأنها لا بد ان تعمل عملاً .. واقتربت اللحظات الحاسمة، مع ازدياد فظائع اليهود، يوماً بعد يوم .

وفكرت الحكومة في ان ترسل جماعة من ضباط سلاح المهندسين الى فلسطين ، ليقوموا ببعض الاعمال الاستكشافية ، ووجدت ان خير وسيلة لذلك ، هي ان تقبل ما كان الضباط يطالبون به من إباحة إحالتهم الى الاستيداع ، او قبول استقالتهم ، وتركهم للذهاب الى الميدان بأسلحتهم ، كمتطوعين .

وفوجىء الضباط باشارات تأتيهم لمقابلة الفريق عثمان المهدي (باشا) رئيس هيئة اركان حرب الجيش في ذلك الوقت . ولبّى الضباط الاشارة ، وفي مكتب رئيس اركان الحرب ، وجدوا الفقيد احمد عبد العزيز .. وأخبرهم الفريق عثمان المهدي ان طلباتهم قد قُبلت ، وأنهم يستطيعون إعداد أنفسهم للتطوع للقتال .

●

كانت الجامعة العربية ، اذ ذاك ، قـد بدأت تنظم تشكيلاتها بالاشتراك مع مفتي فلسطين ، وكان قـد تقرر تقسيم فلسطين الى اربعة قطاعات بأربع قيادات ميدان ، على ان تخضع القيادات الاربع للجنة العسكرية الـتي جعل مقرّها دمشق ، ومثّل مصر فيها اللواء صالح حرب .

وكان القطاع المصري ، في فلسطين ، هو قطاع الجنوب ، وقـد عينت الجامعة لقيادته اللواء سليمان عبد الواحد سبل.. وكانت المجموعة تعرف اللواء سبل من قبل .. فقد كان الفريق ابراهيم عطاالله قد اخرجه من الجيش، فأقام الضباط له حفلة تكريم في نادي الضباط ، لا لتكريمـه فعلاً ، ولكن تحدياً لابراهيم عطاالله .

وكان مع اللواء سبل ، ضابط مخابرات هو اليوزباشي مصطفى كمال صدقي، وقد سافر سبل الى فلسطين مع متطوعي الجامعة العربية والمفتي ، ولكنه لم يمكث هناك طويلاً ، فقد دبّ النفور بينه وبين ضابط مخابراته ؛ ثم عاد هو، ولم يرجع مرة اخرى الى الميدان .

●

وكان الضباط المتطوعون ، في تلك الايام ، يعدّون انفسهم للسفر .. يعدّون انفسهم بالسلاح ، وتدريب الجنود الذين سيحاربون تحت إمرتهم. فلما عين المرحوم احمد عبد العزيز قائـداً لقوات المتطوعين في فلسطين ، ذهبت المجموعة معه الى منزل اللواء سليمان عبدالواحد سبل لتحصل منه على معلومات عن الجبهة .

وكان مؤسفاً انها لم تستطع الحصول على أية معلومات ذات قيمة عسكرية.. ومضى الضباط يواصلون استعداداتهم .

وكان أقسى ما يواجههم هي عمليات الاستعداد .. فللأسف الشديد، كانت ظروف الإعداد قاسية موئسة لأي ضابط ، مثبطة للهمم ، قاتلة للأرواح !.

كانت الحكومة ، مثلاً ، تريد من الضباط والجنود ان يسافروا الى ميدان القتال غير مزوّدين إلا بالبنادق !

وكان الضباط يحاولون إقناع المسؤولين بأن البنادق وحدها لا تكفي ، وأن السفر بغير مدافع ، يعتبر انتحاراً ، او يعتبر مهزلة يدفع المتطوعون ثمنها من أرواحهم .. ولكن الحكومة لم تكن تتحرك لصرخاتهم .

وبدأت الايام تمر ، ومع مرورها بدأ اليأس يخيّم على النفوس ، حتى لقد عاد كثير من الضباط في قرار التطوع ، ورجعوا الى خدمة الجيش ، بعد ان كانوا قد قطعوا شوطاً في استعداداتهم .

وأي ضابط يسمح لنفسه ان يذهب الى القتال ومعه بندقيته ، وليس مع جنوده سوى البنادق .. والميدان ميدان حرب حديثة لم يكن احد يشك في انها حرب ضد عدوٍّ مجهّز بأحدث وسائل القتال .

وأخيراً ، وبعد جهود طائلة ، سمحت الحكومة للمتطوعين بأن يأخذوا معهم عدداً من المدافع.. وكان هذا انتصاراً عظيماً، فرح الضباط والجنود به!

●

وجاءت ليلة السفر .. وفي ليلة السفر وقعت بعض المفارقات والحوادث التي لا تنسى .

في ذلك اليوم ، يوم السفر ، اعتذر عبد المنعم عبد الرؤوف عن الذهاب الى الميدان ، وكان متطوعاً ، ولا يدري احد لماذا تردد ، فقد كان حتى ذلك اليوم شديد الحماس .

ولم يكد نبأ اعتذاره يعرف ، حتى تقدم اليوزباشي خالد فوزي ليحل محله في التشكيلات المسافرة .

وعندما ذاع نبأ اعتذار عبد المنعم عبد الرؤوف ، دبّ الذعر في نفس احد الضباط ، فاعتذر بدوره ايضاً ، وإذا بالمرحوم اليوزباشي انور الصيحي يتقدم لكي يحل محله، وكأنما كان يسعى الى قدره . فقد استشهد انور الصيحي في اول معركة ، عقب وصوله الى ارض فلسطين .

وفي مساء ذلك اليوم ، جمع احمد عبد العزيز جميع المتطوعين ، وخطب فيهم قبل السفر . وكل من حضر تلك الليلة، يذكر خطاب احمد عبد العزيز . ويذكر قوله بحماس لهؤلاء المتطوعين : « انكم لا تذهبون لقتال عدو فحسب، ولكنكم ذاهبون لتكتبوا التاريخ » !

وفرغ احمد عبد العزيز من خطابه .. وإذا بالجمع يرى المرحوم حسن البنا ومعه الشيخ فرغلي قادمين لوداع المسافرين ، وخطب حسن البنا ، وخطب الشيخ فرغلي ، واشتد الحماس وبلغ أوجه .

●

وفي الحقيقة كانت الروح عالية، وكان الحماس شديداً ، وكان الكل ذاهباً لكي يموت اقدس ميتة وأشرفها ، ولكن هذا لم يكن يعني امام الضابط العارف بأسرار القتال وفنون المعارك ، ان العمل من اوله الى آخره لن يؤدي الى نتيجة تذكر ، مهما حسنت الظنون .

فقد كان المتطوعون خليطاً من شباب الاخوان المسلمين ، ومن افراد الليبيين . وما تعرفه الجيوش النظامية جميعاً باسم « الضبط والربط » ، كان مفقوداً تماماً بين هذا الخليط الذي لم يتعود الحياة العسكرية ، ولا يستطيع ان يفهمها في ايام معدودة .

وكان الضباط حيارى بين الاخوان المسلمين بنظمهم الخاصة وتقاليدهم المعروفة ، وبين الليبيين الذين كان السيد عبد الرحمن عزام قد أتى بهم، وقال انهم خير المحاربين وأشدهم بأساً وأقواهم شكيمة .

ولكن روح الفداء التي كانت مسيطرة على الجميع ، كانت توحي بإمكان التغلب على جميع المصاعب والعقبات .

ورحلت قافلة المتطوعين ..

والذي افادته حركة الجيش من هذه الرحلة .. رحلة المتطوعين الى ارض القتال ، لا يمكن تقديره بحال من الاحوال .. فقد كانت هذه الرحلة وحدها كافية لكي تخلق في كل ضابط قدراً من السخط ، يكفي لكي يدفعه دفعاً الى الموت في سبيل تغيير الاوضاع القائمة في البلاد ، إذا حدث ان عاد من الحرب سليماً !!

●

بدأت المهازل بما رآه الضباط من قوات الاسلحة المختلفة ، بخصوص العهد التي كانت لديهم في اسلحتهم . فأسوأ الاسلحة اعطيت للمسافرين ، واسوأ العربات اعطيت لهم [1] ، وأكثر من ذلك ، قام كل صاحب عهدة بجرد عهدته جرداً خاصاً لكي يحصر الناقص منها ، ويكتبه في كشوف الاسلحة والمعدات المسافرة الى الميدان ..

وهكذا كنت تجد في الكشوف ما لا تجد في الحقيقة . بل كانت الكشوف تحوي أضعاف الاسلحة والمعدات الموجودة فعلاً في أيدي الجنود ، لأن أصحاب العِهد وجدوا في هذه المناسبة فرصة العمر لتغطية ما في ذمتهم من نقص شديد .

●

والذين كانوا يعطفون على المسافرين فعلاً ، ويساعدونهم فعلاً ، هم اخوانهم الضباط والجنود والعمال الذين التقوا بهم في الطريق : ففي العريش مثلاً ، قام

---

(١) ناهيك عن فضائح اخرى ، مما يعرف بقصة « الاسلحة الفاسدة » ، وما ارتكب يومذاك من خيانات .



عبد الناصر رجل السلام

رجال الصيانة بفحص العربات المسافرة ، والذعر والأسى والحزن مخيم عليهم جميعاً . فقد كانت كلها سيارات قديمة لا تصلح لشيء ؛ وقضى رجال الصيانة هناك ليلهم ونهارهم عاكفين على إصلاح السيارات وأعدادها لكي تستطيع ان تكمل الرحلة الى الميدان .

وكان الضباط يقولون لإخوانهم : « الله معنـــا . فالذهاب الى الحرب بسيارات كهذه ، نوع من الانتحار » .

ومع كل هذا ، فقد كانت الروح أقوى ، والحماسة أشد من ان يجرفهـــا اليأس . وسافر المتطوعون ، وقد لزموا في طريقهم فلنكات السكة الحديد ، حتى وصلوا الى رفح ، ثم الى خان يونس .

وفي خان يونس فوجيء الضباط ، في اليوم التالي ، بحضور « عبد المنعم رؤوف » [1] الذي اشتهر بحماسه ، فأبت عليــه وطنيته التخلف عن المعركة المقدسة على ارض فلسطين .

●

قلنا ، من قبل ، ان الاشتراك المصري في حرب فلسطين ، كان من جانب المتطوعين والجيش النظامي . واذا كان هذا الذي رأينـا هو شأن المتطوعين الذين انتظم في صفوفهم عــدد من ضباط القوات المسلحة المصرية ، بأسلحة فاسدة وآليات عتيقة تصلح لكل شيء إلا لمواجهة عدو شرس مسلح بأحدث الاسلحة ، ومجهز بالوسائل التقنية الممتازة ، بحيث أدّت النتيجة الى استشهاد العدد الكبير من المتطوعين لأسباب متفاوتة ، ليس أقلّهـا سبب الاسلحة الفاسدة التي زوّدتهم بها السلطات الحاكمة ، يومذاك ، في مصر ، فما كان شأن الجيش المصري النظامي الذي شارك في حرب فلسطين ، بعد ان اعلنت مصر رسمياً حربها على العصابات الصهيونية الغاصبة ؟

---

(١) اسرار الثورة المصرية ، صفحة ٢٠٢ .

إن هذا الجيش ، بضباطه وجنوده ، لم ينظر بعين الاعتبار للمناقشات التي حصلت يومذاك ، حول الصواب أو الخطأ في اعلان الحرب ، وحول الجدل البيزنطي الذي أثير حول الجهة التي اعلنت الحرب ، أهي حكومة النقراشي ام هو الملك فاروق ؟ ولكن الجيش المصري الباسل نظر الى أمر أهم من ذلـــك وأقــدس : إن واجب الدفاع عن عروبة فلسطين ، وعن قداسة فلسطين ، وعن حرية شعب فلسطين يستصرخ منه الضمير ، ويستجير بمروءته وأخوته ، وانه لا يستطيع إلا الاستجابة لنداء الواجب .

وهكذا ، كان أضخم سلاح في يد الجيش المصري هو سلاح الايمان بالحق الذي يهدر في فلسطين تحت أقدام الباطل والعدوان ، وسلاح الحماسة القومية التي لم تضع في حسبانها امرين لا غنى لمن يخوض الحرب عن معرفتها تمـــام المعرفة :

١) ما مدى استعداد الجيش المصري لخوض الحرب ؟

٢) ما مدى قوة العدو الاسرائيلي ، وما مدى استعدادته الحربية ؟

ان مثل هذه المعلومات لم تكن ، ولو بصورة تقريبية او شبه تقريبيـة متوفرة ، للذين خاضوا الحرب ضد الاسرائيليين ، فكانت الحقيقة الـــتي واجهتهم على أرض المعركة كفيلة بتثبيط الهمم ، وتحطيم المعنويات ، ودحر اقوى الجيوش وأرفعها تدريباً وتجهيزاً ، ناهيك عن خيانة الانجليز الذين وعدوا الحكومة المصرية بتسليح الجيش المصري ، ثم تنكبوا عن ذلك الوعد ، لأن مساعداتهم الحقيقية كانت موجهة الى اليهود الذين ما كانوا يحلمون بدولة اسرائيل لولا وعد بلفور ولولا مساعدات بريطانيا المنظورة وغير المنظورة ، والسرية والعلنية لهم .

المهم ان هذا الجيش المصري الباسل في جوهره ، القليل التنظيم في تلك الأيام ، الخاضع — وهو في ارض فلسطين — لأوامر تأتيه لا من القيادة المسؤولة في فلسطين ، بـــل من الحكام المتربعين على عروشهم في القاهرة ، ومن

المستعمرين المتسترين وراء تلك العروش ، ان هــذا الجيش عاد من المعركة بفكرة واحدة ، ورأي واحد ، وهــو ضرورة تغيير القيادة ، بل ضرورة تغيير السلطة الحاكمة برمتها ، لأنها كانت في طليعــة المسؤولين العرب عن هزيمة فلسطين .

هذه الفكرة كان لا بد لها ان تتجسد خصوصاً على ايدي جماعــة الضباط الاحرار الذين كان على رأسهم جمال عبد الناصر ، فاذا بهذه الجماعة تتخــذ لنفسها قاعدة سرية لبدء العمل ، وتغيير الاوضاع ، بحيث يكون لها في كل سلاح من اسلحة الجيش رجالهــا المخلصون المستعدون لتلبية نداء الواجب الوطني في ساعة الصفر .

●

وقبل المضي في هــذا الحديث ، لنترك الرئيس جمال عبد الناصر يكشف لنا عن سر تاريخي عظيم حول حركة عسكرية ضخمة كان الضباط الاحرار ينوون القيام بها في حرب فلسطين ، ولكنها لم تكتمل : [١]

« وأذكر سراً آخر كان ذات يوم أغلى اسرار الضباط الاحرار : كان حسن ابراهيم قد سافر الى دمشق،واتصل ببعض ضباط فوزي القاوقجي[٢]. وكان القاوقجي يقود قوات التحرير العربية ، ويستعد لمعركة حاسمة فاصلةفي المنطقة الشمالية من فلسطين .

ووضع حسن ابراهيم وعبــد اللطيف بغدادي خطة جريئة للقيام بعمل حاسم في المعركة التي تستعد لها قوات التحرير .

---

(١) فلسفة الثورة : صفحة ٦٤
(٢) هو مجاهد لبناني الأصل ، كان قائداً لجيش الانقاذ في حرب فلسطين ، وهو مقيم اليوم في حارة حريك ، احدى ضواحي مدينة بيروت .

وكانت الخطوط البارزة في تلك الخطة هي ان قوات التحرير العربية لا تملك طيراناً يساعدها في المعركة ، ويرجح النصر في كفتها ، ولو انها حصلت على معونة من الجو بضرب مركّز فوق ميدان العملية ، لكان ذلك عاملاً فاصلاً ، ولكن من اين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟

ولم يتردد حسن ابراهيم وعبد اللطيف البغدادي ، وإنما قرارا ان يقوم سلاح الطيران المصري بهذه المهمة . ولكن كيف ؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة — بما فيها سلاح الطيران — حذراً متيقظاً !

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها الى تفاصيل الخطة .

بدأت في مطار سلاح الطيران حركة عجيبة ، وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح بعض الطائرات واعدادها، وجهود واضحة في التدريب سرت كالحمّى في نفوس عدد من الطيارين .

ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر .. يعرفون ان الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجيء فيه من سوريا اشارة سرية ، فينطلقون بعدها الى الجو ليشتركوا بكل قوتهم في معركة حاسمة على الارض المقدسة ، ثم يتجهون بعد ذلك الى مطار قرب دمشق ، ينزلون فيه ويترقبون الاحوال في مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التي اقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها !

وكان ارجح الاحتمالات ان يحاكم كل طيار اشترك في هذه العملية ، وأذكر ان كثيرين كانوا قد رتبوا امورهم على ان الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة الى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد .

وكان شعورنا في اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار ، والمؤكد ان نفس

الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين في السر الكبير ، ان هـذه المخاطر الجريئة لم تكن حباً في المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعـاطفة في نفوسنا ، وإنما كانت وعياً ظاهراً لإيماننا بأن (رفح) ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا يقضي علينا ان ندافع عن حدود اخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر ان نعيش معهم في منطقة واحدة .

ولم تتم الخطة يومها ، لأننا لم نتلق الاشارة السرية من سوريا .

وقضت الظروف ، بعدهـا ، ان تدخل الجيوش العربية كلها الحرب في فلسطين » .

ثم يقول الرئيس عبـد الناصر ، في تحليل صادق ، واستنتاج منطقي : « ولست اريد ان ادخل في تفاصيل حرب فلسطين – الآن – فذلك بحث تتشعب فيه الاحاديث ، وإنمـا يعنيني من حرب فلسطين درس عجيب : لقد دخلتها شعوب العرب جميعاً بدرجة واحدة من الحماسة ، وإذن فهـذه الشعوب جميعاً تشارك في شعورها ، وفي تقديرها لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ، وإذن فهي جميعاً ، كل منها في بلادها ، قد تعرضت لنفس العوامل ، وحكـمتها نفس القوى التي ساقتها الى الهزيمة ، ونكست رأسها بالذل والعار .

لقـد خلوتُ الى نفسي مرات كثيرة في خنادق عراق المنشية [١] وفي جحورها ، وكنت يومها اركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت تقف في ذلك القطاع ، وتدافع عنه احياناً ، وتهاجم في اكثر الاحيان .

---

(١) اي منطقة الفالوجة التي دافعت عنها حاميتها دفاعاً مستميتاً ، رغم محاصرة العدو لها عدة اشهر ، والحامية بلا زاد ولا عتاد ، وقـد عرفت مصر بطولة الحامية ، ومن رجالها جمال عبد الناصر ، فاستقبلتهم لدى عودتهم الى بلادهم استقبال الابطال الفاتحين .

وكنت اخرج الى الأطلال المحطمة من حولي بفعل نيران العدو ، ثم أسبح بعيداً مع الخيال .

وأحياناً كانت الرحلة مع الخيال تمضي بي بعيداً الى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة كلها .

وكانت الصورة تبدو ، في ذلك الوقت ، واضحة امام بصيرتي .

هذا هو المكان الذي نقبع ، محاصرين فيه ، هذه مواقع كتيبتنا ، وهذه موقع الكتائب الاخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

وهذه قوات اخرى لنا .. هي ايضاً محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وإن بقي لها مجال للمناورة المحدودة .

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التي نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار ، وتلحق بها عجزاً اكثر من الذي تصنعه بنا ، نحن القابعين في منطقة الفالوجة .

ثم هــذه قوات اخواننا في السلاح ، وفي الوطن الكبير ، وفي المصلحة المشتركة ، وفي الدافع الذي جعلنا نهرول الى ارض فلسطين .

هــذه هي جيوش اخواننا .. جيشاً جيشاً .. كلها ايضاً محاصرة بفعل الظروف التي كانت تحيط بها ، والتي كانت تحيط بحكوماتها .. لقد كانت جميعاً تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها إلا بقدر ما تحركها ايدي اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعاً تبدو في مؤخرة الخطوط ، ضحية مؤامرة محبوكة ، اخفت عنها عمداً حقيقة ما يجري ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه .

وأحياناً كنت أهبط من ارتفاع النجوم الى سطح الارض ، فأحسّ انني



جمال يعانق والده عبد الناصر حسين

أدافع عن بيتي وعن اولادي ، ولا تعنيني احلامي الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ !

وكان ذلك عندما ألتقي في تجوالي ، فوق الاطلال المحطمة ببعض اطفال اللاجئين الذين سقطوا في براثن الحصار ، بعد ان خربت بيوتهم وضاع كل ما

يملكون ، واذكر بينهم طفلة صغيرة كانت في مثل عمر ابنتي ، وكنت أراها وقد خرجت الى الخطر والرصاص الطائش ، مندفعة امام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش او خرقة قماش .

وكنتُ دائماً أقول لنفسي : « قد يحدث هذا لابنتي » !

كنتُ مؤمناً بأن الذي يحدث في فلسطين كان يمكن ان يحدث، وما زال احتمال حدوثه قائماً ، لأي بلد في هـــذه المنطقة ، ما دام مستسلماً للعوامل والعناصر والقوى التي تحكمه الآن .

ولمـا انتهى الحصار ، وانتهت المعارك في فلسطين ، وعدت الى الوطن ، كانت المنطقة كلها في تصوري قــد اصبحت كلاً واحداً . وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك ، هذا الاعتقاد في نفسي .

●

ولنعد الآن ، الى ما كنا في سياق الحديث عنه ، أي الى الفكرة المشتركة التي خالجت جميع العـــائدين من ميدان الحرب في فلسطين ، وفي طليعتهم الضباط الاحرار والتي تقول بوجوب تبديل النظام القائم في مصر ، وايجــاد قيادة منيعة عزيزة قوية ، غير واقعة تحت سيطرة الاستعمار البريطاني المتستر بثوب الانتداب .

فعلى الرغم من السرية التي احاطت مجموعة الضباط الاحرار نفسها بهــا ، فقــد وصلت انباؤها وأنباء زعيمها جمال عبد الناصر الى اسماع المسؤولين يومذاك ، الذين اوجسوا خيفة ، فقرروا اعتقال جمال عبد الناصر ، ولكن ذلك القرار لم ينفذ لأسباب يشرحها انور السادات في «اسرار الثورة المصرية» إذ يقول : « وبينما كانت المجموعة تفكر في هذا الارتكاز ، فوجئت المجموعة بزيارة غير مرغوب فيها من الفريق عثمان المهدي (باشا) رئيس هيئة اركان حرب الجيش حينئذٍ ، لمنزل جمال عبد الناصر. ولم يكن الفريق عثمان المهدي وحده في هذه الزيارة ، فقد كان معه عدد من ضباط البوليس الحربي .

ولم يكن هدف الزيارة هدفاً عادياً ، وإنما كان الهدف هو القبض على جمال عبد الناصر ، وتفتيش بيته .

وقام رجال البوليس الحربي بالتفتيش ، فلم يجدوا في البيت سوى بضع طلقات.. فقد كان جمال عبد الناصر حريصاً دائماً . اما جمال ، فقد اصطحبه عثمان المهدي الى « دولة » ابراهيم عبدالهادي باشا رئيس مجلس الوزراءوالحاكم العسكري العام والمسؤول الأكبر في عهد الأرهاب .

وهناك ، في مكتب رئيس الوزراء والحاكم العسكري العام ، جرت مناقشة طويلة بين جمال وبين عبد الهادي . فقد وجه عبد الهادي لجمال تهمة التعاون مع الاخوان المسلمين ، مستدلاً على ذلك بأنه ، اي جمال ، قد قام بتدريب بعض شبان الاخوان على السلاح ، اثناء الحرب ، وقبيل قيامها .

أما جمال .. جمال الثائر الذي كان عائداً من الفالوجا .. فلم يكن لديه من الصبر ما يمكنه من عدم الاحتداد في المناقشة مع الحاكم العسكري العام .

ولعلها كانت مفيدة . فقد تريث ابراهيم عبد الهادي في إصدار الأمر باعتقاله ، وأرسل رسله يأتونه بأخبار جمال . ثم أفرج عنه فوراً ، لأنه ادرك ان لهذا الضابط شخصية معينة بين ضباط الجيش وأن له كياناً خاصاً في صفوفهم ، فخشي ان يعتقله ، فتكون القشة التي تقصم ظهره ، وظهر العهد من بعده » .

وهكذا انتهت مشكلة محاولة اعتقال جمال.. وسار التنظيم نحو أهدافه.. فتكونت قاعدته من جمال عبد الناصر ، وعبد الحكيم عامر ، وزكريا محي الدين وصلاح سالم . وأمكن لكل منهم ان يستقر تقريباً في القاهرة ، بحيث ان جمال عيّن في مدرسة الشؤون الادارية بالجيش ، وعين عبد الحكيم عامر في مدرسة المشاة ، وعين زكريا محي الدين في الكلية الحربية ، واستقر صلاح سالم في وحدته بالقاهرة ، وفي هذه الاثناء فرغ جمال عبد الناصر من

وضع اسس تنظيمه السري ، وأهدافه ، وطبع اول منشور ظهر عليه بصراحة اسم « الضباط الأحرار » ، وقد تضمن هذا المنشور الأول اهدافاً اساسية منها :

١) القضاء على الاستعمار الاجنبي وأعوانه من الخونة المصريين .

٢) تكوين جيش وطني قوي .

٣) ايجاد حكم نيابي سليم

وأما النظام الاساسي للتشكيل الثوري فقد كان على النحو الآتي :

١) السرية المطلقة في كل شيء .

٢) تخصيص كل ضابط من ضباط مجلس قيادة التشكيل لسلاح من اسلحة الجيش ، يكون هو المسؤول عن تنظيمات التشكيل فيه .

٣) الأخذ بنظام الخلايا،وجوب عقد اجتماعات الخلايا اسبوعياً وبانتظام.

٤) تكليف كل ضابط من ضباط مجلس القيادة بتقديم تقرير اسبوعي الى المجلس يوضح فيه مدى تقدم التشكيل في داخل سلاحه ، وعدد المنضمين ، وعدد من رُئي استبعاده .

٥) وجوب ضم اعضاء جدد في كل اسبوع .

٦) اصدار المنشورات بصفة منتظمة اسبوعياً .

●

هذا النظام الاساسي ، وهذه الأهداف الثورية الواضحة ، كانت المرتكز الرئيسي لانطلاقة ثورة ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٢ التي ستصبح فيما بعد ، الثورة الرائدة لحركات التحرر في البلاد العربية ، وفي البلدان النامية المطلعة الى الحرية والاستقلال والكرامة .

على ابواب الثورة !

اكتمل تنظيم «جماعة الضباط الاحرار» اذن، وتحددت أهدافه الاساسية، وأساليبه التي ينبغي له اتباعها لإدراك هذه الاهداف ، ولم يبقَ امام الضباط الاحرار إلا التحرك ، للقيام بالعمل الحاسم ، في الوقت المناسب .

وتوالت منشورات «الضباط الاحرار»، بصورة دورية منتظمة ، فأدركت السلطة الحاكمة في مصر ، يومذاك ، ان وراء هـذه المنشورات تنظيماً قوياً قادراً ، وأنها ليست من ذلك النوع من المنشورات التي تصدر ، في طفرة من الطفرات ، ثم لا تلبث ان تخبو ، ويضيع أثرها ، ولذلك فلم يهدأ للقصر بال، ولا هدأ للانجليز بال ، ولا هـدأ بال للضباط الاحرار انفسهم الذين بدأوا يتلمسون طلائع التجسس على حركتهم ، تمهيداً للايقاع بهم .

وحاولت السلطة ان تبعث الى بعض المشكوك بأمرهم من الضباط ، بجواسيس في اثواب اصدقاء ، فاتصل مصطفى كامل صدقي ، وكان صاحب مجموعة ثورية عسكرية ، بجمال عبد الناصر محاولاً اقناعه بأن تنضم مجموعته الى مجموعة جمال ، ففي الاتحاد القوة .

ولو قبل جمال، لتعرض التشكيل الثوري للخطر، ولكن جمال عبدالناصر الذي علـّمته تجاربه الكثير الكثير من الحذر والدقة، أفهم مصطفى صدقي بأنه

انصرف عن كل هـــذه « الحركات » ، و « النشاطات » ، وأنه صمم منذ رجوعه من الفـــالوجا ، على ان يهتم بشؤون نفسه ، و « يأكل العيش .. وبسّ » .

وهكذا اقتنع مصطفى صدقي بما قاله جمال .. لا بل ان التشكيل استفاد كثيراً من مصطفى صدقي الذي كان « فشاراً » على ما يبدو ، يحب التباهي ، ونسبة الاعمـال الـتي لم يقم بهـا الى نفسه ، وبذلك أمكن الحصول منه على معلومات مفيدة للغاية .

ولبث الضباط الاحرار يعملون على جبهتين: الاولى الاستمرار في تحركهم السياسي واستعدادهم العسكري؛ والثانية : ضمّ أكبر عدد ممكن من الضباط الى التشكيل على اساس خلايا خماسية . بمعنى ان لكل خلية مؤلفة من خمسة افراد رئيساً ، وأن كل فرد من افراد هـــذه الخلية الاولى يرأس خلية ثانية مؤلفـة بدورها من خمسة افراد لا يعرفون من افراد الخلية الاولى إلا شخص الرئيس فقط ؛ وهذا التشكيل المنتظم كان له اكبر الأثر في الحفاظ على سرية الحركة ، وفي انجاحها يوم الثورة .

وكان الضباط الاحرار يوجسون خيفة من القصر ومخابرات القصر ، ومن قيادة الجيش ومخابرات الجيش؛ ولذلك فقد قرّ رأيهم على ان يقوم صلاح سالم بكسب ثقة حيدر باشا قائد الجيش ، وينقل اليه معلومات خاطئة ، وكذلك يفعل انور السادات ، فيتصل بالقصر عن طريق الدكتور يوسف رشاد .

ولم يكن الضباط الاحرار يوفـّرون فرصة تساعد على صرف نظر القصر او قيادة الجيش عن حقيقة تشكيلهم إلا استغلوها ، كذلك راحوا يخططون لنسف بعض البواخر الانجليزية في قناة السويس ، وذلك في شهر كانون الاول سنة ١٩٥١ ، ليثبتوا للعالم كله ان بريطانيا لا تستطيـع حماية القناة اذا لم يكن المصريون راضين بالوجود الانـكليزي ؛ ولا يخفى على القارىء ان المعـارك والمناوشات بين الانجليز والمصريين كانت قد اصبحت على اشدها بسبب السيطرة

الانجليزية على قناة السويس ، ولكن الالغام التي جهزوها لمثل هذا العمل ، لم تستخدم، بسبب توالي بعض الأحداث والعقبات التي منعت الضباط الاحرار، في منطقة القنطرة ، من تفجيرها .

●

وحاول الضباط الاحرار ان يقدروا موعداً لتنفيذ حركتهم، فاتفقوا في مطلع عام ١٩٥٠ على اعتبار ان الحركة تحتاج الى ما يقل عن خمس سنوات، وهكذا فلا يمكن انجازها إلا عام ١٩٥٤ او عام ١٩٥٥ ، ولكن ما توالى على البلاد من ظروف سياسية ، بعد ذلك ، جعل الضباط الاحرار يقدرون أن الحركة يجب ان تنفذ في موعد بين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٥٣ .

وكان الضباط الاحرار يعتقدون في بادىء الأمر، أنه مهما كانت الظروف، فيجب ان يكون دورهم دوراً تحريرياً وحسب ، وأن يتم التعاون بينهم وبين حزب الوفد الذي كان يمثل في ذلك الوقت الغالبية الساحقة ، ولكن فأل الضباط الاحرار خاب ، عندما شاهدوا تلك المهادنة المزرية تقوم بين القصر وحزب الوفد في عام ١٩٥٠ ، فزادت نقمة الجيش ، وأضيفت اليها نقمة الشعب .

ولكن ، في مطلع عام ١٩٥١ ، وفيما كانت غالبية الضباط الاحرار في القاهرة ، صدرت الاوامر بنقل صلاح سالم وعبد الحكيم عامر وأنور السادات الى سيناء ، ونقل جمال سالم الى العريش ، وأبقي الآخرون في القاهرة .

ورداً على هذا التشتيت الذي حصل لبعض ضباط التشكيل، رأى الضباط الاحرار انه لا بد لهم من رئيس مسؤول ينسق اعمالهم ويصدر اوامره اليهم، ويتصرف وفقاً للظروف ، وهكذا اجتمعوا ، وأسفر اجتماعهم عن انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً لهم ، لمدة سنة ، وكذلك فعلوا في كانون الثاني سنة ١٩٥٢ ، إذ اعادوا انتخاب جمال لمدة سنة اخرى ، وذلك في منزل كمال الدين حسين .

ومن قرارات الاجتماع الثاني، قرار سري لم يعلنوه في حينه، وهو اختيار اللواء اركان حرب محمد نجيب (الذي كان قد ُعرف من جانب مجموعة الضباط الاحرار عن طريق عبد الحكيم عامر في فلسطين ، وجمال عبد الناصر بعد العودة من الفالوجا) قائداً لحركتهم ، يوم تنفيذها . ولكن هذا القرار لم ُيبلغ حتى للواء محمد نجيب نفسه، وذلك خوفاً من ان يكون ، في مثل هذا التبليغ ، استباق للأحداث .

●

وطلب جمال سالم ، في ذلك الاجتماع ايضاً ، ان يبدأ التشكيل باتخاذ موقف الاستعداد الكامل للقيام بالعمل الحاسم في اي وقت ملائم، وأن لا تقل المهلة المعطاة للضباط عن مدة شهر تسبق بدء التنفيذ . فوافق المجتمعون على اقتراح جمال سالم، وكلفوا عبدالحكيم عامر بتقدير الموقف من جميع الجوانب. وهكذا انتهى الضباط الى سلامة تشكيلهم ، ومنعة قوتهم، وتمام قدرتهم على التحرك للتنفيذ .

ورغم موقف حزب الوفد من القصر، ومهادنته له، فان الضباط الاحرار لم يفقدوا الامل ، خصوصاً وأنهم كانوا على قناعة تامة بأن الجيش هو ملك للشعب ، وأن هذا الجيش يجب ان يترك العمل السياسي لأربابه ، وأن يعود الى ثكناته فور قيامه بتحرير البلاد من المستعمر الانجليزي ، ومن الملك الطاغية ، ومن المنتفعين بفضلات موائد القصر ، والضاربين بسيفه وسوطه . وزاد في امل الضباط ان الجفاء عاد يعمل عمله ما بين القصر وقيادة الجيش من جهة ، وبين رجال الوفد من جهة ثانية ، فكان لا بد من تجديد الاتصال بحزب الوفد ، وذلك بترك امر الاتصال الى جمال عبد الناصر .

وقرر جمال ان يتصل جمال القاضي احد ضباط التشكيل ، بعمه الوزير الوفدي عبد اللطيف محمود باشا ، ومثل هذا الاتصال لن يكون جريمة في

نظر قيادة الجيش او في نظر القصر، لأنه سيصرف النظر عن غايته الاساسية بعامل القرابة القائمة بين الضابط والوزير .

واتصل الضابط بعمه ، غير ان العم لم يستطع التكلم شخصياً في الموضوع ولكنه أعلن عن استعداد لجمع مندوب عن الضباط بفؤاد سراج الدين، رجل الوفد المسؤول. وهكذا وقع الاختيار على ضابط آخر هو رشاد مهنا للاتصال بفؤاد سراج الدين ، لأن قرابة تربطه به هو الآخر .

وتحدد الموعد النهائي لمقابلة سراج الدين ، غير ان رشاد مهنا اعتذر في اللحظة الاخيرة عن الذهاب اليه ، متعللاً بانشغاله ببعض الأمور في قريته ، فكانت هذه اول خيبة امل تقابل جمال عبد الناصر، وتؤثر كثيراً على نفسيته.

ولما كان تشكيل الضباط الاحرار اقوى من ان يذهله تخلف فرد عن موعد مضروب مع رجل الوفد المسؤول ، فقد اندفع ضابط آخر هو احمد انور ، عندما علم بنبأ تخلف رشاد مهنا ، وذهب الى جمال عبد الناصر معلناً استعداده للحلول محل رشاد مهنا في مقابلة فؤاد سراج الدين .

ووافق جمال ، ولكنه لم يخفِ على احمد انور شكه باستجابة فؤاد سراج الدين ، وحذره من ان يستدرجه سراج الدين الى فخٍ او ان يتخذ معه أي قرار ، بل ان يفهمه بأن له رفاقاً يستشيرهم قبل الوصول الى أي قرار بشأن التعاون بين الضباط والوفد .

ولنترك احمد انور يروي بنفسه تفاصيل مقابلته مع فؤاد سراج الدين ، ومنها يتضح مدى السلبية التي اتخذها الوفد من الضباط الاحرار، مما اضطرهم فيما بعد للقيام بالحركة ، بعيداً عن التعاون مع أية هيئة او اي حزب سياسي في البلاد . قال احمد انور :

« طلبت مقابلة سراج الدين ، واتفقنا على موعد المقابلة : الساعة الخامسة والنصف ، في بيته بجاردن سيتي .

وأرسل اليّ فؤاد سراج الدين ، الاستاذ فاروق القاضي ، وكان اذ ذاك يشغل منصب السكرتير البرلماني لفؤاد سراج الدين ، بصفته وزيراً للمالية ، ارسله ليقابلني في ميدان الاسماعيلية ، ويأخذني الى داره . وكان معي شقيقه جمال القاضي الذي جاء يصحبني ليعرّفني بشقيقه .

والتقيت بفاروق القاضي، ثم ذهبنا، واذا بفاروق يقودنا الى الباب الخلفي للدار حسب التعليمات التي كان قد تلقاها من فؤاد سراج الدين .

وجلسنا في احـــد الصالونات الكبيرة .. ثم اقبل علينا فؤاد « باشا » ، وأمر الخدام بإغلاق الابواب وعدم السماح لأي احد بالدخول .

وجلس ..

كنا اربعة ..

فؤاد سراج الدين ، وجمال القاضي ، وفاروق القاضي .. وأنا .

وانتظرت في تحرز شديد وتحرّج ، ان ينسحب فاروق ، ويدعنا وحدنا في هذه المقابلة البالغة الخطورة والأهمية . ولكن فؤاد « باشا » لمح مني هذا التحرج والتحرز ، فابتسم لي مشجعاً ، وقـال لي : « تـكلم ، فليس فاروق غريباً » .

وبدأت أتـكلم .

قلت له : « لقد جاوز الملك كل حد ، وخصوصاً بتعيينه حافظ عفيفي رئيساً لديوانه ، فلماذا لا تتخذون موقفاً حازمـــاً تجاه التحدي الصريح من الملك ؟ »

وابتسم فؤاد سراج الدين ، وقال في بساطة خبيثة : — « إحنا طبعاً .. خايفين » .

— من إيه

ــ من الجيش .. هي دي عايزه تفسير ؟

ثم استطرد : إحنا ناس « باطنا والريح » .. وإحنا صحيح كنا بنحايله لغاية ما نقدر نلغي المعاهدة . انمـــا دلوقت اذا انزلقنا ، فمفيش مفر ... حانخرج ، ونقول للشعب كل حاجة .

وثار جمال القاضي ، وهو في طبعه عصبي شديـــد الانفعال .. وقال : « ولماذا لم تفعلوا ذلك ، وقد عـيّن الملك عبد الفتاح عمر « باشا » مستشاراً له ، رغم سحبكم إياه من سفارة لندن ؟ »

وكان سؤالاً محرجاً .. ولكنـه كان ايضاً سؤالاً في الصميم . ومع ذلك ، فقد ابتسم فؤاد سراج الدين ، وقال أيضاً في بساطة :

ــ إحنا رفضنا هذا التعيين رفضاً حاسماً . ولكن الملك أصر ، وعيّنـه بنفسه . ثم وجدنا أن هـــذه المسألة مسألة صغيرة لا تستحق ان نعطيها من الاهتمام ما ُينسينا قضيتنا الكبرى .

وسألته :

ــ أليست في اعتباركم اعتداء على الدستور ؟

وضحك سراج الدين وهو يقول : ــ الدستور ؟ هي البلد دي بتفهم في المسائل الدستورية ؟

وألقى برأسه الى الوراء كمن يتذكر اياماً ماضية ، ثم قـال : عندما وقعت الازمة بين الملك وبين النحاس في الوزارة الماضية بشأن حق اعطاء الألقاب ، كانت هذه ازمة دستورية لا شك فيها ؛ فقد كان رأينا ان الملك لا يمنح ألقاباً إلا بنـــاء على طلب حكومته . ومع ذلك ، مع كونها ازمة دستورية ، فقد استطاع الملك ان « يسرح » شيوخ الأزهر في البلاد ، وأن يوعز اليهم بأن يخطبوا في البلاد ، وأن يخطبوا في المساجد ضد النحاس ، ويوقعوا في روع الشعب ان النحاس يريد ان يصبح ملكاً يمنح الرتب والنياشين.

وللأسف ، فهم الشعب هذا ، واضطررنا الى التراجع ، لأن الشعب لا يفهم كثيراً في المسائل الدستورية .

والتفت فؤاد سراج الدين فجأة ، ثم سألني مغيراً مجرى الحديث :

– فيه ضباط كتير معاكم ؟

قلت : نعم .. من جميع الاسلحة .

فعاد يسألني ، محاولاً ان يخفي ما ادركته انا من سؤاله ، وهو انه كان على علم بصورة ما بحركة الاحرار : اظن كان فيه سلاح .. تعبان !

وأجبته على الفور : لا .. غير صحيح .. فجميع الاسلحة الآن مستعدة لاتخاذ اي موقف نراه .. ونحن جئنا هنا لكي نتفاهم معك على امكان الاستناد الى الجيش . فهذا الجيش هو جيش الشعب ، ولن يكون بأي حال جيشاً للملك .. وعليكم ان تتخذوا اي موقف قوي ، وعلينا نحن ان نقف الى جواركم .

ورأيت من فؤاد سراج الدين انطواء شديداً ، ونظرات لمحت فيها بعض الشك والارتياب .. ولم يكن امامي إلا ان اندفع في حماس ، مبيناً اخطاء الملك ، وجرائمه ، حتى يطمئن الينا ويتكلم .

وفعلاً ، شعرت ان نظراته قد تغيرت .. وبدأ يتكلم بصراحة اكثر كثيراً .

كان يحاول ان يعرف مني تفاصيل كاملة عن الضباط ومدى استعدادهم ، وحقيقة الثورة الكامنة في داخل الجيش .

ثم ترك موضوع الضباط ، وراح يتكلم في السياسة المصرية والأحزاب ، والوطنية والسياسيين .. وفجأة اعتدل في جلسته ، وسألني سؤالاً .. لم أكن قد أعددتُ نفسي للاجابة عليه بحال من الاحوال .. كان سؤالاً ماكراً في صيغته ، وفي طريقة المفاجأة التي وجهه بها إلي ، فؤاد سراج الدين .

كنت قد مهدت الجو تماماً لكي يشعر فؤاد سراج الدين بملء الثقة في شخصي ، فيتكلم ويفصح ، ولا يخشى ان تكون هناك دسيسة او مكيدة قد دبرت له .

وكان فؤاد سراج الدين قد بدأ يشعرني بأني اصبحت فعلاً موضع ثقته . وأخذ يتكلم بصراحة وحرية في موضوعات سياسية ووطنية ، محاولاً ايهامي بأنه يذكر لي اسراراً خطيرة لا ينبغي ان تذكر إلا لمن يكونون في الموضع الاول من ثقة الرجل فيه .

وفجأة سألني السؤال الذي لم اكن قد توقعت ان يوجّه إلي ، ولا اعددت نفسي للاجابة عليه .

قال لي فؤاد سراج الدين في بساطة :

ـ مين تفتكر يصلح لقيادة الجيش ؟

قال «قيادة الجيش»، ولم يقل « قيادة الحركة ».. وقالها ببساطة لا مثيل لها ، وكأنه يسأل عن الصحة او يتحدث عن حالة الطقس .

ولم أفهم انا مغزى سؤاله إلا بعد انصرافي من منزله ، عندما جلست استعيد ما دار في الجلسة حرفاً حرفاً ، لكي أقدم به تقريري الى البكباشي جمال عبد الناصر .. فقد ادركت عندئذ من وضع اسئلته المتناثرة ، سؤالاً الى جوار الآخر ، انه لم يكن يسألني مجرد سؤال بريء عمن اظنه اصلح من « الفريق حيدر باشا » لقيادة الجيش ، وإنما كان يقصد تماماً الى معرفة رئيس حركة الضباط الاحرار .

ادركت هذا ، بعد خروجي من منزل سراج الدين ، وحمدت الله عند ذلك كثيراً .. فعلى الرغم من مفاجأته لي بهذا السؤال ، وعلى الرغم من جو الثقة الذي كان قد سيطر على الجلسة ، وعلى الرغم من اللهجة البسيطة التي القى بها سؤاله، فقد سيطر عليّ ـ دون ان ادري لذلك سبباً ـ الحذر الطبيعي

الذي كنا قد تعلمناه في الفترة السابقة من الإعداد للحركة ؛ وكنت بالطبع في مأزق ، فلا بد لي ان أجيب ، وإلا فقدت ثقة الرجل، التي اجهدت نفسي في اكتسابها . ولم يكن ممكناً ان أجيب لأن شخص القائد كان لا بد ان يظل سراً حيث لا يعلم به احد .

ووجدت نفسي اختار اسم رجل بعيد كل البعد عن حركتنا ؛ رجل لا صلة له مطلقاً بالضباط الاحرار ولا بتشكيلاتهم، ولكنه، في الوقت نفسه، شخصية يمكن اذا ذكرت ، ألا يقابل ذكرها في هذا المقام بأي قدر من الارتياب . وقلت له ، وكان ذلك بعد لحظات قصيرة جداً من سؤاله :

— اعتقد ان اللواء سيف اليزل هو الذي يصلح اليوم لقيادة الجيش .

وهزّ سراج الدين رأسه ، وقال لي :

— اختيار موفق .

ولم أفهم مغزى هذه الكلمة ايضاً ، فقد كنت لا أزال مأخوذاً بالمأزق الذي وجدتُ فيه .

ويبدو ان سراج الدين قد سرّه ان عرف مني اسم « قائد حركة الضباط الاحرار » ، وأراد ان يصل عن طريقي الى معلومات اخرى أعمّ وأشمل ، ولكنه كان في كل كلمة حريصاً ، وكان لا يسأل سؤاله إلا بعد ان يمهد له كثيراً .

هذا كله ادركته، بعد انصرافي من منزله . اما اثناء وجودي، فقد كنت احاول فقط ان أُجيب على اسئلته ، وأن اعرف منه رأيه فيما جئت اعرضه عليه .

وبدأ سراج الدين تمهيده الطويل الثاني بالحديث عن الفريق حيدر باشا . وكان طرق هذا الموضوع امراً طبيعياً ما دمت قد حددت له اسم القائد الجديد .

فأخذ يتحدث عن انتخابات النادي الاولى ، ثم قال :

ــ أنتم خذلتمونا في مسألة حيدر .

وكانت الحكومة قد قبلت استقالة حيدر باشا من الجيش ، على اثر التحقيقات التي اجريت في « قضية الاسلحة الفاسدة » ولكن الملك اعاده ، بعد ذلك ، رغم ارادة الحكومة .

وقال سراج الدين :

ــ لقد قلنا للملك ان إعادة حيدر ستؤدي الى كارثة ، وأن الضباط جميعاً سيثورون .. ولكنه عندما اعاده ، ثم ندبه عنه في حضور حفلة نادي الضباط ، صفق له الضباط طويلاً ، في حضور وزير الحربية الوفدي ، مصطفى نصرت ، مما اوجد الوزير في حرج شديد ، وشلّنا في موقفنا من الملك شللاً كاملاً .

وكانت هذه القصة قد وقعت بالفعل ، وكان تصفيق الضباط لحيدر هو اكبر لطمة ُوجهت الى حكومة الوفد ، وأضعفت موقفها .

وأردت ان اطمئن سراج الدين بإفهامه ان ما حدث لا يعبّر مطلقاً عن رأي الجيش ، وأن هذه الظاهرة قد افتعلها عدد معيَّن من الضباط . ثم قلت له :

ــ اننا لو اتينا بطه حسين ، وعيّناه قائداً عاماً ، لكان احسن كثيراً في منصبه من الفريق حيدر باشا .

ورأيت فؤاد سراج الدين يبتسم . فاستطردت قائلاً :

ــ لأنه ، على الاقل ، يفهم في السياسة .

وضحك سراج الدين ، ثم قال :

ــ على كل حال ، انتم صفقتم لحيدر ، وأحرجتمونا .

وفي الحال ، قال لي :

— هل سمعتم عن اتجاه النية الى التخلص من بعض الضباط ؟

وكنا على علم بذلك فعلاً ، فقد كانت هناك قائمة قد أعدت لطرد عدد من ضباط الجيش،وكانت هذه القائمة تتضمن اسماء سبعة ضباط من تشكيلنا .

وقلت له : لقد سمعنا ان الملك قال لحيدر بغضب : « ازاي تسيب ١٢ شيشكلي [١] قاعدين في الجيش ؟ » .

وطرب سراج الدين لهذه الإجابة ، ثم سألني :

— زي مين ؟

ولما وجدني تلكأت في الإجابة ، استطرد هو قائلاً :

— انك تستطيع ، اذا عرفت الاسماء ، وكانت تهمكم، ان تبلغني شخصياً بما تعرف .. فقد استطيع ان اكون مفيداً !

وكنا نحن نعلم ان هناك مباراة بين الوفد وبين الملك في السيطرة على الجيش . وكان فؤاد سراج الدين يريد ان يعرف ما لدي من معلومات ، لكي يشعر الملك بأنه على علم بكل شيء ، ثم يستغل هذا في الوصول الى هدفه الذي سعى اليه كثيراً ، وهو ان يكون وزيراً للحربية ؛ فقد كان همه في تلك الأيام ان يقنع الملك بأنه اذا اصبح وزيراً للحربية ، لاستطاع ان يسيطر على الجيش تمام السيطرة .

وعاد سراج الدين يؤكد لي استعداده لكي يكون مفيداً لنا ، اذا عرف مني اسماء من يهمنا أمرهم .

---

(١) اشارة الى الانقلاب السوري الذي تزعمه اديب الشيشكلي ، ضد شكري القوتلي وحكومته ، في سوريا .

ولكني ، في هذه اللحظة ، كنتُ حاسماً ؛ فقلت له على الفور :

ـ أرجو ألا تهتم معاليك ، كثيراً ، بالاسماء . ويكفي ان تتأكد من وجود قوة مخلصة كافية داخل الجيش . وانك أنت تستطيع ان تعتمد علينا ، وأن تجدنا في اي وقت ، اذا اردت منا مساهمة فعلية في شد أزركم تجاه الملك ، في أية خطوة دستورية او وطنية تريدون اتخاذها .

وأطرق سراج الدين ، ثم قال :

ـ يعني ؟!

فأجبته :ـ يعني اننا نريد منكم بصراحة ان تتخذوا موقفاً وطنياً شديداً من الملك .

فقال : ـ وإذا اقالنا الملك ؟

قلت له : ـ « تتمسكون بمراكزكم ، وتتركون الباقي لنا . فالجيش كله على استعداد للوقوف الى جانبكم في هذه الحالة وقوفاً قوياً فعالاً مؤازراً » .

وابتسم سراج الدين ، وهو مطرق . ثم قال :

ـ « ربنا يسهل . وإن كان رأيي الصريح هو ان الجيش يجب ان يلزم شؤونه الخاصة » .

وانتهت المقابلة بذلك ؛ وتوجهت الى البكباشي جمال عبد الناصر،فرويت له كل تفاصيلها .. »

●

بعد هذه الاجابات الصريحة ، والمناورات المفضوحة ، وسياسة اللعب على الحبلين التي انتهجها الوفد ، في مداورة الملك والشعب معاً ، كان لا بدّ لجمال عبد الناصر ان يخرج بقرار حاسم بناه على اتصالاته الأخرى ايضاً التي سبق ان اجراها مع هيئات سياسية غير حزب الوفد ، وأدرك بنتيجتها انه لا بد للجيش وحده ان يقوم بهذا العمل .

ولقد كان من المتوقع ان تنفـذ خطة الثورة في آذار (مارس) ١٩٥٢ ، بعدما وقع حريق القاهرة الرهيب الذي أكل اقتصاديات مصر ، وقضى على سمعتها ، ومكن للرجعية من الانتفاض والسيطرة بصورة شرسة مرعبـة ، حتى ان الملك فاروق أصيب بذعر شديد جعله يفكر بالهرب من البلاد ..

ولكن احداث شهر آذار (مارس) ١٩٥٢ أجلت التنفيذ الى موعد آخر، بعدما اقيلت الوزارة التي يترأسهـا علي ماهر ، وعين مكانه الهلالي على رأس وزارة جديدة ؛ وبدأت عمليات الاقـالة والاستقالة ، ثم اعادة تشكيل الوزارات ، ولا سيما في شهر تموز (يوليو) ١٩٥٢ ، كما عاد الهوس الى رأس الملك ، وأصيب بمثل الجنون بعد ان شعر باستخفاف الضباط به وبحكوماته، بحيث غدا عرشه على كف عفريت وانعكست الاحداث جميعاً ، لا على الملك وحده ، بل على الجيش ، والوزارة ، والموقف السياسي بوجه عام .. وحاول الملك ان يفتك ببعض الضباط الأحرار، بناء على معلومات، اكثرها خاطىء، سرّبها اليه الضباط الاحرار الذين كانوا في نفس اللحظة يعدون العدة الحاسمة للانقضاض على الملك ، وعهده ، وانهاء حكم اسرة محمد علي الاجنبية الغريبـة عن شعب مصر .

وقرر الضباط الاحرار ، بعد دراسة مستفيضة للموقف الذي ينتظر ان يستجد ، بعد الثورة ، « ان الجيش لا يحكم ، وانمـا يقوم بالثورة ، ثم يسلم البلاد للمدنيين في اللحظة التي يفرغ فيها من عمله الكبير » .

وحلت ضغوط كثيرة ، وخاصـة على اللواء محمد نجيب الذي تعرّض لاغراءات أقلها تعيينه وزيراً ، ولكن جمال عبد الناصر كان قد اجتمع به ، وطلب اليه الا يتزحزح ، وان يحافظ على موقفه ، خصوصاً ، وقـد كان في نية الضباط الأحرار ، كما رأينا ، ان يجعلوه قائداً للثورة .

وهكذا كان ، فلم يستجب محمد نجيب لأي اغراء، ولا اذعن لأي تهديد. ويروي انور السادات دقائق هذه المرحلة من عمر الثورة التي لم تكن قد اندلعت بعد ، فيقول :[1] « وفي ٢٠ تموز (يوليو) ، اي قبل الثورة بثلاثة ايام ، توجه جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر الى بيت محمد نجيب لإبلاغه بأنه الزعيم والقائد ومحرر البلاد الذي سيقلب نظام الحكم .

وطرق العملاق باب البيت ، وكان عند نجيب ، البكباشي جلال ندا والصحفي محمد حسنين هيكل، وكانت الانظار قد اتجهت الى نجيب، في ذلك الوقت ، بعد أزمة مجلس ادارة نادي الضباط. وأقول مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى الألف : ان نجيب لم يكن يعلم لماذا جاء اليه جمال وعبد الحكيم . ربما ظن ان الاثنين جاءا لمؤاساته بعد حل مجلس ادارة النادي، ولتشجيعه كالعادة. وتظاهر جمال وعبد الحكيم انهما جاءا للاستفسار عن صحة اللواء ، وبدأ الحديث في موضوع آخر غير موضوع الثورة . فلا أحد في الحجرة كان يعلم ماذا في رأس جمال وعبد الحكيم ، ولا احد في الحجرة – حتى نجيب – كان يتخيّل انهما جاءا ليقولا لنجيب : « ايها القائد ، انتَ زعيم الشعب ! » .

في الساعة الثالثة صباحاً ، من ٢٣ تموز (يوليو) بدأ اول اتصال بين قيادة الجيش الجديدة ، أعني الضباط الاحرار ، وبين محمد نجيب .. وهذه حقيقة تعلن على العالم لأول مرة .

وكان ذلك الاتصال عن طريق التليفون .

لقد دقّ جرس التليفون في رئاسة الجيش للمرة الثانية ، ورفع جمال عبد الناصر السماعة ، وظنّ ان المتحدث هو اللواء عبد الله النجومي ايضاً .. يريد ان يطمئنه حسين فريد على الحالة .

---

(١) « قصة الثورة كاملة » لأنور السادات .

ولكن المتحدث هذه المرة كان اللواء محمد نجيب ، وكان يتكلم من منزله . وقال نجيب بالحرف الواحد :

« المراغي اتصل بي من الاسكندرية.. قال لي روح هدّي الحالة في رئاسة الجيش .. هيه ايه الحكاية يا جمال » ؟

وقد ردّ جمال على سؤال نجيب بأن اوضح له الموقف كله، وأبلغه — لأول مرة — ان في الجيش تنظيماً اسمه « تنظيم الضباط الاحرار » وان قيادة ذلك التنظيم قد سيطرت، الآن ، على جميع القوات المسلحة في جميع انحاء البلاد . قال جمال لنجيب بالحرف الواحد ، في تلك الساعة من صباح ٢٣ تموز (يوليو) شارحاً له الحكاية :

« الضباط الاحرار قاموا بالثورة الليـــلة .. والثورة نجحت ، والمنطقة العسكرية محاصرة .. وإحنـــا عايزينك تجي ، حنبعتلك عربية تجيبك » ! وهكذا عرف نجيب لأول مرة ، حكاية الضباط الاحرار .

●

أعلنت الثورة إذن ، فجر ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٢ ، فكان اعلانهـا وضع حدّ نهائي لدولة الطغيان والفساد والعمالة ، وبدء إقامة دولة العدالة ، والكرامة والحرية .

ولكن احداثـاً جساماً كادت ، لولا تعقل الضباط الاحرار ، ووعيهم ، ومتانـــة اعصابهم ، وثقتهم من انفسهم ، ومن القضية التي من اجلها اعلنوا الثورة، ان تجهض هذه الثورة وهي في اولى خطواتها، لأن الثورة كان صنيعاً جديداً لم يتعوّد السياسيون المصريون التقليديون مثله ، فقد كانوا يحسبون ان أية حركة عنيفة او لطيفة ضد الملك ، تعني طمعاً بالاستيلاء على مقاعد الحكم وتحقيق المغانم الخاصة ، والمكاسب الشخصية ، كأنما من ضروب المستحيل في وطنهم ان تقوم حركة ، كما قامت حركة الضباط الاحرار ، لأجل إنقـــاذ

شعب مصر ، لا لأجل امتطاء هـذا الشعب الذي غلبه جلّادوه على أمره ، واستغلوا ثرواته ، واستباحوا حرماته ، ومصوا آخر قطرة في دماء قلبه .

وبكثير من خيبة الأمل ، وبكثير من الألم النفسي والوجداني ، يتحدث جمال عبد الناصر عن المرحلة التي تلت ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٢ مباشرة ، موضحاً ما أشرنا اليه من حقائق ، فيقول [١] : « وأنا أشهد انه مرت عليّ ، بعـــد يوم ٢٣ تموز (يوليو) نوبات اتهمت فيها نفسي وزملائي وباقي الجيش بالحماقة والجنون الذي صنعناه في ٢٣ تموز (يوليو) » .

لقد كنت اتصور قبل ٢٣ تموز (يوليو) ، ان الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وانها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم امامها السور ، فتندفع الامة وراءها صفوفاً متراصة منتظمة ، تزحف زحفاً مقدّساً الى الهدف الكبير .

وكنت اتصور دورنا على انه دور طليعة الفدائيين ، وكنت اظن ان دورنا هذا لا يستغرق اكثر من بضع ساعات ، ويأتي بعدنا الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير . بل قـد كان الخيال يشط بي احياناً ، فيخيّل اليّ انني اسمع صليل الصفوف المتراصة ، وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم الى الهدف الكبير ، أسمع هذا كله ، ويبدو في سمعي من فرط ايماني به ، حقيقة مادية ، وليس مجرّد تصورات خيال . ثم فاجأني الواقع بعد ٢٣ تموز (يوليو) .

قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهـدف الكبير .

وطال انتظارها .

---

(١) فلسفة الثورة ، صفحة ٢٠ .

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر .. ولكن ما ابعد الحقيقة عن الخيال !

كانت الجموع التي جاءت أشياعاً متفرقة ، وفلولاً متناثرة، وتعطل الزحف المقدس الى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر .

وساعتها أحسست ، وقلبي يملؤه الحزن ، وتقطر منـه المرارة ، ان مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة ، وإنما من هذه الساعة بدأت .

كنا في حاجة الى النظام ، فلم نجد وراءنا إلا الفوضى .

وكنا في حاجة الى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا إلا الخلاف .

وكنا في حاجة الى العمل ، فلم نجد وراءنا إلا الخنوع والتكاسل .

ومن هنا ، وليس من أي شيء آخر ، اخذت الثورة شعارها .

ولم نكن على استعداد .

وذهبنا نلتمس الرأي من ذوي الرأي ، والخبرة من اصحابها ؛ ومن سوء حظنا لم نعثر على شيء كثير .

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا الى قتل رجل آخر .

وكل فكرة سمعناها ، لم تكن تهدف إلا الى هدم فكرة اخرى !

ولو اطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال ، وهدمنا جميع الافكار، ولمـا كان لنا ، بعدها ، إلا ان نجلس بين الاشلاء والانقاض ، نندب الحظ البائس ، ونلوم القدر التعس !

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف ، ولو ان هذه الشكاوى والعرائض كانت تروي لنا حالات تستحق الانصاف، او مظالم يجب ان يعود اليها العدل ، لكان الأمر منطقياً ومفهوماً . ولكن معظم مـا كان يرد الينا لم يزد او ينقص عن ان يكون طلبات انتقام .. كأن الثورة قامت لتكون سلاحاً في يد الاحقاد والبغضاء !

ولو ان احداً سألني في تلك الايام ، مـا هو اعز امانيك ! لقلت له على الفور : « ان اسمع مصرياً يقول كلمـة انصاف في حق مصري آخر ؛ ان أحس ان مصرياً قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لإخوانه المصريين . ان أرى مصرياً لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصري آخر » .

وكانت هناك ، بعد ذلك كله، انانية فردية مستحكمة . كانت كلمة « انا » على كل لسان .. كانت هي الحل لكل مشكلة ، وهي الدواء لكل داء .

وكثيراً ما كنت اقابل كبراء — او هكـذا تسميهم الصحف — من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم في مشكلة ألتمسُ عنـده حلاً لها ، فلم اكن اسمع إلا « أنا » .

مشاكل الاقتصاد ، « هو » وحده يفهمها ، اما الباقون جميعاً ، فما زالوا في العلم بها ، اطفالاً يحبون .

ومشاكل السياسة « هو » وحده الخبير بها ، اما الباقون جميعاً ، فما زالوا في « الف باء » لم يتقدموا بعدها حرفاً واحداً .

وكنت اقابل الواحـد من هؤلاء ، ثم اعود الى زملائي فأقول لهم في حسرة : « لا فائدة . هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك في جزائر « هاواي » لما وجدنا عنده جواباً إلا كلمة « أنا » !!

وعن هذه المرحلة التاليـة مباشرة لاعلان الثورة المصرية ، يروي انور السادات ذكريات أخرى حول السياسيين التقليديين الذين لم يتخذوا موقفاً من الثورة إلا بعد اعلان تنازل الملك فاروق عن العرش ، فيقول [١] :

---

(١) اسرار الثورة المصرية ، صفحة ١٦ وما بعدها .

« وفي صباح ٢٣ تموز (يوليو) ، كان الناس بين مصدّق ومكذّب .. كانت الفرصة تشملهم ، ولكنها فرحة تشوبها المخاوف ، وتنتابها الظنون والتكهنات لأن البيان الذي طلع عليهم لم يشف نفوسهم ، ولم يضيء امامهم كل المصابيح .

وجاء الاصدقاء الى القيادة ، ونفوسهم تحترق على مصيرنا ، إذا نحن لم نجهز على الملك ، وإذا نحن حصرنا هذه الضربة في نطاق الجيش وحده ، كما فهموا من البيان .

وأخذوا يذكرون الفساد والاستهتار وما آلت اليه البلاد من فوضى سياسية وخلقية ومعنوية ، ويطالبوننا بالعمل الكبير الحاسم ، قبل ان تضيع الفرصة ، وتفلت الآمال .

وكان هؤلاء جميعاً اصدقاء ، مجرد اصدقاء ، شباب مخلصين .. ولم يكن بينهم واحد فقط من رجال السياسة وقتذاك .

ومضى يوم ٢٣

ومضى يوم ٢٤

ومضى يوم ٢٥

مرت هذه الأيام الثلاثة ، ولم نسمع فيها كلمة من سياسي واحد ، ولم نرَ فيها وجهاً لسياسي واحد .

لقد لزم فيها جميع السياسيين بيوتهم ، واعتصموا بالصمت والحذر : فلم يتحرك منهم إلا أولئك النفر الذين ظنوا ان الملك باقٍ على عرشه ، فهرعوا يقيدون أسماءهم في سجل التشريفات .. يوم ٢٤ .

وجاء يوم ٢٦

وما ان وافت الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح ذلك اليوم ، وكان قد عرف في دوائر السياسة ان فاروقاً قد وّقع التنازل، وأنه بسبيل مغادرة البلاد في الساعة السادسة ، حتى وقعت المعجزة ..

وكانت المعجزة ، هي خروج السياسيين من جحورهم ، وتقاطرهم علينا . وفود ، وفود من السياسيين ، من جميع الألوان والمذاهب والاتجاهات، تطرق ابوابنا في مقر القيادة بثكنات مصطفى باشا ، ابتداء من الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح ذلك اليوم ..

جاءوا الينا جميعاً ، حتى اولئك الذين قيدوا اسماءهم ، قبل الأمس، ولاءً واخلاصاً في سجل تشريفات الملك .

ولم يضيّع السياسيون وقتاً ؛ بعد ذلك ..

فمنذ الصباح ، في يوم ٢٧ ، بدأت كل هيئة سياسية ، بل بدأ كل سياسي في هذا البلد ، ُيعد نفسه لمعركة جديدة ، يحلم فيها بدور البطل .

لا شيء قــد تغير ، في نظر السياسيين والهيئات السياسية . لا شيء إلا اختفاء شخص الملك ، وظهور اشخاص رجال القيادة .

كان لسانهم الناطق يقول : « ذهب الملك ، تحيا القيادة » !

وهذا التغير الشكلي ، قــد يستتبع تغييراً في الاساليب ، وتجديداً في اسلحة السياسة ، ولكنه لا يستتبع ابداً تغييراً في الهدف .. الهدف الرئيسي لاحتراف السياسة ، منذ وجد في مصر محترفوها .

ومثلما خاض السياسيون المعارك ، تحت اقدام فاروق ، في سبيل الوصول الى اسلاب الحكم ومغانمه ، بدأوا منذ اللحظة الاولى لطرده يخوضون معركة جديدة ، يقسمون فيها هذه الاسلاب والمغانم ،

وكان لا بدّ ان يختار كل منهم سلاحاً جديداً يناسب لون المعركة الجديدة وكان لا بدّ ان يكون السلاح برّاقاً امام اسلحتهم القديمة .

وكان هذا البريق ، هو المنطق المعقول الذي يحاولون الدخول بـــه الى الاذهان. فإذا ما انفتحت عقول الناس لهم، اكملوا القصة بأكاذيب وأراجيف تعودوا صياغتها ، لكي يصلوا الى ما يبتغون .

وكانت عقول الناس فعلاً ، مهيأة لقبول أي منطق معقول .

وقد رأى الناس أشياء لم يستطيعوا فهمها ، وسمعوا عن اسماء لا يعرفون عن اكثر اصحابها شيئاً ، وترددت في آذانهم إشاعات لا يستطيعون تكذيبها لأن الحقائق لا تزال مستورة عن عيونهم » .

●

وهكذا ، ووفقاً لمـا ذكره جمال عبد الناصر ، وأنور السادات ، كثرت الاكاذيب ، وتمـــادت الإشاعات ، ونهض السياسيون الى الاسلحة التقليدية والمحدثة ، ولا سيما حزب الوفد بعدما عـاد مصطفى النحاس وفؤاد سراج الدين من مصيفهما في اوروبا ، عقب اعلان الثورة مباشرة، وكلٌّ يحاول إقناع الشعب بـأن الثورة لا تستطيع التقدم خطوة واحدة اذا لم تكن حائزة على رضاه وبركاته !

وهكذا وجدت الثورة نفسها امـام المأزقين معاً : مأزق تحرير البلاد من الاجنبي المحتل والحـاكم الفاسد الطاغية ، ومأزق تحرير العقول من رواسب السياسات التقليدية القديمة التي طالما عانت منها البلاد أشد ألوان المرارة . وإذن كانت الحركة الجديدة امام الثورتين : السياسية والاجتماعية. « والثورة السياسية ، كما يقول عبد الناصر ، تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الامة وترابطها وتساندها ونكرانها لذاتها في سبيل الوطن كله . والثورة الاجتماعية من اول مظاهرها ، تزلزل القيم ، وتخلخل العقائد ، وتصارع المواطنين مـع أنفسهم افراداً وطبقات ، وتحكم الفساد والشك والكراهية والانانية » .

وسارت الثورة في الطريقين معاً : طريق الثورة السياسية عــن طريق تجميع أبناء الامــة ، وصهرهم في بوتقة الوطنية الخالصة ، على اساس مكين من التضحية والإخلاص والعمل البناء الجاد للنهوض من كبوتها وطريق الثورة الاجتماعية ، عن طريق ازالة الفروق الطبقية وبالتالي ازالة أسباب الخلاف بين ابناء المجتمع الواحد ، وعن طريق إحلال الفضيلة محــل الفساد والثقة والمحبة محل الشك والكراهية والإيثار وانكار الذات محل الإثرة والمصلحة الشخصية العابرة .

وهكذا كان لا بد من استبعاد الطقم السياسي القديم ، أحزاباً وافراداً ، وعدم التعاون إلا مع مَن اقام المصلحة العليا فوق كل مصلحة ، وثبت ولاؤه للشعب قبل ولائه لشخص الحاكم الفرد ، أياً كان هذا الحاكم .

منجزات ثورة عبد الناصر

لو كانت الثورة التي فجرها الرئيس جمال عبد الناصر وزملاؤه الضباط الاحرار صبيحة الثالث والعشرين من تموز عام ١٩٥٢ ، ثورة اقليمية ضيقة المدى ، محدودة النطاق ، او لو كانت هذه الثورة تهدف فقط الى اسقاط حكومة والاتيان بحكومة اخرى ، او الى ابدال نظام حكم بنظام حكم آخر ، لما تعدت تلك الثورة اطار الانقلابات العسكرية التي يقودها ضابط برتبة صغيرة ، متى وجد في يده القوة المسلحة الكافية لإسقاط حاكم ، وتنصيب حاكم آخر .

ولكن الثورة المصرية كانت عميقة الجذور في نفوس ابناء الشعب المصري ، كما كانت متعددة الاسباب النفسية والاجتماعية والوطنية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ، على مثل ما اوضحنا ، في شيء من التفصيل ، في الفصول السابقة ؛ وكانت الثورة المصرية ايضاً تجسيداً حياً لتطلعات شعوب الامة العربية قاطبة ، هذه الشعوب التي كانت تعاني ، وما يزال بعضها الى الآن يعاني الكثير من عوامل التخلف على اكثر من صعيد ، ولا سيما من التفاوت الاجتماعي الذي عمَّق هوته الوجود الاستعماري الذي سيطر على بلادنا ، عن طُرق الانتداب ، والوصاية ، والحماية ، وأحياناً كثيرة عن طريق الاحتلال وما يسمى « الاتحاد » بين الدولة الغاصبة والدولة المغتصبة .



عبد الناصر يعلن من على منبر الأزهر : سنقاتل !

واذا كان شعب من شعوب الارض قد ذاق لوناً او لونين من الوان الاستعمار السياسي والفكري، وأحياناً الديني ، فان الأمة العربية لم توفر لوناً ، او ُقل لم يوفروا عليها لوناً من الوان الاستعمار إلا وذاقت منه الأمرّين . إن أمّتنا لم تنسَ حتى الآن طعم الاستعمار البريطاني، والفرنسي، والايطالي، والالماني ، والاميركي ، والاسرائيلي ، وهو طعم ، لا ريب ، غـــير مستساغ . وإذن ، كانت الثورة المصرية أبعـد مدى من الانقلاب العسكري ، او من الحركة التغييرية الاقليمية ، كما انها كانت اشمل نطاقـاً من الهوية الافريقية او العربية فقط ، ذلك أنها نهضت، واستمرت، وأثرت في شعوب العالم قاطبة ، على أسس ايديولوجية ثورية تحررية تستهوي جميع الشعوب المغلوبة على امرها، الساعية الى استقلالها ، العاملة على تنمية بلدانها ، وتحريرهـا من الارتباط المصيري بعجلة الاستعمار ، من اي لون كان ، وبأية صفة ظهر .

لذلك كانت منجزات الثورة المصرية – وليُسمَح لنا ان نسميها ثورة عبد الناصر – ماثلة على اكثر من جبهة ، وفي اكثر من ميدان : انها منجزات مصرية ، وعربية ، وأفرو اسيوية ، وعالمية، هادفة الى حفظ كرامة الانسان أينما كان ، والى تحرير الشعوب ، وضمان تقدمها في مضمار حضارة القرن العشرين ، قرن غزو القمر ، واحتلال الكواكب .

وإذا كنا في هذه السطور ، سنقدم كشفاً سريعاً بمنجزات الثورة المصرية وبكفاح رائدها ورائد التاريخ العربي الحديث جمال عبد الناصر ، فإن ذلك لا يعني اننا لن نقف وقفة تفصيلية تحليلية أمام العناوين الكبيرة في هـــذه المنجزات ، لأننا سوف نخصص فصولاً ، قدر مـا يسمح المجال للحديث على مؤتمر باندونغ وعـــدم الانحياز ، وعلى قضية السويس والوحدة العربية ، ومؤتمرات القمة والمقاومة الفلسطينية ، فضلاً عـــن صور من كفاح الانسان والبطل الذي كادت سيرة حياته ان تبلغ مبلغ الاساطير .

لقد كانت ثورة ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢، على حدّ ما جاء في الميثاق الذي

قدمه الرئيس جمال عبد الناصر للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية في ٢١ ايار (مايو) سنة ١٩٦٢ ، بداية مرحلة جديدة ومجيدة في تاريخ النضال المتواصل للشعب العربي في مصر . ان هذا الشعب ، في ذلك اليوم المجيد ، بدأ تجربة ثورية في جميع المجالات ، وسط ظروف متناهية في صعوبتها وظلامها وأخطارها . وتمكن هذا الشعب بصدقه الثوري ، وبإرادة الثورة العنيدة فيه ، ان يغيّر حياته تغييراً أساسياً وعميقاً في اتجاه آماله الانسانية الواسعة .. وان الشعب المصري في يوم بدء ثورته المجيدة .. أدار ظهره نهائياً لكل الاعتبارات البالية التي كانت تبدد قواه الايجابية ، وداس بأقدامه على كل الرواسب المتخلفة من بقايا قرون الاستبداد والظلم ، وأسقطوا الى غير ما رجعة ، جميع السلبيات التي كانت تحد من إرادته في إعادة تشكيل حياته من جديد . وإن طاقة التغيير الثوري التي فجرها الشعب المصري تتجلى بكل القوى العظيمة الكامنة فيها ، اذا ما عادت الى الذاكرة كل جحافل الشر والظلام التي كانت تتربص بكل عود اخضر للأمل ، ينبت على وادي النيل العظيم .

ان إرادة الثورة في تلك الظروف الحافلة لم تكن — على حد تعبير الميثاق ايضاً [1] — تملك من دليل للعمل غير المبادىء الستة المشهورة [2] التي نحتتها إرادة الثورة من مطالب النضال الشعبي واحتياجاته . ولقد كان مجرد اعلانها في حد ذاته ، في جو المصاعب والخطر والظلام ، دليلاً على صلابة ارادة التغيير الثوري وعنادها الذي لا يلين :

١ — في مواجهة جيوش الاحتلال البريطاني الرابضة في منطقة قناة السويس ، كان المبدأ الأول هو : « القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين » .

---

(١) الميثاق – ص ٦ .
(٢) وهي المبادىء التي تضمنها بيان الثورة الاول ، الذي ألقاه من الاذاعة انور السادات .

٢ — في مواجهة تحكم الاقطاع الذي يستبدّ بالأرض ومن عليها ، كان المبدأ الثاني هو : « القضاء على الاقطاع » .

٣ — في مواجهة تسخير موارد الثورة لخدمة مصالح مجموعة من الرأسماليين، كان المبدأ الثالث هو: «القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم».

٤ — في مواجهة الاستغلال والاستبداد الذي كان نتيجة محتمة لهذا كله ، كان المبدأ الرابع هو : « إقامة عدالة اجتماعية » .

٥ — في مواجهة المؤمرات لإضعاف الجيش واستخدام ما تبقى من قوته لتهديد الجبهة الداخلية المتحفزّة للثورة ، كان الهدف الخامس هو : « إقامة جيش وطني قوي » .

٦ — في مواجهة التزييف السياسي الذي حاول أن يطمس معالم الحقيقة الوطنية ، كان الهدف السادس هو : « إقامة حياة ديموقراطية سليمة » .

●

وإذا كانت هذه المبادىء الستة هي منطلق الثورة الى أهدافها ، فإنّ ذلك لم يكن يعني، في اي حال ، جمود الثورة ، ووقوفها عند حدود هذه المبادىء ، لأن الشعب المصري والجيش المصري تلاحما في وحدة عضوية رائعة ، وسارا جنباً الى جنب ، في سبيل انجاح الثورة ومبادئها ، وفي سبيل إيجاد نظرية كاملة للتغيير الثوري المطلوب في المجتمع المصري ، ثم في سبيل إطلالة قومية ودولية يكون لها الأثر العظيم الرائد، في تحرير الشعوب المغلوبة على أمرها ، من أنيار جلاديها ، ومغتصبي ثرواتها .

ومن هنا مضي المسيرة ، واستمرار الموكب الثوري ، والعمل الدائب على تعميق النضال ، وتوسيع مضمونه ، وبسط مداه . فلقد كان الشعب العظيم هو المعلم الاكبر — على حد تعبير جمال عبد الناصر ، في الميثاق — الذي جعل

على عاتقه، في أعقاب بدء العمل الثوري في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ ، عمليتين تاريخيتين لهما آثارهما الضخمة :

١ ــ ان هذا الشعب المعلم راح ، أولاً ، يطور المبادىء الستة ويحركها بالتجربة والممارسة وبالتفاعل الحيّ مع التاريخ القومي تأثراً به، وتأثيراً فيه، نحو برنامج تفصلي يفتح طريق الثورة الى أهدافها اللامتناهية .

٢ ــ ثم إن الشعب المعلم راح ، ثانياً ، يلقن طلائعه الثورية أسرار آماله الكبرى ، ويربطها دائماً بهذه الآمال ، ويوسع دائرتها بأن يمنحها ، كل يوم ، عناصر جديدة قادرة على المشاركة في صنع مستقبله . [١]

وإذا كانت ارادة التغيير الثوري هي أهم ما تجلى ، في قيام الثورة المصرية ، في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ ، فإن الخطوات التالية للثورة كانت تجسيداً رائعاً لهذه الإرادة التي لم تنعكس آثارها على مصر ، وحسب ، وإنما شملت ، كما أسلفنا أكثر من مرة ، المجالين العربي والدولي ، وبنوع خاص المجال الافرو أسيوي .

وإذا شئنا ، ههنا ، ان نواكب المسيرة البطولية للثورة ، في تسلسل تاريخي يتناول أبرز نقاطها أمكننا تلخيص هذه النقاط فيما يلي :

ــ وقّع الملك فاروق وثيقة التنازل عن العرش ، وغادر البلاد ، بعدما اعتبر من رؤوس الخيانة ، وأعوان الاستعمار المتواطئين على مصلحة الوطن ، وذلك في ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٢ .

ــ في ٣٠ تموز (يوليو) ١٩٥٢ ، ألغيت جميع الرتب والألقاب التي كان يحملها اعداء الشعب ويخدعونه بها ، وذلك كما حدث يوم تزّعم سلطان باشا حملة الخيانة سنة ١٨٨٢ .

---

(١) الميثاق ، ص : ٨ .

– صدر في ٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ ، قانون الاصلاح الزراعي الأول الذي حرّر الفلاح ، وأعاد اليه أرضه ، وأنهى بذلك سلطة رجال الاقطاع الذين كانوا يستندون الى تملك الأراضي الشاسعة، للتمادي في طغيانهم وغرورهم واحتقارهم للفلاحين ، أصحاب الأرض الأصليين الحقيقيين .

– في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٢ أعلن سقوط دستور عام ١٩٢٣ الذي كان يستند اليه اعداء الشعب ، مخادعين الشعب بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، بينما كانت في واقع الحال ، مستعمرة تخضع للنفوذ البريطاني .

– حلت جميع الأحزاب السياسية ، في ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢ ، وأنهيت تجمعات سائر اعوان الاستعمار الذين انخرطوا في سلك بعض هذه التجمعات ، او انتسبوا الى بعض تلك الاحزاب السياسية ، لمخادعة الشعب ، والوصول الى كراسي الحكم .

– في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٥٢ وّقعت اتفاقية السودان وأعلنت مصر رأيها في منح الشعب السوداني حق تقرير المصير . وفي شهر شباط (فبراير) هذا ، بدأت المرحلة الحاسمة في قضاء الثورة على الاستعمار في البلاد ، اعواناً وأفكاراً ، وذلك عندما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر ، في مؤتمر شعبي اقيم في « شبين الكوم » كلمته المشهورة :

« على الاستعمار ان يحمل عصاه على كاهله ويرحل ، او يقاتل حتى الموت دفاعاً عن بقائه » .

– في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٥٣ بدأت الاحداث التي مهدت للجلاء ، فضلاً عن القضاء على أعوان الاستعمار ، وبذلك آلت النتيجة الى تحرير البلاد من أعدائها في الداخل ، ومن أعدائها في الخارج .

– في ٢١ ايار (مايو) ١٩٥٢ سحبت بريطانيا سفيرها من مصر ، وفي ١٣

تموز (يوليو) ، وبسبب اختفاء أحد الجنود البريطانيين ، وجهت بريطانيـــا انذاراً الى مصر ، فرفضت مصر هذا الانذار .

ـ وقد اعلن جمال عبد الناصر ، في ١٥ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٣ ، في مؤتمر شعبي أقيم بميدان الجمهورية ، اتخاذ بعض الاجراءات الحاسمة ضد عدد من السياسيين المحترفين الذين ثبت اتصالهم بدول اجنبية للتآمر على الثورة ومسيرتها .

ـ وفي ١٦ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٣ شكلت محكمة الثورة التي قامت بمحاكمة الخونة المتآمرين والمتعاونين مع الاستعمار ضد مصلحة مصر .

ـ ثم ان الجنود البريطانيين بدأوا في ١٨ آذار (مارس) سنة ١٩٥٤ يتحرشون بالمواطنين المصريين ويعتدون عليهم في منطقة قناة السويس .

ـ وقد حاولت بريطانيا في ٢ نيسان (ابريل) سنة ١٩٥٤ ان توجد تسوية لمشكلة قناة السويس، وذلك عن طريق اعتبارها منطقة غير عسكرية، وإحلال ادارة دولية مدنية ، تقوم فيها القوات البريطانية .

ـ في ٢٧ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٤ ، وقّعت اتفاقية الجلاء عن مصر بالأحرف الاولى،ثم ان الاتفاقية النهائية وقعت في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٥٤ .

ـ ثم توالت بعد ذلك الاحداث ، والمؤامرات على مصر ، جيشاً وشعباً ، الى ان كان يوم ٢٦ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٦ ، حيث أقيم مؤتمر شعبي في الاسكندرية ، في عداد احتفالات عيد الثورة ، وأعلن فيه جمال عبد الناصر قراره التاريخي بتأميم شركة قناة السويس ، وردّ بذلك حق الشعب العربي في قناة السويس ، في مواردها ، وفي عائداتها ، من اجل بناء المجتمع الجديد، مجتمع العدل والكفاية .

ـ وكان تأميم قناة السويس (وسوف نفصل الحديث عنها في فصل قادم)

من أهم الاسباب والدوافع التي حملت بريطانيا وفرنسا واسرائيل على العدوان الثلاثي.. فقد وجّهت بريطانيا وفرنسا في ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٥٦ انذاراً الى مصر ، في تمثيلية محكمة الفصول تدلّ على مهازل السياسة الدولية المتمسّحة بقيم الحق والعدالة وتقرير المصير ، تطلبان فيه انسحاب القوات المصرية الى مسافة عشرة اميال من قناة السويس ، وأن تقبل مصر احتلال اراضيها بواسطة القوات الفرنسية والبريطانية . وحدّد الانذار موعداً للاجابة عليه في الساعة ٦ و ١٠ دقائق من صباح ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٥٦ ، وإلا فان بريطانيا وفرنسا تتدخلان بالقوة ، بالقدر الذي تريانه ضرورياً لضمان اجابة مطالبها .

– رفضت مصر الانذار ، وبدأت في ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٥٦ القوات البريطانية والفرنسية العدوان على مصر ، بالاغارة على المطارات.

– في اول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ ، اتجه الرئيس جمال عبدالناصر الى الأزهر ، وأعلن من على منبره ان مصر ستقاتل حتى النصر ، وأن التاريخ يعيد نفسه ،وأن مصر كانت دائماً مقبرة للغزاة ، وأن الشعب المصري سيحارب من بلد الى بلد ، ومن بيت الى بيت . وانتصر شعب مصر في المعركة ، بعد ان تألب الرأي العام الدولي على المعتدين .

– في اول كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٧ ، أقدمت الحكومة المصرية على إلغاء اتفاقية الجلاء المبرمة في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٥٤ بين مصر وبريطانيا ، واعتبرت هذه الاتفاقية منتهية منذ الساعة السادسة والدقيقة العاشرة من مساء ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٥٦ ، وهو موعد انتهاء مهلة الانذار ، وابتداء العدوان الثلاثي الغاشم على مصر .

– وأصدر جمال عبد الناصر ، في ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٧ قراراً يقضي بتشكيل الاتحاد القومي للعمل على تحقيق الأهداف التي من اجلها

قامت الثورة ، وحث الجهود لبناء الأمة بنـــاء سليماً من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية

– في ١٩ تموز (يوليو) سنة ١٩٥٧ صدر قانون يقضي بتمصير مؤسسات الاوراق المالية، كما صدر قانون يجعل البنك الأهلي هو البنك المركزي للدولة، ومنحه سلطة القيـــام بتنظيم السياسة الائتمانية والمصرفية ، والاشراف على تنفيذها .

– قامت الوحدة في اول شباط ١٩٥٨ بين مصر وسوريا ، وأطلقت على الدولة الجديدة تسمية « الجمهورية العربية المتحدة » ؛ وسوف نفصل الحديث على الوحدة ، في فصل قادم .

– وفي استفتاء أجري في اقليمي الجمهورية العربية المتحدة ، على الوحدة وشخص الرئيس جمال عبدالناصر، وافق ٩٩,٩٩ بالمئة من مجموع الناخبين على قيام الوحدة بين مصر وسوريا ، وعلى انتخاب الرئيس جمــال عبد الناصر رئيساً لها .

– وعلى أثر اعلان الوحدة بـين مصر وسوريا ، قامت اليمن (الملكية يومذاك) في ٨ آذار سنة ١٩٥٨ بتوقيـع اتفاقية تقضي بإقامة اتحاد فدرالي بينها وبين الجمهورية العربية المتحدة ، وإنشاء مجلس أعلى لاتحاد الدول العربية المتحدة . وبالمقابل ، ورداً على هذا العمل الوحدوي التقدمي ، قـام اتحاد رجعي آخر بين العرشين العراقي والاردني، انتهى بإعلان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق ، التي قضت على الملكية وأعلنت قيام الجمهورية .

– وفي ٩ كانون الثاني ١٩٦٠ ، بديء العمل لتحقيق أعظم حدث تاريخي في بناء النهضة العربية الحديثة ، إذ شرع في تنفيذ مشروع السد العــالي ، حيث اعطى الرئيس جمــال عبد الناصر اشارة بدء العمل في الساعة الثانية إلا عشر دقــائق ، إذ ضغط على زر كهربائي ، فنسف الديناميت ، وارتفع عشرون الف طن من الصخور في الفضاء .

– وكانت الحرب البـاردة بين الجبارين العالميين السوفياتي والاميركي على اشدها ، عندما انعقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، حيث ألقى جمـال عبد الناصر في ٢٧ كانون الاول ١٩٦٠ خطاباً ، باللغـة العربية ، اقترح فيه ان تصدر الجمعية العامة توجيهاً بضرورة اجتماع ايزنهاور وخروشوف ، وذلك لكي يحددا موعداً يتفقان فيه على نزع السلاح .

– وصدرت في ٢٥ تموز سنة ١٩٦١ « قوانين يوليو الاشتراكية » التي تنص على تأميم جميع البنوك وشركات التأمين ، والتي جعلت الحـد الاقصى للملكية الزراعية مئة فدان فقط، ونصت على إدخال العمال في مجالس ادارات الشركات ، وتوزيـع الارباح عليهم .

– في الثـامن والعشرين من ايلول سنة ١٩٦١ قامت في سوريا حركة الانفصال التي تعتبر ، أياً كانت اسبابها ودوافعها وملابساتها ، وأياً كان المجرم الذي هيأ لها ، نكسة العروبة الكبرى في تاريخها المعاصر ، وصفعة الجاهلية الحاقدة على وجه الوحدة العربية الناصعة الاشراق . وفي هذا التاريخ ، ألقى الرئيس جمال عبد الناصر بياناً من الاذاعة على الشعب ، شرح فيـه تطورات الموقف في سوريا، وأوضح ان الهدف من الانفصال هو القضاء على الاشتراكية. وفي الوقت ذاته ، اعلن رفض القيام بعمليات عسكرية ضد المنفصلين، وذلك حرصاً على الدم العربي الذي لا يرضى ان يسفك بيد عربية ، « ولأن الوحدة إرادة شعبية ولن أحولها من جانبي الى عمليات عسكرية » .

– وفي ٢١ ايار عام ١٩٦٢ ، قدم جمال عبدالناصر مشروع الميثاق للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية ، وقد أقرّ المؤتمر هذا الميثاق ، بعد مناقشات دارت على مـدى ايام . ويتألف الميثاق من عشرة ابواب ، تبدأ بنظرة عامة ، ثم تتحدث عن مواضيع اخرى هي ضرورة الثورة ، وجذور النضال المصري ، ودرس النكسة ، والديمقراطية السليمة ، وحتمية الحل الاشتراكي ، الانتـاج



صاحب الابتسامة الدائمة

والمجتمع ، مع التطبيق الاشتراكي ومشاكله ، الوحـدة العربية ، السياسة الخارجية .

ولا ريب ان تحليل الميثاق ، بمختلف ابوابه ، يتطلب مجلداً قائماً بذاته ، ولكن النظرة العاجلة الى ما تضمنه هذا الميثاق تؤكد على ان مسيرة الثورة المصرية لم تنكفىء عن طريقها السويّ ، لا بل ان نضالها قد تعمّق ، ومداها رحُب ، ومجالها اتسع ، وكان لها اكثر من لقاء مع حركات التحرر في الوطن العربي وفي العالم .

ولعل اكثر ما يستوقف القارىء للميثاق،الباب الذي يتحدث عن ضرورة الثورة ، لأن هـذا الباب يخطط المنهج السليم الذي اتبعته الثورة المصرية ، فضلاً عن كونه خلاصة الفكر الثوري العربي المعاصر الذي قامت عليـه الحركات الثورية العربية ، في اكثر من قطر عربي . يقول الميثـاق [1] : « لقد أثبتت التجربة ، وهي ما زالت تؤكد كل يوم، ان الثورة هي الطريق الوحيد الذي يستطيـع النضال العربي ان يعبر عليه من الماضي الى المستقبل . فالثورة هي الوسيلة الوحيدة التي تستطيـع بهـا الأمة العربية ان تخلص نفسها من الأغلال التي كبلتها، ومن الرواسب التي أثقلت كاهلها . فان عوامل القهر والاستغلال التي تحكمت فيها طويلاً ، ونهبت ثرواتهـا ، لن تستسلم بالرضا ، وإنما لا بد على القوى الوطنية أن تصرعها ، وأن تحقق عليها انتصاراً حاسماً ونهائياً .

والثورة هي الوسيلة الوحيدة لمغالبة التخلف الذي أرغمت عليه الأمـــة العربية كنتيجة طبيعية للقهر والاستغلال . فإن وسائل العمل التقليدية لم تعد قادرة على ان تطوي مسافة التخلف الذي طال مداه بين الأمة العربية وبـين غيرها من الامم السابقة في التقدم ، ولا بدّ — والأمر كذلك — من مواجهة

---

(١) الميثاق — الباب الثاني ، صفحة ١٥ .

جذرية للأمور تكفل تعبئة جميع الطاقات المعنوية والمادية للأمة لتحمل هـذه المسؤولية .

والثورة ، بعد ذلك ، هي الوسيلة الوحيدة لمقابـلة التحدي الكبير الذي ينتظر الامة العربية وغيرها من الامم التي لم تستكمل نموّها . ذلـك التحدي الذي تسببه الاكتشافات العلمية الهائلة التي تساعد على مضاعفة الفوارق ما بين التقدم والتخلف ، فإنها بما توصلت اليه من المعارف تيسر للمتقدمين ان يكونوا اكثر تقدماً ، وتفرض على الذين تخلفوا ان يكونوا – بالنسبة اليهم – اكثر تخلفاً برغم كل ما قد يبذلونه من جهود طيبة لتعويض ما فاتهم .

ان الطريق الثوري هو الجسر الوحيد الذي تتمكن بـه الامة العربية من الانتقال بين ما كانت فيه، وبين ما تتطلع اليه. ثم يحدد الميثاق ثلاث قدرات ينبغي ان تتسلح بهـا الثورة العربية حتى تستطيع الصمود لمعركة المصير التي تخوض غمارها اليوم، وحتى تنتزع النصر الذي يحقق أهدافها ، ويحطم الاعداء الذين يعترضون طريقها ، وهذه القدرات الثلاث المحددة في الميثاق هي :

اولاً : الوعي القائم على الاقتناع العلمي النابع من الفكر المستنير ، والناتج من المناقشة الحرة التي تتمرد على سياط التعصب او الإرهاب .

ثانياً : الحركة السريعة الطليقة التي تستجيب للظروف المتغيرة التي يجابهها النضال العربي ، على ان تلتزم هذه الحركة بأهداف النضال وبمثله الاخلاقية .

ثالثاً : الوضوح في رؤية الاهداف ومتابعتها باستمرار ، وتجنب الانسياق الانفعالي الى الدروب الفرعية التي تبتعد بالنضال الوطني عن طريقه ، وتهدر جزءاً كبيراً من طاقته .

– في الثامن من كانون الاول ١٩٦٢ ، صدر القانون الاساسي للاتحـــاد الاشتراكي العربي الذي ينص على ان الاتحاد الاشتراكي العربي هو الطليعة الاشتراكية التي تقود الجماهير ، وتعبّر عن إرادتها .

— وفي التاسع من شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣ ، أعطى جمال عبد الناصر إشارة البدء للعاملين في مشروع السد العالي .

— في ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٦٣ ، تمّ الاتفاق على إقامة اتحاد ثلاثي بين مصر وسوريا والعراق باسم « الجمهورية العربية المتحدة » ولكن هذا الاتحاد لم يقدّر له ان يظهر الى الوجود فعلاً لأسباب اقليمية تآمرية على كل خطوة يخطوها أي شعب عربي نحو الوحدة والتحرر .

ثم توالت الاحداث بسرعة ، وكانت كلها تمهّد لانفجار الصراع العربي الاسرائيلي على اوسع مداه، وإذا بإسرائيل تقوم في٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بعدوانها الغادر المفاجىء على الشعوب العربية ، في بعض الدول العربية ، مما أدى الى احتلالها لبعض الاراضي المصرية، والسورية والاردنية ، وعلى الاخص مدينة القدس التي ما لبث الاسرائيليون بواسطة مواطن استرالي مأجور ان تعد للمؤامرة الاسرائيلية على بيت المقدس . وقد استمرت الحرب العربية الاسرائيلية ستة ايام .

— بعد النكسة التي منيت بها الامة العربية ، توجه الرئيس جمال عبد الناصر مساء الثامن من حزيران (يونيو) سنة ١٩٦٧ ، يعلن عن طريق الاذاعة والتلفزيون تخليه عن منصبه كرئيس للجمهورية العربية المتحدة .

— ولكن الامة العربية خرجت في ٩ و١٠ حزيرن (يونيو) سنة ١٩٦٧ ، عن بكرة ابيها ، تطالب الرئيس جمال عبد الناصر بالبقاء في منصبه حتى تحرير الارض ، وحتى احراز النصر ، وقد استجاب الرئيس لهذه الرغبة الجماهيرية المتصاعدة اليه من مختلف أنحاء العروبة ، ما بين الخليج والمحيط .

— وفي الثلاثين من شهر آذار (مارس) ١٩٦٨ ، قدم جمال عبد الناصر الى الامة بياناً عرف باسم « بيان ٣٠ آذار (مارس) » كبرنامج عمل لسياسته ، ويقول فيه : « ليس هناك الآن ، ولا ينبغي ان يكون هناك صوت أعلى من صوت المعركة » .

ـ ولا يفوتنا في هذه العجالة ان نشير الى تدعيم الجمهورية العربية المتحدة للعمل الفدائي ، باعتباره الاسلوب الوحيد القادر على استرجاع الارض الفلسطينية المغتصبة ، والى تدعيم كل عون ادبي ومادي للثوار الفلسطينيين ، لا سيما وأن منظمة التحرير الفلسطينية بالذات كانت وليدة اول مؤتمرات القمة التي دعا اليها الرئيس جمال عبد الناصر .

ـ كما لا يفوتنا ان نشير ايضاً الى ألوان المساهمة الأخوية في تحرير سائر أجزاء الوطن العربي ، وتخليصها من الحكومات الرجعية التي كانت قائمة فيها، وحماية الثورات التحررية التي نشبت على ارضها ، في الجزائر ، والمغرب ، والعراق ، وسوريا ، واليمن ، والجنوب العربي ، وليبيا ، والسودان ..

ـ هذا فضلاً عن اعادة تسليح الجيش في مصر ، وتعبئة جميع الامكانات للمعركة الحاسمة التي تحدث عنها « بيان ٣٠ مارس » ، فجعل صوتها أعلى من كل صوت آخر ، وذلك رداً قوياً قادراً على هزيمة حزيران ١٩٦٧ .

ـ كذلك كان جمال عبد الناصر يمارس لونين من التحرك في سبيل نصرة القضية العربية الاولى ، قضية فلسطين : احد التحركين ، مارسه جمال عبد الناصر على الصعيد الخارجي ، فعبأ الرأي العام العالمي ضد شراذم الصهيونية المنتظمة في « دولة اسرائيل » ، وأعلن قبوله للحل السلمي المقترح في المشروع الاميركي للسلام في الشرق الاوسط ، شرط ان يكون في هذا الحل ما يضمن تحرير الارض المغتصبة ، والاعتراف بحقوق شعب فلسطين ، وبذلك وضع العالم كله امام حقيقة السياسة الاسرائيلية العنصرية المخادعة ، وأحرج بالتالي دولة اسرائيل التي عملت بكل قواها على عرقلة مهمة السفير الدولي الدكتور غونار يارينغ ، بعدما أعلنت قبولها في الظاهر ، للحل العادل لقضية فلسطين .

وثاني التحركين السياسيين من جانب جمال عبد الناصر ، كان على الصعيد العربي ، اذ عمل باخلاص وطني ، وتفانٍ لا نظير له ، على رأب الصدع القائم

بين رفاق السلاح ، من رجال السلطة في الاردن ، ورجال المقاومة الفلسطينية الفدائيين وجمع بين القلوب المتنافرة في كثير من المحبة ، والولاء القومي الرائع ، وكان « اتفاق القاهرة » ثمرة هـــذا اللقاء بين الثوار الفلسطينيين ، والسلطة الاردنية .

— وفي الساعة الخامسة من مساء ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، أغمض جمال عبد الناصر عينيه على آخر نظرة الى هـذا العالم الفاني ، وهو ما يزال مناضلاً في الساحة العربية ، فسقط شهيد مرؤته ، وكفاحه ، وعروبته .

●

وبعد ، فاذا كانت هـذه النقاط الوجيزة هي بعض العلامات الفارقة على طريق ثورة عبد الناصر ، فان بعضاً من هـذه النقاط الاساسية الهامة يحتاج الى مزيد من التحليل الذي تتضمنه الأبحاث التالية ، قدر ما يسمح به المجال ، وأول هـذه النقاط : مؤتمر باندونغ وسياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز .

مؤتمر باندونغ وسياسة عدم الانحياز

كان لا ُبدّ للدول النامية ، الحديثة الاستقلال ان تتنادى الى اتخاذ موقف سياسي موحــد ازاء الصراع الظاهر والخفي القائم بين المعسكرين الغربي والشرقي ، وإزاء الحرب الباردة التي تذر قرنها في جميع المشاكل الدوليـة الرئيسية ، حتى غدت الدول الصغيرة في العالم معرّضة للدوران في فلك أحد المعسكرين ، وهو امر يتنافى وأبسط مبادىء الاستقلال والسيادة .

وهكذا ، اجتمع في مدينة بوغور بتاريخ ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٤ ، بناء على اقتراح « شيري نهرو » رئيس حكومة الهند ، و«ساسترو ميجوجو » رئيس حكومة اندونيسيا ، ممثلون عن دول كولومبو الخمس (الهند ، الباكستان ، اندونيسيا ، بورما ، وسيلان) ، وقرروا توجيه دعوة الى مؤتمر آسيوي افريقي ، وهو حدث لم يسبق له مثيل في التاريخ ، لأنه اول مؤتمر انعقد بين ممثلين عن قارتين تضمّان اكثر من نصف سكان الأرض، تعانيان نفس المشاكل الدولية وتتطلعان الى مستقبل قريب تتحرران فيه بصورة كاملة [١] .

---

(١) الحقوق الدولية العامة – الدكتور فؤاد شباط – الطبعة الخامسة ١٩٦٤ ، مطبوعات جامعة دمشق ، صفحة ٢٩٦ .



فوق الثلوج الروسية

وبتاريخ ١٨ نيسان (ابريل) ١٩٥٥ ، اجتمع المؤتمر في اندونيسيا بمدينة باندونغ ، بحضور ممثلين عن ٢٩ دولة ، تضم مليارا وأربعمئة مليون نسمة ، باعتبار ان هؤلاء الممثلين ينتسبون الى كل من : الهند ، اندونيسيا ، بورمة ، باكستان ، سيلان ، لبنان ، ليبريا ، نيبال الفلبين، المملكة العربية السعودية، السودان ، افغانستان ، كمبوديا ، الصين الشعبية ، مصر ، الحبشة ، الشاطىء الذهبي ، سوريا ، تايلانه ، فيتنـــام الديموقراطية ، فيتنام الشعبية ، اليمن ، ليبيا ، ايران ، العراق ، اليابان ، المملكة الاردنية الهاشمية ، ولاوس .

أما اجتماعات المؤتمر ، فقد دامت حتى ٢٤ منه ، ولبت الدعوة اليه جميع الدول المدعوة ، ما عدا « اتحاد افريقية الوسطى » ، وأما الصين الوطنية ، وكوريا الشمالية ، وكوريا الجنوبيــة ، واتحاد جنوبي افريقيا ، واسرائيل ، فقد سبق للجنة التحضيرية للمؤتمر ان قرّرت عـدم توجيه الدعوة الى هذه الدول .

وفي هذا المؤتمر ، لعب الرئيس جمال عبد الناصر دوراً بارزاً على الصعيد السياسي ، جعله من أبرع السياسيين العالميين، ومن أشهر اقطاب سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز في العالم .

والواقع ان سياسة الحياد الايجابي التي أرسى جمال عبد الناصر دعائمهـا ، وجعلها فلسفة راسخة للشعب العربي كله ، لم تكن تعني الحياد العاجز الخائف السلبي الذي قـام مثله في سويسرا منذ مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، وفي النمسة منذ معاهدة فيينا التي اقرها حلفاء الحرب العالمية الثانية في ٥ ايار (مايو) سنة ١٩٥٥ ، وإنما هو يعني إلتزاماً بموقف ايجابي بعيد عـن الصراع العالمي الدائر بين المعسكرين الكبيرين، وهذا الحياد الايجابي الذي يدعى ايضاً بعدم الانحياز (Neutralité active ou positive) هو نتيجة طبيعية حتمية للتعايش السلمي بين الدول (La Coexistence pacifique). ولقد عرف بعض علماء القانون

الدولي العام [1] « الحياد الايجابي » بأنه يطلق على الموقف الوسط الذي تتخذه الدولة بالنسبة لعقيدتها السياسية ، في الحرب الباردة القائمة بين الكتلتين الشرقية والغربية ، منذ الحرب العالمية الثانية ، فتتجنب الانحياز لإحداهما او للأحلاف التي عملتا على إنشائها ، وتتعامل معها على قدم المساواة ، مستوحية في ذلك مصالحها القومية الخاصة ، دون ان تعترف لإحداهما بمركز ممتاز في الميدان الدولي ، مسالمة من يسالمها ومعادية من يعاديها من الدول [2] ، وعاملة على الحيلولة دون تحويل الحرب الباردة الى حرب حامية .

والواقع ان فكرة « الحياد الايجابي » او « عدم الانحياز » ، نشأت على أثر قيام فكرة الاحلاف العسكرية ، وبروز هذه الاحلاف الى حيز الوجود الفعلي . فلقد اتخذت بعض الدول الكبرى من المادتين ٥١ و٥٢ من ميثاق الامم المتحدة ذريعة واهية او مغلوطة لتكوين بعض التكتلات العسكرية المنتشرة اليوم في مثل شبكة مترابطة ، عبر انحاء الارض ، والمخالفة في طبيعتها للهدف الذي من اجله اجازت المادتان ٥١ و٥٢ إقامة المحالفات بين الدول الاعضاء في هيئة الامم المتحدة .

ويحسن بنا ، في هذا المقام ، ذكر نصوص المادتين ٥١ و٥٢ من الميثاق ، لنتبين على ضوئها مقدار التحول الذي اصاب الاحلاف القائمة ، ومقدار ابتعاد أهدافها عن الاهداف الدولية السلمية التي ترمي اليها المادتان المذكورتان .

ففي المادة ٥١ ، انه « ليس في هذا الميثاق من حكم يمس الحق الطبيعي في الدفاع عن النفس بصورة فردية او مجتمعة ، في حال الاعتداء المسلح على عضو من الامم المتحدة ، وذلك الى ان يتخذ مجلس الامن التدابير اللازمة لحفظ السلم والامن الدوليين ، ويعلم الاعضاء الذين مارسوا هذا الحق في الدفاع عن

---

(١) المرجع السابق ، صفحة ٦٥٨ .

(٢) ان للرئيس عبد الناصر عبارة شهيرة تعتبر دستوراً للحياد الايجابي وهي : « نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا » .

النفس ، مجلس الامن فوراً بالتدابير التي اتخذوها لهذه الغاية ، ولا تؤثر هـذه التدابير في الصلاحية التي يتمتع بهـا المجلس ، وفي الواجب الملقى على عاتقه بموجب هذا الميثاق للقيام ، في كل وقت ، بكل ما يراه ضرورياً لحفظ السلم والامن الدوليين او إعادتها » .

وفي المادة ٥٢ ، انه « ليس في هذا الميثاق ما يتعارض ووجود اتفاقات او جامعات اقليمية [١] ، تعالج القضايا التي تتعلق بحفظ السلم والامن الدوليين وتستدعي عملاً ذا طابع اقليمي ، ما دامت هـذه الاتفاقات او الجامعات ، وما دام نشاطها مؤتلفاً مع اهداف الامم المتحدة ومبادئها » [٢] .

وطبيعي ان الأخذ بهذه الفقرة فقط من المادة ٥٢ ، لإقامة بعض الأحلاف او الاتحادات المنحرفة عن الغـاية التي يرمي اليها الميثاق ، يتنافى وما نصت عليه الفقرتان الثانية والثالثة منها ، وهمـا الفقرتان المتضمنتان حقيقة الهدف من إباحة إقامة هذه الاتفاقات الاقليمية بين الدول . فقد نصت الفقرة الثانية من المادة ٥٢ نفسها على انه « ينبغي لأعضاء الامم المتحدة الذين يعقدون هذه الاتفاقات ، او يشكلون هـذه الجامعات ، ان يبذلوا ما بوسعهم من الجهد ، لحلّ الخلافات المحلية بصورة سلمية ، وبواسطة الاتفاقات او الجامعات المذكورة ، وذلك قبل عرض هذه الخلافات على مجلس الامن » .

ونصت الفقرة الثالثة من المـادة ذاتهـا على ما يلي : « يشجع مجلس الامن تسوية الخلافات المحلية بواسطة الاتفاقات او الجامعات الاقليمية ، سواء أكان ذلك بناء على طلب الدول صاحبة العلاقة ، او بناء على إحالة هـذه القضايا من لدن مجلس الامن » .

والمفهوم الواضح ان تسوية الخلاف ، والحفاظ على السلم الدولي ، لا يتفقان

(١) مثل جامعة الدول العربية ، واتحاد الدول الاميركية .
(٢) الفقرة ١ من المادة ٥٢ من ميثاق الامم المتحدة – الفصل الثامن – الاتفاقات الاقليمية.

وسياسة عرض العضلات ، وممارسة الضغوط المناسبة في الاوقات المناسبة او غير المناسبة ايضاً ، كما هي الحال بالنسبة للحلف الاطلسي ، مثلاً .

واذن فان نشوء هذه الاحلاف غير المتقيدة بأهداف الميثاق ، الساعية الى بسط النفوذ على العالم ، والى العمل على تغلغل ايديولوجية كل منها في بلدان العالم ، هو الذي حمل الدول الصغيرة النامية على الأخذ بفكرة الحياد الايجابي ، بعدما اتضح لكل ذي ناظر ان كل حلف يجرّ الى حلف آخر ، حتى اصبحت المواثيق القائمة في العالم اليوم ، بالاضافة الى ميثاق الامم المتحدة ، أصعب من ان تُحصى [1] .

والواقع ان مؤتمر باندونغ ، وإن جسّد فكرة الحياد الايجابي او عدم الانحياز ، فان الإرهاصة الاولى لهذا المؤتمر تمثلت في الاتفاق الصيني الهندي الخاص باقليم التيبت الذي وقّعه الطرفان بتاريخ ٢٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩٥٤ ، وتضمنت مقدمته المبادىء الخمسة التي تسمى باللغة الهندية « البانشاشيلا » ، وهذه المبادىء هي :

١ ــ الاحترام المتبادل بين الدول لاقليم كل منها وسيادتها

٢ ــ عدم الاعتداء

٣ ــ عدم تدخل دولة في الشؤون الداخلية لدولة اخرى

٤ ــ المساواة بين الدول ، وتبادل المنافع بينها

٥ ــ التعايش السلمي .

---

(١) ومن الأمثلة على هذه الاحلاف : ميثاق الاتحاد الغربي ، ميثاق حلف شمال الاطلسي ، ميثاق وارسو ، حلف جنوب شرقي آسيا ، حلف بغداد (وقد دعي بعد ثورة العراق ١٩٥٨ بالحلف المركزي) .

وبعدئذ جاء مؤتمر باندونغ الذي لمع فيه نجم الرئيس جمال عبد الناصر على صعيد السياسة الدولية . ومما قاله الرئيس عبد الناصر في الخطاب الذي ألقاه بتاريخ ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٥٥ امام المؤتمر: « ان فرض الدول الكبيرة سياسية معينة لتحقيق مصالحها الخاصة ، له أثره الضارّ على الدول الصغيرة ، فهو يعزلها ، ويفرق فيما بينها ، كما يُضعف الروابط والتعاون الذي قد يكون قائماً بينها ، وبذا تقع تحت السيطرة الاجنبية ، فإن على الدول الصغيرة ان تقوم بدورها الانشائي في سبيل تحسين العلاقات الدولية ، وتخفيف حدّة التوتر الدولي .

وثمة شيء آخر ، ذلك هو موضوع تصفية الاستعمار الذي طالما كان سبباً في الاحتكاك بين الدول ، وما يستتبعه من قلق ، فإنه منذ ان اتسعت رقعة الاستعمار ، اتسعت معه مشكلة نظام الحكم الاستعماري الأجنبي الذي كان دائماً مثار الحروب .

ولقد شاهدنا منذ سنين وما زلنا نشاهد ارتفاع موجة القومية ، لا في بلادنا والمناطق المجاورة لها فحسب ، بل في عدة أقطار اسيوية وافريقية ، ولقد علمتنا تجارب الحياة ان القومية ، اذا أحبطت ، ترتبت عليها عواقب وخيمة ، ونشأت عنها مشاكل عويصة ، وان الدول اذا تناولتها في حكمة وهوادة وواقعية ، أثمرت ثمراً طيباً من الصداقة والتفاهم والمحبة » .

وفي مثل هذه العبارات ، تمكن الرئيس جمال عبد الناصر من تحديد بداية الطريق الى سياسة عربية واقعية جديدة . وعلى ضوء ذلك قدم الرئيس جمال عبد الناصر لمؤتمر باندونغ المبدأين الهامين التاليين :

١ ــ يجب على كل دولة ان تحترم الاستقلال السياسي لأية دولة اخرى ، وأن ترعى العدالة الاقليمية فيها ، وألا تتدخل في شؤونها .

٢ ــ لكل دولة الحق في ان تختار ما تراه صالحاً لها من النظم السياسية والاقتصادية .

ثم ان جمال عبد الناصر ، فور عودته من باندونغ ، اعلن للشعب العربي في مصر خطة المستقبل في سياسة البلاد فقال في وضوح تام: « إن بلادنا اليوم لها كيان مستقل وشخصية مستقلة . وإنها حينما تتصرف من وحي هـذا الاستقلال ، انما تتصرف في الداخل وهي كاملة الاستقلال ، وفي الخارج وهي تشعر انها كاملة الاستقلال » .

وكان ان اسفر مؤتمر باندونغ عن مقررات تاريخية تسجل تحـولاً خطيراً في السياسة الدولية ، وتعلن عن قيام معسكر ثالث للدول المحايدة ، وكانت بنود المقررات العشرة كما يلي :

١ — احترام حقوق الانسان الاساسية وأغراض ومبادىء ميثـاق الأمم المتحدة .

٢ — احترام سيادة جميع الأمم وسلامة اراضيها .

٣ — الاعتراف بالمساواة بين جميع الاجنـاس وبين جميع الأمم كبيرها وصغيرها .

٤ — الامتناع عن اي تدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر .

٥ — احترام حق كل أمة في الدفاع عن نفسها انفرادياً او جماعياً ، وفقاً لميثاق الامم المتحدة .

٦ — (أ) الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأية دولة من الدول الكبرى. (ب) امتناع اي بلد عن الضغط على غيره من البلاد .

٧ — تجنب الاعمـال او التهديدات العدوانية او استخدام العنف ضد السلامة الاقليمية او الاستقلال السياسي لأي بلد من البلاد .

٨ — تسوية جميع المنازعات الدولية بالوسائل السلمية ، مثل التفاوض او

التوفيق او التحكيم او التسوية القضائية او اي وسيلة سلمية اخرى تختارها وفقاً لميثاق الامم المتحدة .

٩ – تنمية المصالح المشتركة والتعاون المتبادل .

١٠ – احترام العدالة والالتزامات الدولية .

ومن الواضح مدى التشابه القائم بين هذه المقررات ، ونصوص ميثاق الامم المتحدة ، وبنود « البانشاشيلا » .

وهكذا ، اعلنت مصر على لسان الرئيس عبد الناصر : « اننا في تصرفنا اليوم بالنسبة للسياسة الخارجية نتبع سياسة مستقلة » [١] .

ولقد أكد الرئيس عبد الناصر مقررات مؤتمر باندونغ، في مؤتمر «بريوني» بيوغسلافيا الذي عقد في شهر تموز ١٩٥٦ . حتى اذا أزفت الساعة لإعادة حق المصريين في قناة السويس الى المصريين انفسهم ، وأعلن جمال عبد الناصر في السادس والعشرين من تموز ١٩٥٦ تأميم شركة قناة السويس ، في مؤتمر الاسكندرية . قال متحدثاً عن السياسة الخارجية القائمة على الاستقلال والحياد الايجابي : « منذ ان اعلنت مصر سياستها الحرة المستقلة ، وبدأ العالم ينظر الى مصر ويعمل لها حساباً، فان الذين كانوا لا يعتدون بنا في الماضي،اصبحوا اليوم يعملون لنا حساباً..بدأوا يعملون للعرب وللقومية العربية الف حساب.. كنا في الماضي نتلطّع على مكاتبهم.. مكاتب المندوب السامي .. وبعد اعلان مبادئنا ، وبعد تكاتفنا وإقامة جبهة وطنية متحدة من ابناء هذا الشعب ضد الاستعمار والطغيان والتحكم والسيطرة والاستغلال ، اصبحوا يعملون لنا حساباً ، ويعرفون اننا دولة لها قيمتها .

---

(١) كان ذلك في خطابه بتاريخ ١٩ ايار سنة ١٩٥٥ امام مؤتمر باندونغ .

ونمت مصر في المجال الدولي، وكبرت قيمة الأمة العربية في المجال الدولي، وعمّت . وعلى هذا الاساس كان مؤتمر بريوني .

وأعلنت في المجالات الدولية ان مؤتمر بريوني قرر ان يتبع مبادىء باندونغ العشرة ، وقال في القرار الذي صدر : ان رؤساء الحكومات الثلاثة (يوغوسلافيا والهند ومصر) استعرضوا التطورات الدولية، ولاحظوا باغتباط ان سياسة بلادهم قد ساهمت في تخفيف حدة التوتر الدولي .

وناقش المؤتمر وسائل إنماء العلاقات بين الامم على اساس المساواة ، كما جاء في قرارات مؤتمر باندونغ . فقد اصدر قرارات ، واتخذ مبادىء المساواة ، واحترام حقوق الانسان الاساسية، واحترام سيادة الامم، وسلامة اراضيها ، والاعتراف بأحقية الشعوب في تقرير مصيرها ، كبيرها وصغيرها ، والامتناع عن اي تدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة ، والامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأية دولة من الدول الكبرى، بحجة اسم الدفاع ، لكي تخدم مصالحهم » .

وأوضح جمال عبد الناصر اهداف سياسة الحياد الايجابي، في مقام آخر[١] فقال : « ولعل اعتناق مصر لسياسة الحياد الايجابي، والابتعاد عن التكتلات واتباع سياسة عدم الانحياز ، كل ذلك تأييد ايجابي مثمر لفكرة التعايش السلمي .

وقد كان حضور مصر مؤتمر الدول الآسيوية والافريقية في باندونغ ، ومساهمتها بقسط وافر في اصدار قراراته المعروفة، وتمسكها بمبادئه في جميع المناسبات ، وكذلك ما انبثق عنه مؤتمر بريوني من توكيد تمسكها بهذه

---

(١) من حديث أدلى به جمال عبد الناصر الى جيري تشيرني ، مراسل وكالة الانباء التشيكوسلوفاكية في القاهرة .

المبادىء ، والعمل على توسيع نطاق الدول المؤمنة بها ، كل ذلك كان مساهمة فعالة في تأييد فكرة التعايش السلمي الايجابي » .

وكثيراً ما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر قيام العلاقة الوثيقة بين الايمان بالقومية العربية والعمل بسياسة الحياد الايجابي . فقد قال في حديث صحفي له [١] : « اننا نعمل دائماً بما توحي به القومية العربية واستقلال العرب وتمسكهم بالحياد الايجابي ومناهضة اسرائيل والصهيونية » . كذلك اوضح حتمية سلوك القومية العربية لسياسة الحياد الايجابي،على ضوء مضمون الحديث الذي أشرنا اليه منذ قليل ، فقال من خطاب له [٢] : « ظهر في المنطقة الحياد الايجابي وعدم الانحياز .. كلام سيؤمن به كل مواطن .. كل مواطن في المنطقة العربية كان ينادي بعدم الانحياز.. الحياد الايجابي، الدفاع عن المنطقة يجب ان ينبعث من المنطقة نفسها بدون الاشتراك مع أية دولة كبرى وضعت ضمن مناطق النفوذ .

وهناك مبادىء جديدة ظهرت للقضاء على أعوان الاستعمار ، القضاء على الاقطاع ، القضاء على الاحتكار ، القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم ، إقامة جيش وطني ، إقامة عدالة اجتماعية ، اقامة حياة ديمقراطية سليمة .

القومية العربية بدأت تعتنق هذه المبادىء .. والعرب في كل مكان بدأوا يشعرون ان هذه المبادىء وهذه الاهداف تعبّر عما يختلج في نفوسهم ، تعبّر عن الكلام الذي يريد كل واحد منهم ان يقوله ، تعبّر عن الشعارات الحقيقية التي تمثل القومية العربية ، والعزة العربية ، والحرية العربية .

---

(١) من حديث أدلى بـه عبد الناصر الى الصحفي الهندي كرانجيا الذي وضع أكثر من كتاب عن جمال .

(٢) من خطاب الرئيس في المؤتمر التعاوني بالقاهرة بتاريخ ٥ كانون الاول ١٩٥٧ .

وعلى هـذا ، بدأ الاستعمار معركته مع القومية العربية لتفتيتها ولوضعها في مناطق النفوذ .

لم تكن القومية العربية التي نادينا بهـا شعاراً عاطفياً ، او كلاماً مجاملاً ، لكن كانت القومية العربية تعبّر عن الشعور الحقيقي الذي يشعر بـه كل مواطن عربي . كانت القومية العربية تعبّر عما في أعماق نفس كل مواطن . عربي كانت القومية العربية ضرورة دفاعية ، وتضامناً عربيـاً ، وضرورة استراتيجية ، ومصلحة مشتركة ، وكانت القومية العربية هي الدفاع عن كل عربي ، وفي كل وطن عربي ، الدفاع عن كل وطن عربي في كل البلاد .

وكانت القومية العربية تمثل اتساع رقعة القتال اذا أراد الاستعمار أن يعتدي علينا كما اعتدى علينا في الماضي .

وكانت القومية العربية تمثل التضامن العربي بـين جميع الشعوب العربية والبلاد العربية » .

وواضح جـداً ان جمال عبد الناصر يعرف ما يريد ، وبالتالي فهو يعرف ان يقول ما يريد، لأن ما يريده مستمد من إرادة الشعب العربي المؤمن بقوميته العربية ، العامل على هدي مصلحته العليا ، المنسجم مع الحياد الايجابي الذي لا ينحاز الى معسكر من المعسكرات ، وإنمـا يدافع عن كرامته وحريته واستقلاله حتى النفس الاخير .

هـذه هي السياسة التي اتبعها عبد الناصر ، ثم « إن الواقع الذي حدّد معالم هذه السياسة ، هو الذي حتم على القومية العربية ان تعتنق سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز . فمعركة القومية العربية اليوم ، لا يمكن ان يتم فيها الانتصار على الاستعمار وأعوانه من الخونة المارقين طالمـا قامت فوق الارض العربية سياسة منحازة الى معسكر من المعسكرات . ووجود مناطق نفوذ فوق الارض العربية يعوق تقدم القومية العربية ونهوضها ، كما ان وجود حلف

عسكري بين أي بلد عربي وإحدى الكتل الكبرى في العالم يوقف تيار القومية العربية الزاحف »[1].

ان سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز هي السياسة التي لا محيد للأمة العربية عنها ، اذا شاءت ان تكون ذات استقلالية تامة في التعامل مع الماردين العالميين ومن يدور في فلك كل منهما من الدول ، وإلا فإن اي انحياز من الأمة العربية الى شرق او غرب يتنافى ومبدأ السيادة . وما لم تصبح دول الأمة العربية دولة واحدة كبرى ، فإنها عبثاً تعلن عن السيادة والاستقلال ، لأن تفتُّت جهودها ، وتشعُّب مسالكها ، لا يوردانها سواء السبيل الى الحياة القومية الرائعة التي تتطلع الى تحقيقها .

لذلك لم يعد يكفي لفكرة « عدم الانحياز »[2] ، على حد تعبير ابراهيم عامر ، ان تكون التعبير عن « الضمان الانساني » فقط ؛ ينبغي ان تصبح عاملاً فعالاً يعزز ، بما لدى دول عدم الانحياز من طاقات مادية وسياسية غير قليلة او ضعيفة ، العملية الايجابية في عالمنا المعاصر . ومن هنا تبرز ضرورة تنظيم امكانيات دول عدم الانحياز المادية والبشرية والسياسية ، وضرورة توسيع نطاق التعاون فيما بينها ، وتبادل المساعدات والخبرات في كل مجالات الحياة . وهذا ما أدركه دائماً الرئيس الراحل عبد الناصر ، عندما بذل أقصى الجهد في سبيل « التنمية والتحرر والاستقرار » ، مدركاً ان قوة الوطن في ذاته هي مصدر قوته لذاته وللآخرين . وهو ايضاً ما يدركه المستعمرون وعملاؤهم الصهيونيون ، عندما يبذلون من جانبهم اقصى الجهد في

---

(١) عشر سنوات في مشرق الشمس – لعبدالمنعم شمس – صفحة ٣٧ – طبعة تموز (يوليو) ١٩٦٢ – سلسلة كتب قومية – الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

(٢) المصور – العدد ٢٤٠٤ – نوفمبر ١٩٧٠ – صفحة ٢٣ .

سبيل عرقلة التنمية والتحرر والاستقرار في وطننا العربي ، بألف وسيلة ، ومنها وسيلة العدوان .

وهو ما ينبغي ان ندركه نحن الذين عشنا ١٨ سنة مع عبد الناصر ، وفي ظل قيادته الشجاعة ، ثم قدّر علينا ان نعيش من بعده ، لنواصل طريقه ، وأن نبحث ـ قدر استطاعتنا ـ عن الاجابات السليمة عن الاسئلة الصعبة التي تواجهها سياسة عدم الانحياز ..

قضية السويس والجلاء البريطاني

تعتبر قناة السويس ، من وجهة نظر القانون الدولي العام ، جزءاً من المياه الوطنية المصرية ، لأنها تقع بكاملها في الاقليم المصري ، وتصل مرفأ بور سعيد على البحر الابيض المتوسط بمرفأ السويس على البحر الاحمر .

أما أهميتها الستراتيجية فمردّها الى كونها شريان المواصلات الحيوي بين القارات الاربع : آسيا وأفريقيا وأوروبا وأوستراليا .

أما طول قناة السويس فيبلغ ١٦٠ كيلومتراً ، وقد أنشئت في عهد كانت مصر فيه ما تزال تابعة للامبراطورية العثمانية . أما الشركة الدولية التي أنشأت القناة فقد كانت بادارة المهندس الفرنسي « فردينان دي ليسبس »[١] .

ذلك ان اسماعيل باشا ، خديوي مصر ، عقد مع الشركة الدولية مقاولة امتياز لمدة ٩٩ سنة ، بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤ . ثم بتاريخ ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٦ جدّدت المقاولة ، وأُقرّت من جانب الباب العالي في ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٥٦ .

بـدأ العمل بها في ١٧ نيسان (ابريل) ١٨٥٩ ، وانتهى في ١٧ تشرين الاول (اوكتوبر) ١٨٦٩ وقد تضمّنت هذه الاتفاقية نصاً على حرية الملاحة

---

(١) حطم المصريون تمثاله ، اثر الاعتداء الثلاثي الغادر على مصر .



الى المعركة

الدولية في القنــاة ، مع حق الشركة في فرض بعض الرسوم الخاصة على مرور السفن فيها ، وذلك بالاتفاق مع حكومة مصر .

ثم ان تركيا أقرّت بتاريخ ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٦٦ الأسس المنوّه بها ، بموجب فرمان سلطاني ؛ كما انهـــا اصدرت بالاتفاق مع الدول الاوروبية بياناً مشتركاً في عام ١٨٧٣ ، أجازت بموجبه المرور الحر للمراكب الحربية الأجنبية ، في قناة السويس ، على قدم المساواة بين جميع الدول ، كما جعلت الملاحة فيها عامة ، بالنسبة للسفن التجارية ، والسفن الحربية ، وسفن نقل القوات العسكرية .

ولقــد سبقت لنا الاشارة الى الحوادث التي جرت عــام ١٨٨١ بين مصر وبريطانيا ، تلك الحوادث التي كانت سبباً لتخوّف الدول الاجنبية على مصير حقها في قناة السويس ، فانتهى الامر ، بعد مفاوضات ومباحثات طويلة ، الى عقــد اتفاقية القسطنطينية بتاريخ ٢٩ تشرين الاول (اوكتوبر) ١٨٨٨ بين تركيا (باعتبار ان مصر كانت تابعة لها) ، من جهـــة ، وبين فرنسا وألمانيا واسبانيا وبريطانيا والنمسا وهولندا وايطاليا وروسيا من جهة ثانية ؛ ولم تكن هذه الاتفاقية مغلقة ومقتصرة على موقّعيها ، وانما أبقيت مفتوحة لمن رغب من الدول الاخرى . أما المبادىء التي أقرتها اتفاقية القسطنطينية ، فكانت :

١) سيادة البـــاب العالي ومصر على القناة ؛ فحقّ الدفاع عنها محصور بمصر ، وكذا فرض النظام العام [١] .

٢) حرية الملاحة التجارية لجميع الدول في زمني السلم والحرب [٢] .

---

(١) المادة ١٠ من اتفاقية القسطنطينية المؤرخة في ٢٩ تشرين الاول (اوكتوبر) ١٨٨٨ ،
(٢) المادة الاولى من الاتفاقية ذاتها .

٣) حرية مرور البواخر الحربية عبر القنــاة ، شريطة ان تداوم سيرها دون توقف ودون ان يكون لها الحق في إنزال الجنود او العتاد .

٤) حياد القناة . فلا يمكن فرض الحصار عليها ، ولا مهاجمتها في زمن الحرب. ولكن الحكومة البريطانية أبدت تحفظاً على الاتفاق يتعلق بحق اطلاق يدها في قناة السويس « اثناء مدة احتلالها للقطر المصري » . وقد ألغي هذا التحفظ في بيان بريطاني فرنسي مشترك صدر في ٨ نيسان (ابريل) ١٩٠٤ .

والواقع ان هذه المبادىء طبقت قبـــل الحرب العالمية الأولى ، ولكن السلطات البريطانية عطلتها اثنـــاء الحرب ، إذ فرضت التفتيش على جميع السفن الأجنبية على بعد ثلاثة اميال من القناة، من جهة، ومن جهة ثانية اغلقت القناة في وجه سفن العدو .

وبعد الحرب العالمية الأولى انتقلت جميع الحقوق المقررة لتركيا في اتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨ الى مصر ، وأعيــد العمل بمبادىء الاتفاقية في المواد (١٥٢ — ٢٨٢) من معاهدة فرساي ، وفي المادة (٩٩) من معاهــدة لوزان ، وكذلك في المادة (٩) من الاتفاق العام المصدق من جانب « عصبة الامم » في ١٦ ايلول (سبتمبر) ١٩٣١ .

وعندما عقدت المعاهدة الشهيرة بين بريطانيا ومصر (معاهدة ٢٦ آب (اغسطس) ١٩٣٦)، ايدت المادة الثامنة من هذه المعاهدة مركز بريطانيا من القناة ، ومنحتها حق الاحتفاظ بقوات بريطانية قوامها في وقت السلم عشرة آلاف جندي ، كي تتعاون مع القوات المصرية في الدفاع عن قناة السويس ، وذلك الى أن يحين الوقت الذي يصبح فيه الجيش المصري مؤهلاً للقيام وحده بهذه المهمة .

وخلال الحرب العالمية الثانية ، استهدفت قناة السويس لأربع وستين غارة جوية من قبل دول المحور . ومن المستغرب ان يكون قـــد تم هذا الهجوم

عليها قبل ان تعلن الحرب على دول المحور [١] في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٤٥ ، تنفيذاً لأحكام المادة السابعة من معاهدة ١٩٣٦ البريطانية المصرية .

وبعد انتهاء العمل بمعاهدة ١٩٣٦ (وكان ذلك بالنسبة الى مصر بتاريخ ١٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥١) ، بدأت المفاوضات تجري بين الجانبين المصري والبريطاني ، بناء على اصرار مصر ، بقيادة جمال عبد الناصر ، على تحرير قناة السويس من الاشراف البريطاني ، وقد اقترنت هذه المفاوضات باتفاقية «الجلاء» بتاريخ ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ ، وصدر في ذلك اليوم بلاغ مشترك عن الجانبين جاء فيه :

« وقع اليوم في القاهرة رئيس وزراء مصر [٢] وزملاؤه أعضاء الجانب المصري ، ومستر ناتنج وزير الدولة بوزارة الخارجية البريطانية والسفير البريطاني ، وميجور جنرال بنسون اتفاقاً بشأن منطقة قاعدة السويس ، الغرض منه إقامة العلاقات المصرية الانجليزية على أساس من التعاون .

ولقد بذل الجانبان جهداً كبيراً ؛ ويسر الجانبين ان يعربا الآن ، باسم حكومتيهما، عن رغبتهما الصادقة في أن يعملا في تعاون وقوة لتحقيق أغراض الاتفاق ، وبهذا يمهدان لبعث روح جديدة من التفاهم والصداقة بين شعبيهما ».

ولكن « اتفاقية الجلاء » هذه ما لبثت ان ألغيت في اول كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٥٧ ، على أثر التطورات التي عقبت تأميم قناة السويس .

ففي الساعة السابعة من مساء السادس والعشرين من شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٥٦ ، وفي احتفالات العيد الرابع للثورة المصرية ، أعلن جمال عبد الناصر في مؤتمر عقد بميدان المنشية ، أعلن بصورة مفاجئة ، على العالم :

---

(١) الحقوق الدولية العامة – للدكتور فؤاد شباط – صفحة ٤٤٩ – طبعة ١٩٦٤ .
(٢) كان جمال عبد الناصر ما يزال ، يومذاك ، رئيساً لمجلس الوزراء .

« باسم الأمـــة .. تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس ، شركة مساهمة مصرية». وقد جاء التأميم بموجب القانون رقم ٢٨٥ تاريخ ٢٦ / ٧ / ١٩٥٦ ، وعهـد الى هيئة مصرية اختصاصية بإدارة القناة ، ومنحت الهيئة الشخصية الاعتبارية .

والواقع ان التأميم جـاء رداً على سحب اميركا لعرضها بتمويل بناء السد العالي ، وذلـك بقيادة جون فوستر دالس ، وزير خارجية الولايات المتحدة الاميركية الذي حاول محاولات مستميتة لايقـاف الجهود المصرية المبذولة من اجل التنمية ، وكذلك لعرقلة خطى النظام المصري الواقف بصلابة وعناد في وجه الاستعمار بكل اشكاله وصوره .

ولما كان جمال عبد الناصر على ثقة بأن من المسلمات الرئيسية لكافة القوى المناضلة من اجل السير بعمليات التطور الطويل المدى، تبدأ بإعادة سيطرة الأمة على اقتصادها ، وتأميم المصالح الاستعمارية الرئيسية ، فقد أعلن قراره بتأميم قناة السويس ، وبذلك بدأت معركة قاسية حشد لهـا الاستعمار كل طاقاته وإمكاناته ، وأبـدى فيها الشعب المصري ، ومن ورائه الشعب العربي اعظم ألوان البطولة والصمود .

أما التطورات الدولية التي حدثت على أثر اعلان عبد الناصر قرار التأميم ففيما يلي أبرز خطوطها منجهة القانون الدولي العام ومقررات الامم المتحدة[١] لا من ناحية العاطفة والانفعال والتصعب القومي :

على أثر تأميم القنـــاة ، اصدرت الحكومات الاميركية والبريطانية والفرنسية بياناً مشتركاً بتاريخ ٢ آب (اغسطس) ١٩٥٦ ، دعت بموجبه الدول الموقعة على معاهدة القسطنطينية وغيرها من الدول التي لهـــا مصلحة

---

(١) انظر في ذلك الصفحة ٤٥١ من « الحقوق الدولية العامة » للدكتور فؤاد شباط .

خاصة في استخدام القناة الى عقد مؤتمر في لندن بتاريخ ١٦ آب (اغسطس) سنة ١٩٥٦ .

انعقد مؤتمر لندن بحضور ٢٢ دولة واستنكاف كل من مصر واليونان ، وأنهى عمله في ٢٣ آب (اغسطس) بقرار اتخذ بالأكثرية (بمخالفة سيلان والهند وأندونيسيا والاتحاد السوفياتي ، وموافقة مشروطة من قبل اسبانيا) . وجرت بين ٣ و٩ ايلول (سبتمبر) في القاهرة مناقشات بين الرئيس المصري (جمال عبد الناصر) ولجنة خماسية ألفها المؤتمر من ممثلين عن استراليا والولايات المتحدة والحبشة وايران والسويد وكلفها اطلاع الرئيس على بيان المؤتمر ومحضر مناقشاته .

ولم يقبل الجانب المصري بمقررات المؤتمر التي لا تعترف بسيادة مصر على القناة ، وعلى أثر ذلك انعقد مؤتمر ثان في لندن ما بين ١٨ و٢١ ايلول (سبتمبر) ، ضمّ ممثلين عن الدول الثماني عشرة التي كانت وافقت على مقررات مؤتمر لندن الاول ، وكان من شأن المؤتمر الثاني انه اتخذ قرارين : احدهما يتعلق بحل « قضية القناة » بالطرق السلمية ، والثاني يعلن عن تأليف جمعية باسم « جمعية مستخدمي قناة السويس » ، وقد تشكلت هذه الجمعية في اول تشرين الاول (اوكتوبر) برئاسة وزير خارجية بريطانيا وسفراء السبع عشرة دولة الاخرى .

وفي هذه الاثناء ، وبتاريخ ١٢ ايلول (سبتمبر) تقدمت كل من المملكة المتحدة وفرنسا بشكوى الى مجلس الامن ، كما تقدمت الحكومة المصرية بشكواها بتاريخ ١٧ منه . فاجتمع المجلس بتاريخ ٢٨ ايلول وقبِل النظر في الاستدعاءين ، إلا انه قرر للشكوى الفرنسية ـــ الانكليزية الأولوية .

ثم انعقد مجلس الامن بتاريخ ٥ تشرين الاول (اوكتوبر) . وفي ليلة ١٣ — ١٤ منه ، اصدر قراراً مؤلفاً من شطرين : الاول ، وهو يتضمن ست نقاط

أساسية تناولت اساس الموضوع ، وقد أُقِرَّ بالإجماع ، والشطر الثاني سقط بسبب الفيتو السوفياتي ، وقد خالفه فيه ايضاً مندوب يوغوسلافيا .

ان قرار مجلس الامن المشار اليه ، يوحي بإجراء مفاوضات بين مصر من جهة ، وبين فرنسا وبريطانيا من جهة ثانية ، ولكن مثل هذه المفاوضات لم تتم ، لأن هاتين الدولتين بيّتتا لمصر ، بالاتفاق مع اسرائيل ، عدواناً منكراً يندى له جبين الانسانية خجلاً . فقد أعلنت اسرائيل التعبئة الجزئية بتاريخ ٢٨ و ٢٩ تشرين الاول (اوكتوبر) ، وخرقت قواتها خطوط الهدنة ، متجهة نحو جزيرة سيناء وقناة السويس .

وفي يوم ٣٠ تشرين الاول ١٩٥٦ ، وجّهت الحكومتان البريطانية والفرنسية نداء لمصر واسرائيل ، طالبة اليهما التوقف عن الاعمال الحربية ، وسحب قواتهما الى ُبعد عشرة اميال عن القناة ، كما لو لم تكن تلك القناة جزءاً من الاراضي المصرية وخاضعة لسيادة مصر . وعلاوة على ذلك ، فقد طلبت الحكومتان الى مصر ان تسلمها بور سعيد والاسماعيلية والسويس ، محدّدة لذلك اثنتي عشرة ساعة .

وفي الساعة الثامنة عشرة والنصف من مساء يوم ٣١ تشرين الاول ١٩٥٦ هاجمت القوات البريطانية الفرنسية الاراضي المصرية ، متعاونة بشكل سافر مع قوى اسرائيل ، فاستهدفت مصر لعدوان ثلاثي غاشم .

ولكن الشعب المصري ، بقيادة جمال عبد الناصر ، وقف وقفة رجل واحد . وفي يوم الجمعة ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ، اتجه جمال عبد الناصر الى الازهر ، ومن على منبره اعلن الصرخة المدوّية التي ما يزال يحفظها تاريخ التحرر في العالم :

« سنحارب .. سنحارب .. ولن نستسلم » .

وحارب شعب مصر ، وسانده الشعب العربي ، ولم يستسلم ، وانما دحر

العدوان ، وأدان الاستعمار أسوأ ادانة ، وكان انتصار جمال في المعركة إيذاناً بسقوط جمهوريات وحكومات استعمارية غاشمة .

وفي ٧ تشرين الثاني،وبعد تدخل مجلس الامن الدولي، أذعنت الحكومات المعتدية للحق ، وأوقفت عدوانها على ارض مصر العربية الحرة .

وكانت النتيجة الطبيعية للانتصار العربي على الاستعمار الغاشم المعتدي ، ان أعلنت مصر في اول كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ انهاء اتفاقية عام ١٩٣٦ المنعقدة بين بريطانيا ومصر ، فاضطرت بريطانيا بدورها الى اعلان انهاء العمل بالاتفاقية المذكورة في ١٣ شباط (فبراير) ١٩٥٧ .

واذا كانت مصر قد صمدت صموداً بطولياً في إفشال مخططات الاستعمار ، وضغوطه السياسية والاقتصادية ، وتدخلاته العسكرية المباشرة ، فان ذلك لم يكن مجرد صدفة، وإنما هو يُعزى الى عوامل رئيسية في السياسة المصرية[1]. يمكن ان نلخصها فيما يلي :

١ – الدراسة المسبقة التفصيلية للخطوة التي أقدمت عليها مصر، والحساب الدقيق للنتائج المحتملة ، والاستعداد لمواجهة هذه النتائج . فإذا كان قرار التأميم قد جاء كنتيجة لدراسة سابقة لمستقبل السويس ، قامت بدراسته لجنة شكلت بهذا الهدف وتقديم مشروعات بشأن القناة ؛ ودون مثل هذه الدراسة ، كانت الادارة الناجحة لقناة السويس تكاد تصبح مستحيلة .

٢ – وكما شملت الدراسة احتمالات الموقف بالنسبة للقناة ذاتها ، كذلك شملت الدراسة الموقف السياسي والعسكري . ويقول الرئيس (عبد الناصر) في حديثه الى « ده مورجان » ، مراسل الصنداي تيمز في حزيران (يونيو)

---

(١) راجع بحثاً للدكتور ابراهيم سعد الدين في مجلة « المصور » – العدد ٢٤٠٤ بتاريخ ٦ تشرين الثاني ١٩٧٠ بعنوان « كيف حول عبد الناصر الاستقلال الوطني من مجرد علم ونشيد الى سيطرة كاملة على الثورة القومية » .

١٩٦٢ : « كنت أعلم انني أجازف مجازفة مدروسة ، وكنتُ اعلم من تجربتي الخاصة مع أنتوني ايدن ، أنه سيحس بضرورة القيـــام بعمل لحماية المصالح البريطانية . ولكنني كنت ايضاً واثقاً ثقة كافية أن بريطانيا لم تكن تملك من القوات في كينيا وقبرص وعدن ، وهي أقرب قواعدها ، ما يكفيها للقيام بهجوم فوري .. وكنت أعتقد انه ريثما يُتاح لها تعبئة القوات الكافية للغزو ، يمكننا تعبئة الرأي العالمي ، وتهيئته للوصول الى حل سلمي » .

٣ — وقد استطاعت مصر بالفعل أن تعبيء الرأي العام العالمي الى جانبها : أولاً بجهودها الدبلوماسية ، واستعدادها في مؤتمر لندن للوصول الى أي حل يضمن حرية الملاحة في القناة دون التنازل قيد أنملة عن حق مصر في التأميم وأدارة قناة السويس . والأهم من ذلك هو ابراز قدرة مصر العملية على ادارة القناة ، عندما سحبت انجلترا وفرنسا نحو ٢٥٠ مرشداً في منتصف ليل ١٤ ايلول سنة ١٩٥٦ ، معتقدة بذلك انهـا ستُعجِز مصر عن توفير الملاحة الآمنة في القناة . فلم يكن قد بقي في القناة ، بعد هذا الانسحاب ، اكثر من ٢٦ مرشداً مدربـاً ، وثلاثين مرشداً تحت التدريب . ولكن حسم الادارة المصرية والعمل المتفاني الذي قام به المرشدون المصريون ، وتطوع عـدد من المرشدين من البلاد الاشتراكية والصديقة ، كل هــذا أدى الى القضاء على مؤامرة المقاطعة .

٤ — ان قدرة مصر على تعبئة الرأي العام العالمي ، والعربي بصفة خاصة ، الى جانبها ، تعود ايضاً الى سياستها التي سبق لهـا اعلانها ، وهي سياسة الاستقلال الوطني ومعـاداة الاحلاف وعدم الانحياز . فقد اصبحت قضية القناة ، بالنسبة لدول العالم الثالث ، وللدول العربية ، وللدول الاشتراكية ، قضية ذات مدلول علمي . فهي لم تكن بالنسبة لهذه القوى ، قضية تأميم او عدم تأميم احدى الشركات الاستعمارية ، بل تعدى ذلك لتصبح ، كما هي في

الواقع ، قضية الاستقلال الوطني للشعوب ، وحقهـا في تحرير اقتصادها من النفوذ الاستعماري .

ولما كان قرار دالاس بسحب تمويل السد العالي هو محاولة لتأديب مصر ، ومنعها من مزاولة سياستها المستقلة المتحررة، فان قرار تأميم القناة، والمعركة التي دارت من اجل تثبيت ذلك التأميم وإنجاحه ، تحولت في واقع الامر الى معركة للاستقلال الوطني والتحرر ومعاداة الأحلاف وعدم الانحيـاز . وعلى هذا الاساس ، استطاعت مصر ان تحصل على ذلك التـأييد الدولي الواسع لقرارها ، والدعم القوي له من كل القوى الوطنية والثورية في كافـة أرجاء العالم .

٥ — ان نجاح مصر في مقاومة الضغط الاقتصادي للاستعمار يعود كذلك الى السياسة التي اتبعتها مصر ، ابتداء من الاعوام الاولى للثورة بتحرير تجارة مصر الخارجية ، وعلاقاتها الاقتصادية الدولية ، من التبعية ، والاعتماد الكامل على اي دولة بالذات وخاصة على بريطانيا . فقد استطاعت مصر ان تفتح اسواقاً جديدة لحاصلاتها في العالم الاشتراكي، وفي بلاد العالم الثالث، مكنتها، فيما بعد ، من الصمود امام المقاطعة الاستعمارية .

هذه الاسباب مجتمعة أدت الى اجتياز مصر لكافة الامتحانات، لصلابتها، بنجاح رغم عنف الضغوط الاستعمارية . وقد سمحت هذه السياسة ايضاً بعزل القوى الاستعمارية الراغبة في استخدام القوة المسلحة حتى بين شعوبهـا ، مما اضطرها الى السرية الكاملة في التدبير لعدوانها . فلم تخف اهدافها ونواياها عن حلفائها فقط، بل ايضاً عن بعض قوى السلطة في البلاد المدبرة للعدوان.

وكانت هذه العزلة التي يعاني منهـا المعتدون هي التي فجّرت الرأي العام العالمي بقوة ليس لها مثيل، لمقاومة العدوان عند وقوعه . وأتاح صمود مصر ، للقوى الصديقـة ، ان تمارس ضغوطها من اجل وقف العدوان اولاً ، ثم من

اجل سحب القوى المعتدية من الارض المصرية ، بعد ذلك . وهكذا استقرت القناة نهائياً في يد مصر تديرها ، وتحسن ادارتها لصالح كل الشعوب .

●

واذا كان هذا ما حدث ، إثر العدوان الثلاثي الغاشم ، فان ما حدث إثر العدوان الاسرائيلي المتواطىء مع الاستعمار الاميركي في ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ ، وان أدى مؤقتاً الى اقفال قناة السويس ، بسبب احتلال اسرائيل احدى ضفتيها، فان العدوان لا بد زائل، وان الحق لا بد راجع الى اصحابه الشرعيين ، وبذلك ستعود قناة السويس الشريان الحيوي للمواصلات الدولية، وأحد المصادر الهامة في حياة مصر الاقتصادية .

الوحدة العربية وجريمة الانفصال

في عمر المرء مراحل ، لو استعاد ذكرياتها ، لأحسّ بالانقباض يعروه وهو يستعرض بعضها في خاطره ، ولشعر بالفرحة تغمره ، إذ يندرج بعض تلك الذكريات في عداد دواعي الزهو والمجد والفخار .

ولو سئلت ، أو سُئل معاصر لي ، اليوم أو بعد عشرات السنين ، عن أجمل ذكريات عمره القومية والشخصية ، على حدّ سواء ، لأجاب دون ما تردّد : إن حلم الوحدة العربية الذي جسّدته ارادة الشعبين المصري والسوري، في عام ١٩٥٨ ، بإعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة، ثم بانتخاب جمال عبد الناصر رئيساً لهذه الجمهورية ، هو اجمل ذكرياته ، وهو أشرف مراحل تاريخ أمته ، في العصر الحديث .

والحقيقة أن ما انتاب الأمة العربية ، في تاريخها الطويل ، من أسباب التخلف ، والوقوع تحت وطأة السيطرة الأجنبية ، والتفكك السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأن ما عانته هذه الأمة العربية من ويلات الحروب والنزاعات التي فُرضت عليها ، وهي لا ناقة لها فيها ولا جملاً ، إن ذلك كله كان من أهم الدوافع التي حملت أبناءها على الالتفات نحو تاريخها المجيد، والعمل بكل ما في وسعهم على جعل التاريخ العربي يعيد نفسه ، فكانت الوحدة العربية بين مصر وسوريا بداية الطريق .



جمال عبد الناصر وشكري القوتلي في عهد الوحدة

وكان كل الدستور المصري والدستور السوري قد نص صراحة على أن شعب كل من الدولتين هو جزء من الامـــة العربية . ولعل الاتفاقات التي تمت بين مصر وسوريا على الصعيد الثقافي والعسكري ، وفي مجـــال السياسة الخارجية الموحدة، وكذلك في مجال توحيد النظام الاقتصادي المتكامل الموجه، هي الأسباب التي ارتكزت عليها أولى الخطوات نحو قيام الاتحاد بين القطرين

الشقيقين ، وذلك وفقاً لما ورد على لسان وفد مجلس الأمة المصري ، وأعضاء اللجنة البرلمانية السورية للشؤون الخارجية، في اجتماعها المشترك الذي انعقد في مدينة « دمشق » بتاريخ ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ ، واقترحا أن يصار الى الاقتراع على « الاتحاد الفيدرالي » بين الدولتين الشقيقتين ، فحاز الاقتراح على الموافقة الاجماعيةفي الجلسة المشتركة التي انعقدت في التاريخ ذاته، وضمت بالاضافة الى النواب السوريين ، سبعة وثلاثين عضواً من مجلس الأمة المصري. ودعا المجتمعون « حكومتي مصر وسورية للدخول فوراً في مباحثات مشتركة بغية استكمال أسباب تنفيذ هذا الاتحاد »[١] .

وبعد الاجماع على هذا الاقتراح ، ودعوة الدولتين الى اتخاذ الخطوات اللازمة لاستكمال اجراءات الوحدة ، تكررت الاجتماعات المشتركة بين المسؤولين في القطرين الشقيقين ، وأسفرت عن صدور « بيان الوحدة » المؤرخ في اول شباط سنة ١٩٥٨ الذي نورد فيما يلي نصه الحرفي ، نظراً لأهميته التاريخية :

« في جلسة تاريخية عقدت في قصر القبة في القاهرة في الثاني عشر من رجب سنة ١٣٧٧ الموافق اول فبراير ١٩٥٨ اجتمع فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية وسيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر بممثلي جمهورية سوريا ومصر السادة (تلي الاسماء) ..

وكانت غاية هذا الاجتماع ان يتداولوا في الاجراءات النهائية لتحقيق إرادة الشعب العربي ، ولتنفيذ ما نص عليه دستور الجمهوريتين من ان شعب كل منهما جزء من الامة العربية ؛ كذلك تذاكروا ما قرره كل من مجلس الامة المصري ومجلس النواب السوري من الموافقة الاجماعية على قيام الوحدة

---

(١) الجريدة الرسمية السورية ، خلاصة جلسات مجلس النواب — الدور الاشتراعي السادس، الدورة السابعة ، الجلسة الحادية عشرة .

بين البلدين كخطوة اولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة ، كما تذاكروا ما ترامى في السنين الاخيرة من الدلائل القاطعة ان القومية العربية كانت روحاً لتاريخ طويل ساد العرب في مختلف اقطارهم وحاضر مشترك بينهم ومستقبل مأمول من كل فرد من افرادهم وانتهوا الى ان هذه الوحدة التي هي ثمرة القومية العربية هي صوت العرب الى الحرية والسيادة وسبيل من سبل الانسانية للتعاون والسلام .

فلذلك ، فان واجبهم ان يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الاماني الى حيز التنفيذ في عزم ثابت وإصرار قوي .

ثم خلص المجتمعون من هذا كله الى عناصر قيام الوحدة بين الجمهوريتين السورية والمصرية وأسباب نجاحها قد توافرت ، بعد ان جمع بينها ، في الحقبة الاخيرة ، كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحاً ، وأكد انها حركة بناء وتحرير وعقيدة تعاون وسلام .

كذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام وإيمانهم الكامل وثقتهم العميقة في وجوب توحيد سوريا ومصر في دولة واحدة اسمها «الجمهورية العربية المتحدة».

كما يعلنون اتفاقهم الاجماعي على ان يكون نظام الحكم في الجمهورية العربية المتحدة ديمقراطياً رئاسياً ، يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة ، يعاونه وزراء يعينهم ويكونون مسؤولين امامه ، كما سيتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد ، ويكون لهذه الجمهورية علم واحد يظلل شعباً واحداً في وحدة يتساوى فيها ابناؤها في الحقوق والواجبات ، ويدعون جميعاً لحمايتها بالأنفس والمهج والأرواح ، ويتسابقون لتثبيت عزتها وتأكيد مناعتها ، وسيتقدم كل من فخامة الرئيس شكري القوتلي وجمال عبد الناصر ببيان الى الشعب يلقى امام مجلس النواب السوري ومجلس الأمة المصري في يوم الاربعاء السادس عشر من رجب ١٣٧٧ الموافق الخامس من فبراير ١٩٥٨ يبسطان فيه ما انتهى اليه هذا الاجتماع من قرارات ويشرحان أسس الوحدة التي

تقوم عليها دولة العرب الفتية ، كما سيدعى الشعب في سوريا الى استفتاء على أسس الوحدة وشخص رئيس الجمهورية .

والمجتمعون إذ يعلنون قراراتهم هـــذه ، يحسون بأعمق السعادة وأجمل ألوان الفخر إذ شاركوا في الخطوة الإيجابية في طريق وحدة العرب وتضامنهم، تلك الوحدة التي عاشت تملأ قلوب العرب كأمل مرموق وهدف عظيم، حقبة بعد حقبة ، وجيلاً بعد جيل . والمجتمعون إذ يقرّرون وحـــدة البلدين ، يعلنون أن وحدتهم تتوخى جمع شمل العرب ويؤكدون أن باب الوحدة مفتوح لكل بلد عربي يريد أن يشترك معها في وحدة أو اتحاد يدفع عن العرب الأذى والسوء ويعزّز سيادة العرب ويحفظ كيانهم .

والله نسأل أن يكلأ هذه الخطوة وما يتلوها من خطوات بعين رعايتـــه الساهرة وبفضل عنايته السابغة ، وأن يكتب للعرب في الوحدة العزة والسلام .

●

وهكذا كان ، ففي ٥ شباط (فبراير) ١٩٥٨ تلا الرئيس شكري القوتلي بياناً في مجلس النواب السوري استعرض فيه تطور القضية العربية منذ العهد العثماني حتى ولادة الجمهورية العربية المتحدة . ورشح جمال عبد الناصر لرئاسة الجمهورية، وعيّن يوم ٢١ شباط موعداً لاجراء الاستفتاء على الوحدة وشخص الرئيس . وكذلك ألقى جمال عبد الناصر بيانـــاً في مجلس الأمة المصري ؛ واتخذ في الجلسة ذاتها كل من المجلسين قراراً بتأييـد بيان كل من الرئيسين ، وجرى الاستفتاء في سوريا ومصر ، وطرح فيه على الشعب السؤالان الآتيان:

١ ـــ هل توافق على وحدة سورية ومصر في الجمهورية العربية المتحدة !

٢ ـــ هل توافق على انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربيـة المتحدة !

فكانت النتيجة ايجابية ، وأعلن ذلك رسمياً [1] في ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨ الذي اعتبر عيداً للوحدة العربية .

وطار جمال عبد الناصر ، بعد ذلك الى دمشق . والذي لم يشاهد الجماهير الهادرة الثائرة الزاحفة ، في ذلك الوقت ، الى دمشق لاستقبال البطل الظافر ، لم ييسر له القدر سبيل الوقوف على تعلق الأمة بالزعيم القائد الرائد.

لقد كنتُ في عداد الجماهير اللبنانية الزاحفة الى العاصمة السورية ، على مقربة جداً من قصر الضيافة الذي كان جمال عبد الناصر يخاطب منه أبناء العروبة القادمين لاستقباله من كل مكان . ومتى عدتُ الى نفسي ، اليوم ، أسترجع ذكرياتها عن ذلك العهد المشرق من تاريخ العروبة ، كدتُ لا أصدّق ان ما رأته عيناي هو حقيقة واقعة ، لا سراب أحلام . والى هذا أشرت في قصيدتي « كلنا عرب » [2] حين قلت :

كأنَّ ساحرة شدّت عيونهم الى جمالٍ ، وغابت دونه الشهبُ
تلك المحبة لن تفنى وفي دمهم نارٌ تموجُ وفي أعراقهم لهبُ

والى هذا أيضاً أشرت، في رثائي للبطل الراحل وعنوانها «مارد النيل»[3] حين قلت :

ذكرتك يا معلم كل جيلٍ وقد حضنتك بالشوقِ الشآمُ
فلما قُمتَ في شعبي خطيباً أصاخَ الضوءُ واشتعَل الغمامُ

---

(١) أعلنت النتائج في مصر بموجب قرارين مؤرخين في ٢٢ / ٢ / ١٩٥٨ صادرين عن وزير الداخلية ، وفي سوريا بموجب المرسوم رقم ٨٠٦ تاريخ ٢٢ / ٢ / ١٩٥٨ المتخذ بناء على قرار مجلس الوزراء رقم ١٩٥ تاريخ ٢٢ / ٢ / ١٩٥٨ .

(٢) راجع ديواني « تحت الرماد » صفحة ٤٧ — دار المفكر في القاهرة — طبعة ١٩٦٧ .

(٣) نشرت في جريدة « المحرر » اللبنانية بتاريخ ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ ، وألقيت في سينما « بيروت » ، وبلدة القماطية ، ونادي متخرجي جامعة بيروت العربية .

هتفت بنا فجلجل منكَ صوتٌ على نبراتـــه رقصَ الوئامُ ،
تملّتـــك العيونُ فكلُّ هدبٍ له في هدْب عينيك ابتسامُ

●

وفي الثامن من آذار (مارس) ١٩٥٨ ، وقـــع في دمشق ميثاق « اتحاد الدول العربية » بين الجمهورية العربية المتحدة (بإقليميها) ، والمملكة المتوكلية اليمنية ، على أساس فيديرالي ذي نسيج خاص ، ولكن هـــذا الاتحاد انحل بتاريخ ٢٥ كانون الأول ١٩٦١ بناء على اعلان مصر انسحابها منـــه بشكل وحيد الطرف « رغبة منها في تحديد سياستها الوحدوية على أسس جديدة ». ثم إن انقلاباً عسكرياً حدث في اليمن بتاريخ ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٢ ، وتحولت المملكة الى جمهورية برئاسة المشير عبدالله السلال .

والواقع أن الفرصة لم تطل ، فقد وقعت في ٢٨ (سبتمبر) ١٩٦١ جريمة قومية من أبشع جرائم التاريخ العربي ، إذ حدث الانفصال ، وانفكت عرى الوحدة بين الاقليمين المصري ، مما اضطر جمال عبد الناصر الى التمنّـع عن إصدار الأمر الى القوات المسلحة بالقيام بأي عمل عسكري ، وذلك حرصاً منه على ألاّ يهدر الدم العربي باليد العربية .

ولسنا هنا في مجـال تحليل أسباب الانفصال ، او في سبيل الدلالة على المجرمين الذين ارتكبوه ، وإنما ، في كل حال ، لا بد من الاشارة الى الاصالة في الشعبين السوري والمصري اللذين ما يزالان يؤكدان، مروراً بميثاق الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق في ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٦٣ ، وبمؤتمرات القمة، وأخيراً بمشروع الاتحاد الفيديرالي الذي قام في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ بين السودان وليبيا ومصر ، وانضمت سوريا اليه في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ [١] . وفي هذا ما يثبت أن إرادة الشعوب لا تكترث بإرادة

---

(١) وقد صدر اعلان الاتحاد الرباعي بالبيان المشترك التالي نصه، نثبته هنا نظراً لأهميته: =

حكامها ، وإنما ، على العكس ، تملي إرادتها على الحكام ، وترغمهم على تحقيق ما تصبو اليه من تطلعات قومية عظيمة .

وقد أكد الميثاق ، في الجمهورية العربية المتحدة على حتمية الوحدة العربية ، فجاء فيه ان الأمة العربية لم تعد في حاجة الى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها . لقد جاوزت الوحدة هذه المرحلة ، وأصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته . يكفي أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التي تصنع وحدة الضمير والوجدان . ويكفي أن الامة العربية تملك وحدة الأمل التي تصنع وحدة المستقبل والمصير .

إن الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أساسها ، مستدلين

= « انطلاقاً من نفس الظروف النضالية التي تمر بها الامة العربية ، وفي جو المسؤولية التاريخية التي تم فيها اتفاق رؤساء دول ميثاق طرابلس على اعلان القاهرة الثلاثي الصادر يوم ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ ، وبناء على رغبة الجمهورية العربية السورية الانضمام الى دول اعلان القاهرة الثلاثي ، وهي الرغبة المنسجمة مع تطلعات الامة العربية ومع أهداف ذلك الاعلان ، وتأكيداً وتأميناً لمسيرة النضال العربي التي رفع لواءها القائد والمعلم جمال عبد الناصر ،

« اجتمع بالقاهرة يومي ٢٦ – ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ وفد الجمهورية العربية السورية برئاسة الفريق حافظ الأسد رئيس الوزراء ووزير الدفاع ، بوفد الجمهورية العربية المتحدة برئاسة الرئيس أنور السادات رئيس الجمهورية .

« وتمت اتصالات مباشرة بين الرؤساء أنور السادات رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، واللواء جعفر محمد النميري رئيس مجلس الثورة ورئيس الوزراء بجمهورية السودان الديمقراطية ، والعقيد معمر القذافي رئيس مجلس الثورة ورئيس الوزراء بالجمهورية العربية الليبية ، والفريق حافظ الأسد رئيس الوزراء ووزير الدفاع بالجمهورية العربية السورية .

« وقد توصل الرؤساء من خلال مداولاتهم الى أهمية الدور الذي يمكن ان يضطلع به شعب وحكومة الجمهورية العربية السورية لإعلان القاهرة ، وتشكيل قيادة رباعية موحدة تضم رؤساء الدول الاربع .

وفي ضوء استعراض الموقفين العربي والدولي ، اتفق الجانبان على ضرورة العمل في كافة المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية بما يحقق دعم قدرات الامة العربية في معركتها المصيرية في مواجهة المخططات الاستعمارية والصهيونية على المستوى العربي والدولي » ...

بقيام خلافات بين الحكومات العربية ، ينظرون الى الأمور نظرة سطحية إن مجرد وجود هذه الخلافات هو في حد ذاته دليل على قيام الوحدة » .

لقد أثبتت ظروف الامة العربية ، في اشد ايامها الحوالك ، وفي اكثر مراحلها إشراقاً وزهواً، ان الوحدة قدرُ هذه الامة وقضاؤها ، وأن الشعب العربي العظيم الذي يملك تراثاً من التاريخ ، جعل بشائر دولته تدق ما بين المحيط والخليج ، هو الشعب المدعو الى التسامي فوق الحزازات والاقليميات والخصومات العابرة ، الى لقاء اخوي صادقٍ في دولة عزيزة منيعة الجانب ، وحدوية ، تقدمية ، صاعدة .

وليس مؤتمر القمة العربية الاول الذي انعقد في القاهرة في ١٣ كانون الثاني سنة ١٩٦٤ ، وكان في طليعة قراراته انشاء قيادة عربية موحدة ، وهيئة خاصة من ممثلي الملوك والرؤساء العرب تتابع تنفيذ قرارات المؤتمر ، وهيئة اخرى للاشراف على تنفيذ المشروع العربي لاستخدام مياه نهر الاردن ،

وليس مؤتمر القمة الثاني الذي انعقد في ٥ ايلول سنة ١٩٦٤ بالاسكندرية، وتقرر فيه لأول مرة انشاء منظمة التحرير الفلسطينية ، وتأليف مجلس عربي مشترك للبحوث الذرية ،

وليس مؤتمر القمة الثالث الذي عقد في الدار البيضاء بتاريخ ١٣ ايلول سنة ١٩٦٥ ، والتزم الملوك والرؤساء في قراراته بميثاق التضامن العربي ، والحفاظ على وحدة التراب الوطني للأقطار العربية ، والاتفاق على الخطط العربية لتحرير فلسطين ، ودعم القيادة العربية الموحدة ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وجيش التحرير الفلسطيني ،

ثم ليس مؤتمرا القمة اللذان انعقدا ، بعد نكسة الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ في كل من الخرطوم والدار البيضاء، تلك النكسة التي يجدر بكل عربي ، وهو حريص على الاستفادة من عبرها ودروسها ، ان يتجاهل البحث

في ملابساتها وانعكاساتها ، لئلا يساهم في تسطير الصفحات السوداء من التاريخ العربي الناصع ،

وأخيراً ليس مؤتمر القمة الذي عقـــد في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ لبحث الأزمة القائمة بين السلطات الاردنية ورجال المقاومـــة الفلسطينية ، والذي انتهى الى وقف سيل الدماء العربية التي تهدر بالأيدي العربية ، وكذلك الى « وقف السباق مع الموت » ، على حد تعبير جمال عبد الناصر، في آخر كلماته التي سجلها محمد حسنين هيكل في صحيفة « الاهرام » ،

أقول ليست كل تلك المؤتمرات سوى دليل ثابت ينأى عن الريبة والشك، ويؤكد حتمية الوحدة العربية التي ، وإن أعاقتها شكليات الحكم ورسمياته في سائر أقطار الأمة العربية ، فإن إرادة الشعب العربي ترفض الاعتراف بهذه الشكليات التي تؤخر قيامها ، وتتعداها الى اللقاء التاريخي الحتمي الذي يبني دولة الوحدة والحرية والاشتراكية، ويضفي على المجد العربي التليد مجداً جديداً.

وداع البطل

كانت الدماء العربية تنزف في الاردن ، بعدما بلغ شقاق الأشقاء مبلغاً عظيماً ، وكانت الدماء ، في الوقت ذاته ، تنزف من قلب جمال عبد الناصر ، حتى لقد عزّ على هذا القلب الكبير ان يرى نفسه عاجزاً عن افتداء كل قطرة دم عربية تراقُ على ارض أمته ، بكل ما فيه من قطرات الدماء .. وكان ان توقف القلب عن الخفقان، وصاحبه في أوج الشباب، ولكنّه الشباب الذي تحمّل من قساوة الظروف ما لم يتحمله انسان آخر ، سواء على الصعيد الشخصي او على الصعيد القومي او على الصعيد الدولي :

كان جمال قد فقد رفاقه ، رجلاً بعد رجل ، في ظروف بعضها طبيعي ، وبعضها الآخر مما يهدّ الراسيات من الجبال . وكانت اضخم مأساة شخصية ، عرفها عبد الناصر ، في ظني ، هي مأساة انتحار رفيق نضاله المشير عبد الحكيم عامر ، إثر نكسة حزيران ١٩٦٧ .

وكان جمال الذي نقل خطى أمته من انتصار الى انتصار ، قد واجه مأساة الانفصال السوري عام ١٩٦١ ، ومأساة التهجم الأرعن من بعض الحكومات العربية التي مدّ اليها يد العون والمساعدة ، ومأساة حزيران سنة ١٩٦٧ التي كادت، لولا ايمانه بالله والشعب، أن تبدد آماله وتطلعاته القومية . وكان جمال قد واجه أشرس مؤامرة عالمية حاكتها الموجة الامبريالية الاستعمارية الغاشمة ضد ثورته التحررية التي لم يقصرها على ارض مصر ، وإنما



توقيع اتفاق القاهرة ويبدو : عبد الناصر ، عرفات ، القذافي

اشاعها في القارتين الافريقية والآسيوية ، وفي بعض دول اوروبا واميركا ، حتى غدا من الزعماء المسموعي الكلمة في الكتلة الدولية الجديدة ، كتلة العالم الثالث ، ومع ذلك فلم تكف عنه المؤامرات الدولية ، وحركات التجسس وأعمال الخيانة ، في يوم من الايام .

واذا أضفنا الى كل ما عاناه جمال عبد الناصر ، تلك الحساسية المرهفة ،

وذلك القلب الانساني النبيل، أدركنا كيف تناوبت على جسده العملاق أدواء وأمراض ، رفض الإذعان لها ، بمنطق البطولة ، وبوحي الرجولة ، حتى اذا نفذت كلمة القضاء، كان جمال عبد الناصر اكبر من ان يحصى عمره بالسنوات، لأنه عاش عمره ، ملء عمره ، صانعاً لمنجزات هي اقرب الى المعجزات التي تخلّد ذكره على مرّ الزمان .

ففي مساء يوم الاثنين الواقع في الثامن والعشرين من ايلول سنة ١٩٧٠ ، كان جمال عبد الناصر يودع الملوك والرؤساء العرب، واحداً واحداً، بعد ان اسفر اجتماعهم عن عقد « اتفاق القاهرة » الذي أزال اسباب الخلاف بين السلطة الاردنية والمقاومة الفلسطينية . وكان آخر زعيم عربي يودعه جمال عبد الناصر ، هو امير دولة الكويت الشيخ صباح السالم الصباح ؛ وفي تلك اللحظة شعر عبد الناصر ببداية النوبة القلبية المفاجئة، فطلب، على غير عادته، ان تجيء سيارته الى حيث يقف ، فأقلته سيارته بسرعة الى منزله ، ثم دخل الى المنزل وحيّا عقيلته ، وسأل عن حفيدته ، وتوجه الى غرفته، وعلى الفور حضر طبيبه المقيم الدكتور الصاوي حبيب الذي استدعى بدوره كلا من الأطباء الدكتور رفاعي محمد كامل والدكتور منصور فايز والدكتور زكي الرملي والدكتور طه عبد العزيز .

واستدعي رجالات الدولة على عجل .. وأخليت غرفة الرئيس إلا من الاطباء الذين حاولوا ، عبثاً ، ان ينقذوا حياة الرئيس الرائد القائد البطل ، ولكن إرادة الله كانت قد نفذت ، وفارقت الروح جثمان جمال في الساعة السادسة والربع من ذلك المساء الرهيب .. وانفجر الاطباء بالنحيب .. ولم يبق في منزل الرئيس كائن إلا ودّ لو يفتديه بكل ما يملك من اسباب الحياة ، ولكن هيهات !

أما زوجة جمال .. فكانت تقول ، في حزنها القاتل : « لا أريد شيئاً ؛ لم أُرِد في حياتي غيره ؛ لم يكن بالنسبة اليّ رئيساً للجمهورية . كان زوجي . وليس لي أمل في الدنيا غير أن أُدفن الى جانبه »..



آخر عمل رسمي .. وداع امير الكويت

ووضع الأطبـــاء تقريرهم .. واتخذت الترتيبات اللازمة لإجراء مراسم الدفن بمـــا يليق بمكانه البطل العظيم ، ثم في الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق قطعت اذاعات الجمهورية العربية المتحـدة برامجها ، فجأة ، ثم راحت تبث تلاوات من آي الذكر الحكيم . وبعد ربع ساعة ، ووسط ذهول الناس

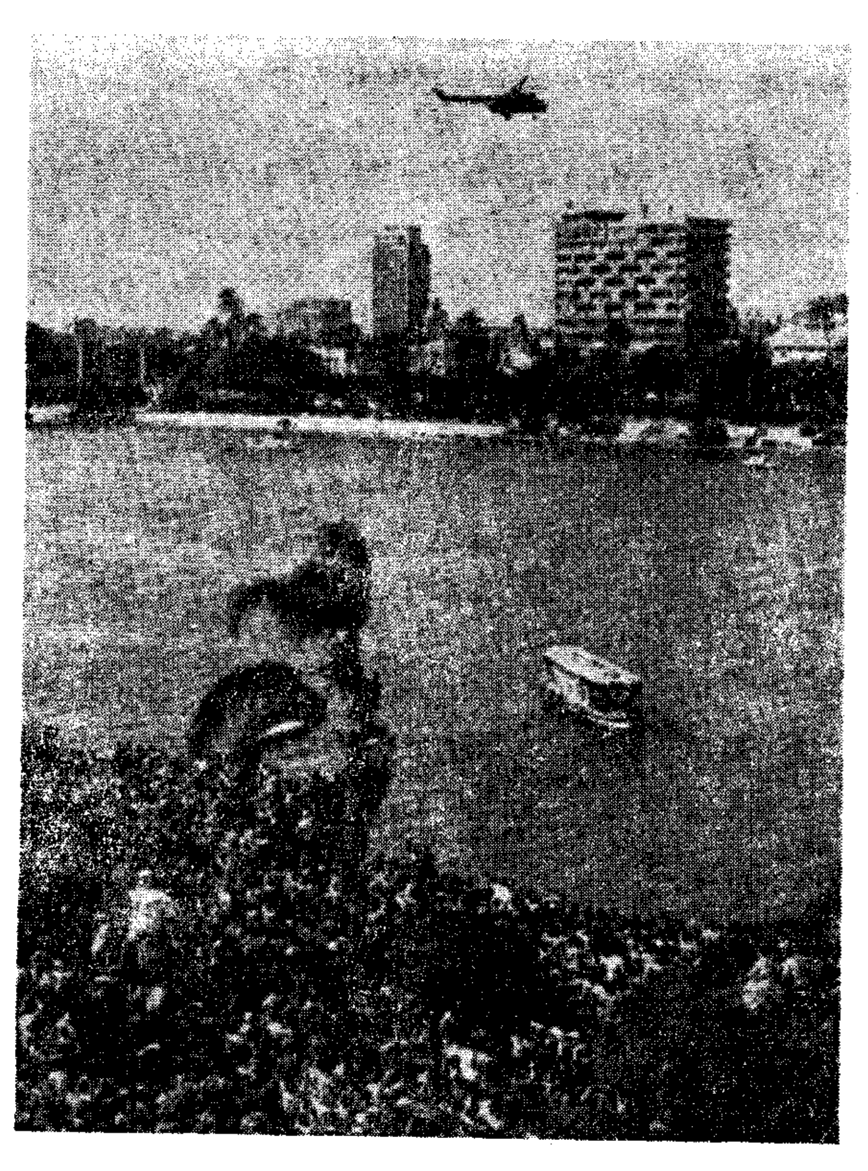
جميعاً ، في جميع انحاء الأمة العربية ، نعى السيد أنور السادات الرئيس جمال عبد الناصر بالكلمة الآتية :

« فقدت الجمهورية العربية المتحدة ، وفقدت الأمة العربيـــة ، وفقدت الانسانية كلها رجلاً من أغلى الرجال وأشجع الرجال وأخلص الرجال ، هو الرئيس جمال عبد الناصر الذي جـــاد بأنفاسه الأخيرة في الساعة السادسة والربع من مساء اليوم ٢٧ رجب ١٣٩٠ الموافق ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، بينما هو واقف في ساحة النضال يكافح من أجل وحدة الأمة العربيـــة ومن أجل يوم انتصارها .

لقد تعرّض البطل الذي سيبقى ذكره خالداً الى الأبد في وجدان الأمـة والانسانية لنوبة قلبية حادة بدت أعراضها عليه في الساعة الثالثة والربـع بعد الظهر . وكان قد عاد الى بيته بعد انتهائه من آخر مراسم اجتماع مؤتمر المـــلوك والرؤساء العرب الذي انتهى بالأمس في القاهرة ، والذي كرس له القائد والبطل كل جهده وأعصابه ليحول دون مأساة مروعة دهمت الأمة العربية .

إن اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي ومجلس الوزراء، وقد عقدا جلسة مشتركة طارئة ، على أثر نفـاذ قضاء الله وقدره ، لا يجدان الكلمات التي يمكن بهـــا تصوير الحزن العميق الذي ألمّ بالجمهورية العربية المتحدة ، وبالوطن العربي والانساني ، إزاء ما أراد امتحانها به في وقت من أخطر الأوقات .

إن جمال عبد الناصر كان أكبر من الكلمات، وهو أبقى من كل الكلمات، ولا يستطيع أن يقول عنه غير سجله في خـــدمة شعبه وأمته والانسانية ، مجاهداً عن الحرية ، مناضلاً من أجل الحق والعدل ، مقاتلاً من أجل الشرف الى آخر لحظة من العمر .



جثمان جمال عبد الناصر في طائرة الهليكوبتر ، محلقاً فوق النيل الخالد ،
وقد زحفت الملايين لوداع رائد تاريخها الحديث

ليس هنـاك كلمات تكفي عزاء في جمال عبد الناصر . إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفي بحقه وبقدره هو أن تقف الأمة العربية الآن كلها وقفـة صابرة صامدة شجاعة قادرة، حتى تحقق النصر الذي عاش واستشهد من أجله ابن مصر العظيم ، وبطل هذه الأمة ورجلها وقائدها ؛ « يا أيتهـا النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

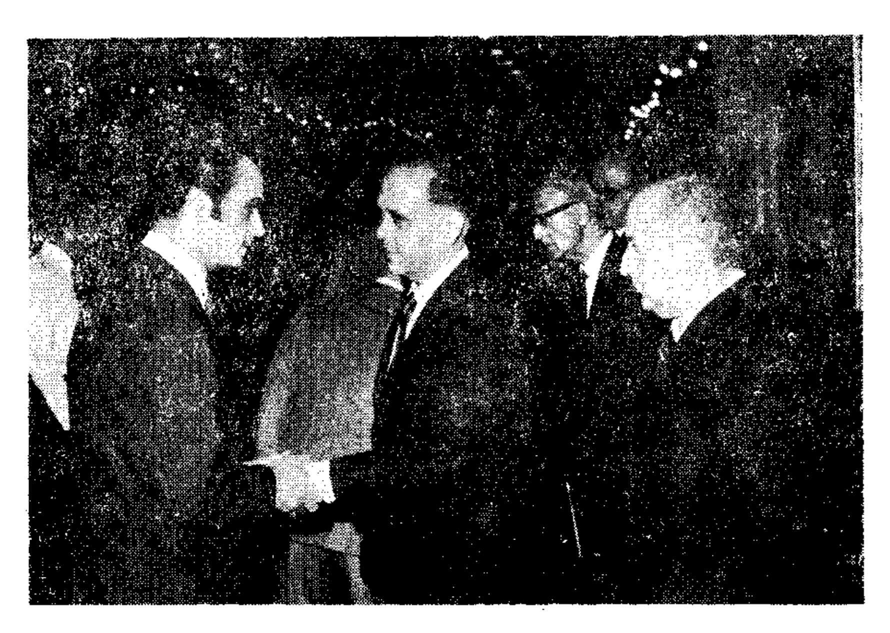
●

وفي يوم الخميس ، أول تشرين الأول (ديسمبر) ١٩٧٠ ، كانت القـاهرة قد استقبلت أكبر حشد عرفه تاريخ مصر القديم والحديث ، من زعماء الدول ورؤساء وأعضاء الوفود ، وقـد أقبلوا من جميع انحاء العالم ، للمشاركة في تشييع جثمان البطل الراحل ، ولمؤاساة شعب مصر والوقوف الى جانبـه في يوم العصيب .

ونُقل الجثمان من قصر القبـة ، حيث كان قد سجي لإلقاء نظرة الوداع الأخير عليه ، الى مقر قيادة الثورة ، ضمن طائرة هيلكوبتر واكبتها ثلاث طائرات هيلكوبتر اخرى ، وكانت تلك رحلته الأخيرة التي طاف فيها فوق نهر النيل الخالد الذي أحاطت به قلوب الملايين من أبناء البشر ممن كان حبهم قد ملأ قلب جمال عبد الناصر .

ومن مقر قيادة الثورة ، سار موكب الجنازة ، وقد وضـع النعش على عربة مدفع ، ولفّ بعلم الجمهورية العربية المتحدة ، ولبث الموكب طيلة ساعات يسير ببط ، ويتوقف باستمرار ، حتى بلغ مسجد ناصر الذي يقع قرب منزل الرئيس عبد الناصر ، في منشية البكري ، والذي كان قد أشرف على تصميمه وبنائه بنفسه ، كل ذلك وسط رفض ظاهر ، واحتجاج واضح ، كأنما الناس يرفضون الموت لرجل عمل ، طيلة عمره ، من أجل كرامة الحياة .

●



المؤلف يعزي في بيروت الدكتور شمس الدين الوكيل رئيس جامعة بيروت العربية
بوفاة الرئيس جمال عبد الناصر ، وقد بدا الى جانبهما وزير العدل الدكتور جميل كبي

وغاب جمال عبد الناصر.

ولكن روحه لم تغب . إن جمال عبد الناصر ماثل في ضمير الأمة ، مقيم في وجدان أبنائها ، حيّ في قلوبهم ؛ على هدي بطولته يسيرون ، والى أهدافه يتجهون ؛ حتى إذا جاء يوم حرّروا فيه أرضهم ، ووحدوا كلمتهم ، وسموا فوق خلافاتهم ، وضمنوا كرامة وطنهم ، أكدوا حقيقة تقول : إن جمال عبد الناصر لا يموت !

مراجع الكتاب

١ – فلسفة الثورة ، لجمال عبد الناصر .

٢ – ميثاق الامم المتحدة .

٣ – اسرار الثورة المصرية ، لأنور السادات .

٤ – وكالة انباء الشرق الاوسط .

٥ – مجلة « الاسبوع العربي » اللبنانية .

٦ – مجلة « المصور » القاهرية .

٧ – مجلة « روز اليوسف » المصرية .

٨ – جمال عبد الناصر وصحبه ، لجورج فوشيه .

٩ – مجلة « صباح الخير » القاهرية .

١٠ – عودة الروح ، لتوفيق الحكيم .

١١ – ناصر الشهيد الحي ، دار الصياد .

١٢ – الحقوق الدولية العامة ، للدكتور فؤاد شباط .

١٣ – الميثاق (قدمه عبد الناصر للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية في ٢١ ايار سنة ١٩٦٢) .

١٤ – مجموعة خطب جمال عبد الناصر .

١٥ – وكالة الانباء التشيكوسلوفاكية .

١٦ – عشر سنوات في مشرق الشمس ، لعبد المنعم شمس .

الفهرس

المؤلف والكتاب

• مؤلف الكتاب محام لبناني، يحمل دبلوم الدكتوراه في القانون العام، وهو صاحب عدد كبير من المؤلفات والتحقيقات الأدبيّة والترجمات العالميّة التي حاز عليها وسام الأرز الوطني.

• وهو أستاذ للأدب العربيّ في عدّة كليّات ببيروت، وشاعر وخطيب ومحاضر طويل الباع.

• قال عنه سكرتير المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون في القاهرة: «وقد كسب الشعر المعاصر بفوزي عطوي شاعراً عملاقاً تتفتح نوافذه المضيئة المطلة على عالم من الفن الرائد، والخلود الفتان..»

• ووصف الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قصائده في رسالة خاصة بأنها «مفعمة بالوطنية والشعور القومي النبيل».

• ويعتبر كتابه هذا "جمال عبد الناصر رائد التاريخ العربي الحديث" من اعمق الدراسات التي وضعت حول الرئيس القائد.

الشركة اللبنانية للكتاب